افتتاحية العدد

هذا هو العدد الرابع من مجلة «تراثيات» . وبصدوره تكمل المجلة عامها الثانى . وخلال الفترة التى فصلت بين هذا العدد وسابقه ، أعلن عن فوز الأستاذ الدكتور حسين نصار بجائزة الملك فيصل العالمية فى مجال اللغة والأدب .

وإذا كانت الجائزة تعد تتويجًا لجهوده العلمية التى تواصلت على مدى أكثر من خمسين عاما ، فإن مجلة «تراثيات» يسعدها أن تغتنم هذه الفرصة فتقدم لقرائها الكرام ملفا خاصا عن سيادته ، أسهم فيه بعض تلاميذه ومريديه .

والحق أننا لم ننشر كل ما وصلنا من بحوث ودراسات عن الدكتور نصار ، وذلك لسببين :

أولهما : أننا لم نشأ أن نحرم قراء المجلة من الأبواب الثابتة التي درجت عليها منذ صدورها .

وثانيهما : أننا حرصنا فى الوقت نفسه على أن نلتزم بالحجم الذى تصدر به المجلة قدر الإمكان وعلى ألا يتضخم هذا العدد فيكون نشازًا بين الأعداد السابقة واللاحقة .

وعلى ضوء هذين الاعتبارين اكتفينا ببعض البحوث التى تتكامل معًا ، ويسهم كل منها بنصيب فى التعريف بالدكتور نصار وإنجازاته فى مجالى اللغة والأدب ، تأليفًا وتحقيقًا وترجمة ، وهى صورة نرجو أن تكون واضحة المعالم دقيقة الأبعاد . أما البعض الآخر من البحوث ، فقد يتاح له النشر فى أعداد تالية من المجلة ، أو فى مجلات أخرى فى مصر والعالم العربى .

وإذا كان من حق الدكتور نصار علينا أن نتقدم له بخالص التهنئة ، فإن من حق الذين كتبوا عنه أن نتقدم إليهم بوافر الشكر وعظيم الامتنان ، ومن حق القارئ أن يعرف أن الملف سيظل مفتوحًا لكل إضافة جادة وجديدة .

بقيت كلمة أخيرة نتوجه بها إلى القراء ، وهى أن المجلة حريصة على تلبية حاجات الباحثين فى التراث العربى ، وأنها تفتح صدرها لأى نقد ، وترحب بأى اقتراح يمكن أن يثرى مادتها ويجعلها تؤدى رسالتها على نحو أفضل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

رئيس التحرير

طرق تأريخ النسخ في المخطوطات
النشأة والحل

أ / عصام محمد الشنطي(*)

طالما يُغفل المتخصصون واضعو برامج الدورات التدريبية لفهرسة المخطوطات العربية تدريس هذه المادة، وكأنهم يقلّلون من أهمية هذا العنصر من عناصر الفهرسة. وكثيرا ما يحدث حين يُفهرس المتدرّب في بلده، ويتقدم درجات في عمله - أن يصطدم بسنة نسخ مخطوطة بين يديه، وُضعت في هيئة حساب الجُمّل، أو بالطريقة العثمانية، فيحار أمام هذه العويصة. وبهذا يحسّ أن في تدريبه ثغرةً لا يستطيع سدَّها، ونقصًا لا يجد له حلا. فإلى هؤلاء الخبراء المتخصصين أُقدِّم هذه الدراسة، لعلهم يعيرونها اهتمامًا.

(١)

مدخل:

يُعد تاريخ نسخ المخطوطة من أهم العناصر الأساسية للفهرسة، في مناهجها المختلفة، إن لم يكن أهمَّها. هذا بطبيعة الحال - بعد عنوان المخطوطة، واسم مؤلِّفها، اللَّذَيْن يُعَدَّان هُوِيَّتها.

وتعلو قيمة النسخة إذا كانت بخط المؤلِّف، لأنها كُتبت في وقت ولادتها وكذلك الحال إذا كانت النسخة يملكها المؤلِّف، وإن لم تكن بخطِّه، لأن تاريخ نسخها يُعَدّ أقرب تاريخ لهذه الولادة والتأليف.

يلي ذلك النسخة التي كُتبت في حياة المؤلِّف، خاصة إذا كتبها أحدُ تلاميذه بإملائه، أو من الذين صحبوه وعايشوه زمنًا، وبهذا تكون النسخة أبعثَ على الثقة بها، والاطمئنان إلى نَصِّها.

ويتبع ذلك عمومًا قِدَمُ المخطوطة، وقربها من وفاة المؤلِّف، فكلما قربت كتابتها من وفاته، ازدادت قيمة ونَفَاسة.

وفي العادة يكون موضع تاريخ النسخ من النسخة في آخرها، بعد تمام مادة المؤلِّف، أو كلامه، وهو ما يُسمَّى بـ «حَرْد المَتْن». ولفظة حَرْد، على ما ذكرت بعض المصادر[١]،

(*) خبير بمعهد المخطوطات العربية.

(١) المُعرَّب، ص ١٦٥.

نبطية الأصل معرَّبة ، جاءت من : «الحَرْدِيَّة [وهى] حِياصَة[١] الحظيرة التى تُشَدُّ على حائط من قَصَب عَرْضًا . تقول حَرَّدْناه تَحرِيدًا» . وكأنَّ حَرْد المَتْن بمثابة حزام واقٍ ، جُعِل فى آخر الأصل ، ليحميه ويُشعر بحدوده ونهايته .

ويقال لحرد المَتن بالأجنبية Colophon وهى كلمة لاتينية مأخوذة من اليونانية القديمة ، دخلت اللغات الأوروبية ، وتعنى فى القواميس ما يُكتب فى آخر المخطوطة أو الكتاب ، وله صلة بتاريخ النسخ أو الطبع .

ويَحدث أن يجتمع معًا فى آخر النسخة ثلاثة تواريخ ، ينبغى أن نفرّق بينها ، وألا تختلط على المفهرِس أو المحقِّق ، فلا يدرى أيُّها تاريخ نسخ النسخة التى بين يديه .

أما التاريخ الأول فهو تاريخ التأليف . وغالب الأحيان يكون هذا من قول المؤلِّف شافعًا إياه حينًا باسم المدينة ، أو المكان الذى أتمَّ فيه كتابه . ويظهر هذا جليًا حين تكون النسخة بخط المؤلِّف ، فلا يحدث هذا الخَلْط الذى ننبّه إليه . وكثيرًا ما يقترن تاريخ التأليف بعبارة المؤلِّف : وافق تبييضه . . . ، أو فرغتُ من تسويده . . . أو فرغتُ من جَمْعه . . .

ومثال تاريخ التأليف ، أو الشرح ، أن تجد فى آخر انتهاء كلام المؤلِّف ما يلى : «وكان الفراغ من هذا التفسير والشرح اليوم السادس عشر من شهر ربيع الآخِر ، سنة اثنتين وستين وأربعمائة» .

والتاريخ الثانى هو تاريخ نسخ النسخة المنقول منها ، ينقله ناسخ النسخة التي بين يديه كما هو ، دون تغيير أو توضيح ، وهذا التاريخ إذا كان متقدمًا يُكسب النسخة الجديدة قيمة عالية ، وإن كان تاريخ نسخ هذه النسخة الجديدة متأخرًا .

أمثل لذلك بنسخة مخطوطة من كتاب «التحفة الشاهية» لقُطْب الدين محمود ابن مسعود الشِّيرازى ، المتوفى ٧١٠هـ ، كتبها محمد بن طاهر السَّمَاوى سنة ١٣٢٦هـ . وهى متأخرة كما ترى . ولكنها نُقلت من نسخة كُتبت سنة ٨٣٠هـ من نسخة الأصل . وبهذا ارتفعت قيمة النسخة التى بين أيدينا[٢] .

---

(١) حِزَام .

(٢) المخطوطة ـ مصورةً ـ محفوظة بمعهد المخطوطات العربية ، برقم ٢٧١ فلك ، والأصل محفوظ فى مكتبة آية الله الحكيم العامة فى النجف برقم ٥٤٧ . انظر فهرس المخطوطات المصوَّرة : الفلك ، القسم الثانى ، ص ٦٢ .

نصلُ بعد ذلك إلى التاريخ الأخير الذى يكتبه ناسخ النسخة التى بين يديه . وأحيانًا يحدث ألا يَكتب الناسخ هذا التاريخ مكتفيًا بما نقله من تاريخ نسخ النسخة المنقول منها ، إما سهوًا ، أو بقصد التمويه ، ليمنح نسخته قيمة أعلى . وعلى المفهرِس أو المحقِّق أن يتنبَّه ، فلا يتوهمنَّ أن ذلك التاريخ هو تاريخ نسخ النسخة التى بين يديه .

وسنوالى الحديث ، بعد هذا المدخل ، عن تأريخ النسخ فى المخطوطات ، الذى اتخذ ثلاث صور مختلفة ، نَعرضها وَفْق ظهورها التاريخى .

(٢)

الصورة الأولى :

وصل إلينا أن المؤلفين العرب والشعراء ونُسَّاخ المخطوطات أرَّخوا بالعبارة ، أو بالجُمْلَة ، قبل أن يعرفوا الأرقام الهندية ، والأرقام الغُبارية أو العربية كما سمَّاها الغربيون . وعُرف هذا التأريخ بالعبارة أو الجُمْلَة بـ «حساب الجُمَّل» ، بضم الجيم ، وتشديد الميم مفتوحةً ، وزن سُكَّر .

وصيغة «الجُمَّل» فى العربية معروفة ، ففى المعاجم : الجُمَّل الحبل الغليظ ، أو حبل السفينة . وفى «لسان العرب»[1] : الجُمَّل بتشديد الميم يعنى الحبال المجموعة . وفى قراءةٍ للآية الكريمة : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجُمَّلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[2] .

ومن وزن الجُمَّل : عُزَّل ، ودُمَّل ، وقُمَّل ، وسُكَّر التى ذكرناها عمَّا قليل .

ووردت صيغة الجُمَّل مقرونه بالحساب ، فنقول حساب الجُمَّل . وعلى الأرجح أن هذه الصيغة جاءت من أجْمَلَ الحسابَ جمع أعدادَه وردَّه إلى الجُمْلَة ، أو جمعَ آحاده ثم فصَّله وبيَّنه[3] . والصلة بين معنى الجُمَّل مقرونة بالحساب ، وأجمل الحسابَ واضحة . وكذلك الجُمَّل بمعنى الحبال المجموعة لها صلة حسِّيَّة به على نحوٍ ما .

وذكر بعضهم أنها يمكن أن تكون بالتخفيف ، أى حساب الجُمَل ، غير أن ابن سِيده قال : «ولست منه على ثقة»[4] . وبهذا ظلت صيغة التخفيف ضعيفة ، وغير مستعملة .

---

(١) مادة : جَمَلَ .

(٢) سورة الأعراف ٧ : الآية ٤٠ .

(٣) تاج العروس ، مادة : جَمَل

(٤) نقلا من لسان العرب ، مادة : جَمَلَ .

وأول من ذكر فى المعاجم أن الجمل من الحساب غير عربية ، ابن دُرَيْد ، المتوفى ٣٢١هـ ، فى معجمه «الجمهرة» . قال فى موضع[1] : وأما الجُمَّل من الحساب فلا أحسبه عربيا صحيحا ، وفى موضع آخر[2] قال : والجُمَّل من قولهم حساب الجمل وأحسبها داخلة (دخيلة) فى العربية .

وأظن أن ابن دُرَيد لايقصد أن كلمة الجمل غير عربية ، إنما قَصد فى الموضعين الجُمَّل المقرونة بالحساب ، هى غير العربية .

ونعلم أن العرب فى الإسلام لم يرثوا عن أجدادهم أشكالاً خاصة للأرقام ، فأخذوا من الأمم فى بلاد الشام والعراق أسلوبهم فى الحساب ، وهو حساب الجمل . والمعروف أن هذا الحساب عندهم يعتمد فى التعداد أبجدية السُّريانيين المقتبسة من ترتيب أبجدية الفينيقيين ، كما اقتبسته جميعُ الأبجديات الساميّة الأخرى[3] .

وكانت حروف الأبجدية الفينيقية تتكون من اثنين وعشرين حرفًا ، وهى حروف الكلمات الست الأولى : أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ونلاحظ أنها سميت أبجدية نسبة إلى أول كلمة فيها . وزادوا عليها بقية الحروف العربية الستة الأخرى التى كوَّنت كلمتى : ثخذ ، ضظغ ، فأصبحت ثمانية وعشرين حرفًا ، مرتبة بالنظام الأبجدى أو أبى جاد ، كما يقال له أحيانًا ، وعُرفت آنذاك بالأبجدية العربية . وقد جُعلت هذه الحروف فى ثمانى كلمات لتساعد على التذكّر والحفظ ، دون أن يكون لها بالعربية معنى .

وقد خُصِّص فى نظام حساب الجُمَّل ، لكل حرف من الحروف الأبجدية ، عَدَدٌ من الواحد إلى الألف[4] ، فالحروف التسعة الأولى لأرقام الآحاد من ١ - ٩ ، والحروف التسعة الثانية لأرقام العَشَرات من ١٠ - ٩٠ ، والحروف التسعة الثالثة لأرقام المئات من ١٠٠ - ٩٠٠ . أما الحرف الأخير ، وهو الغين ، فجعل للرقم ألْف .

والجدول التالى يوضح تفصيلا هذه الأعداد المقابلة للحروف ، والتي قام عليها حساب الجُمَّل :

---

(١) ج ٢/ ١١١ - ١ . وانظر المعرَّب ص ١٤٨ .

(٢) ج ٣/ ٣٥٢ - ١ .

(٣) المعجم العربى بين الماضى والحاضر ، ص ١٤ .

(٤) الوسيط ، مادة : جَمَلَ .

أ = ١	ح = ٨	س = ٦٠	ت = ٤٠٠
ب = ٢	ط = ٩	ع = ٧٠	ث = ٥٠٠
ج = ٣	ي = ١٠	ف = ٨٠	خ = ٦٠٠
د = ٤	ك = ٢٠	ص = ٩٠	ذ = ٧٠٠
هـ = ٥	ل = ٣٠	ق = ١٠٠	ض = ٨٠٠
و = ٦	م = ٤٠	ر = ٢٠٠	ظ = ٩٠٠
ز = ٧	ن = ٥٠	ش = ٣٠٠	غ = ١٠٠٠

ومن الأمثلة ما نلقاه عند صلاح الدين الصفدى ، المتوفى ٧٦٤هـ ، من الشعر الذي يستعمل فيه حساب الجُمل ، حين يصف قلم ممدوح له اسمه بدر الدين نَفاع ، وهو :

لصفاتِ بدر الدين فضلٌ شائع	تصبو له الأفكارُ والأسماعُ
انظر إلى «القلم» الذى يحوى فقد	صحَّ الحسابُ بأنه «نَفاعُ»

فالحساب هنا هو حساب الجُمل فى لفظتى : القلم ، نفاع ، وكلٌّ منهما بالقيمة العددية الأبجدية = ٢٠١ .

وقد وقعتُ على مخطوطة كتب الصَّفدى على غلافها بخطه ما يدل على أنه استعمل حساب الجمل فى تاريخ رغب فى تسجيله ، وهو تاريخ كتابته هذه السطور التالية : «لكاتبه خليل بن أيبك ، وهو بدير كسر ، بلد من أعمال رحبة مالك بن طوق على الفرات تاريخ «ياى» ذى قعدة ستة وثلاثين وسبع مئة ختمها الله بخير . . .» .

وواضح أن قيمة حروف «ياى» بحساب الجُمَّل = ٢١(١) .

ويلفت النظر أن التأريخ فى الشعر بحساب الجُمل قد نما وترعرع فى المنظومات التعليمية . نجد ابن الجزرى ، المتوفى ٨٣٣هـ ، فى «المقدمة الجزرية فى أحكام التجويد» يقول فى آخرها(٢) :

أبياتها قاف وزاى فى العدد	مَن يُحسنُ التجويدَ يظفر بالرُّشدِ

(١) فهرس المخطوطات المصوَّرة ، الأدب ، القسم الرابع ، ص ٧٢ .
(٢) الشكر هنا لتلميذى النابه أحمد عبد الباسط ، الباحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية ، الذى زوَّدنى بعددٍ من النماذج ، أثريتُ البحث بها .

فالقاف والزاى = ١٠٧ أبيات .

وفى موضع آخر فى متن «الدرة المضية بين القراءات الثلاث المتممة للعشرة» قال فى أواخرها :

وتمّ نظام (الدرة) احسب بعدّها وعام (أضا حَجًى) فأحسن تفؤّلا

فالدرة فى حساب الجُمّل ٢٤٠ ، وهى عِدّة أبياتها . أما سنة تأليفها فهو أضا حَجًى التى تساوى ٨٢٣هـ .

ومن المنظومات أيضًا منظومة سليمان بن حسين بن محمد الجمزورى الشافعى المتوفى ١١٩٨هـ ، المسماة «تحفة الأطفال والغلمان فى تجويد القرآن» ، جاء فى أواخرها :

أبيـــاته (نِدٌ بدا) لذى النُّهى تاريخها (بُشْرى لمن يتقنها)

نِد بدا = ٦١ ، وهو بعدد أبياتها ، أما تاريخ تأليفها فهو : بُشرى لمن يتقنها ، التى تقابل ١١٨٩هـ .

وقد انتشر حساب الجُمل انتشار النار فى الهشيم ، عند الشعراء فى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) . وجاء هذا الشعر متكلفًا متصنعًا ، تحكمه الأرقام التي ينبغى أن تساوى فى قيمتها العددية الحادثة التى يؤرخ لها الشاعر .

شاهد ذلك ما قاله الشاعر بطرس كرامة ، الحمصى المولد ، اللبنانى الإقامة ، فى مدح أحد أعيان الشام الذي بنى دارًا فى طرابلس ، جاء فى آخره :

وبهـــا التـــاريخُ يَتلى أدْخلوها بســـــلامِ

ومجموع الكلمات التالية لكلمة التاريخ حتى آخر البيت بحساب الجُمل يبلغ ١٢٣٠ ، وهو مطابق للتاريخ الهجرى الذى بُنيت فيه الدار(١) .

ومن أمثلة ما كتبه نُسّاخ المخطوطات ، يقول أحدهم : فرغتُ من نساختها فى «ذلو» يقصد سنة ٧٣٦هـ فى حساب الجُمل(٢) .

وناسخ آخر يقول : كتبتها فى «غقنب» يقصد سنة ١١٥٢ هـ فى حساب الجُمل(٣) .

(١) جوانب مضيئة من الشعر العربى ، ص ١٣٢ .
(٢) فهرس المخطوطات المصورة ، الأدب ، الخامس ، ص ٨٧٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

وفى المخطوطة رقم ٦٥ نحو بدار الكتب المصرية ، «شرح الإرشاد الهادى» للتفتازانى (ت ٧٩٣هـ) المسمَّى بتوضيح الإرشاد لإرشاد العباد ، للشارح محمد أمير خان التِّبريزى ، جاء فى أواخرها ما نصّه : «لقد تم ... فى يوم الدال من قبل الهاء ، يوم الطاء والياء ، من شهر الألف والياء ، من سنة الجيم والصاد بعد الغين» . ويقابل هذا كله : الإثنين ١٩ ذى القعدة سنة ١٠٩٣هـ .

ويتضح من هذه الأمثلة جميعا أن حساب الجُمل ظلّ متداولا عند المؤلفين والشعراء والنُّساخ ، ولم يهجر تماما ، بالرغم من انتشار الصورة الثانية من التأريخ بالأرقام الهندسية والغبارية (العربية) والتأريخ الهجرى ، الذى يُذكر صراحة .

وانتشر حساب الجُمل أيضا فى المغرب ، إلا أنهم قد طبقوا هذا الحساب على ترتيب الحروف المغربية التى يختلف بعضها عن الترتيب المشرقى . وظلّ اثنان وعشرون حرفًا فى الجدول الذى أسلفنا بيانه على ما هى ، واختلفوا فى الحروف الستة التالية :

الحرف	عند المشارقة	عند المغاربة
ص	٩٠	٦٠
ض	٨٠٠	٩٠
س	٦٠	٣٠٠
ظ	٩٠٠	٨٠٠
غ	١٠٠٠	٩٠٠
ش	٣٠٠	١٠٠٠

وهناك نوع ثالث غير معروف فى المشرق ، وإنما انتشر عند الأندلسيين والمغاربة ، واشتمل عندهم فى تواريخ بعض المخطوطات وأرقام أوراقها ، ووثائق المحاكم الشرعية ، واصطُلح على تسميته بـ «القلم الفاسى»(١) . ويبدو أنه هو الذى يسمى فى تونس «رشوم الزّمام» . ولهذا النوع قواعده الحسابية ، وأشكاله من الآحاد إلى المئات فالألوف .

ونكتفى لمعرفة هذا النوع بالمثل التالى :

فى المخطوطة التي اعتمد عليها فؤاد سيد عند تحقيقه كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لأبى داود سليمان بن حسّان الأندلسى ، المعروف بابن جُلْجُل ، والذى ألّفه سنة

(١) المصادر العربية لتأريخ المغرب ، ٢/٣٥٦ .

٣٧٧هـ ، كان الكتاب المحقق هو الأول ضمن مجموعة خطيّة كتبها محمد بن الظريف التونسى فى شهر ربيع الثانى سنة س لمح تي . وهى رموز للأرقام الحسابية المسماة برشوم الزّمام ، وتساوى سنة ٩٩٣هـ[١] . ويُذكر أن هذه المجموعة الخطيّة كانت فى المغرب الأقصى ، وناسخها مغربى من تونس ، كما نوّهنا عما قليل .

(٣)

الصورة الثانية :

عَرف العرب بعد حساب الجُمل الأرقام الهندية التى شاعت فى معظم الدول الإسلامية والعربية ، وهى ١ ، ٢ ، ٣٠٠٠ ، والأرقام الغبارية ، أو العربية كما سمّاها الأوروبيون ، والتى انتشرت فى أقطار المغرب العربى والأندلس والعالم الغربى ، وهى 1, 2, 3 ... ، فشاع عندهم استعمالها لسهولة كتابتها ، ولنظامها العَشْري الجديد .

وفى المصادر أن هذه الأرقام بنوعيها هندية الأصل ، أخذها العرب وتعلّموها وعلّموها . وكان أول اتصالهم بهذه الأرقام فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) . فالثابت أن هذه الأرقام ، عُرفت ـ أول ما عُرفت ـ فى بغداد فى أوائل الدولة العباسية ، فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وبالتحديد سنة ١٥٦هـ (٧٧٣م)[٢] .

ومنذ ذلك العهد أخذ ناسخ المخطوطة يرصد تاريخ النسخة التى يكتبها باليوم والشهر والسنة ، وأحيانًا بالساعة ، واليوم من الأسبوع ، أو بتوقيت صلاة من الصلوات .

وكان الناسخ يؤدى هذا التاريخ بطريقة واضحة وبسيطة ، خالية من ضرورة معرفة القيمة العددية لكل حرف من حروف الأبجدية ، وخالية من كل إلغاز وتعمية ، على نحو ما سنعرف فى الصورة الثالثة لأداء تاريخ النسخ فى المخطوطات .

وهذه الطريقة السهلة المباشرة ـ التى لا تحتاج إلى كدّ الذهن ، ولا إلى جهد لمعرفة هذا التاريخ ، أو الكشف عنه ـ هى الأكثر شيوعًا فى المخطوطات ، وهى الصورة التى تعتمد ، كما ذكرنا آنفًا ، على الأرقام الهندية أو الغبارية (العربية) ، والتقويم الهجرى المعروف .

(١) طبقات الأطباء والحكماء ، صفحة «مز» من المقدمة .
(٢) الأرقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ ، ص ٩١ .

وتزخر المخطوطات بهذا النمط من التأريخ ، كأن يكتب الناسخُ : فرغتُ منها يوم الإثنين رابع شهر جُمادى الآخرة ، عام ثمانية وأربعين وسبع مئة من الهجرة النبوية .

أو يقول : فرغتُ من نسخها مستهلّ جُمادى الأولى سنة . . . ، أو فى العَشْر الأُول من جُمادى الآخرة . . . ، أو يوم الأربعاء خامس عشر شهر ذى القعدة . . . بمعرَّة النُّعْمان ، أو أواسط ذى القعدة . . . ، أو فى المدرسة النجمية البادرائية بدمشق ، أو فى العشر الأوسط من ذى القعدة . . . ، أو فى العَشْر الأواخر من رجب . . . ، أو يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان . . . ، أو يوم السبت سَلْخ[1] شهر شعبان . . . ، أو صبيحة الخامس والعشرين من شهر المحرم . . . ، أو عشية يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شعبان . . . ، أو ليلة الإثنين السابع من جُمادى الثانية . . . ، بالمسجد الأقصى . . . ، أو فى الليلة المُسْفِرَة عن يوم الأربعاء العاشر من شهر المحرم . .

وفى بعض الأحيان يكون الناسخ أكثر دقّة ، فحين يذكر تاريخ الفراغ من النسخ ، يذكر تاريخ البدء فيه ، يقول : فرغتُ منه ليلة الخميس ، وهى ليلة الثامن من شهر رجب سنة . . . ، وكان ابتداء نسخه ظهيرة يوم الأربعاء الخامس من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة .

وغير ذلك من الأمثلة التي لا يختلف كثيرا بعضها عن بعض ، لأن جميعها يظل فى مساحة الصورة الواضحة ، البعيدة عن كلٍّ تعقيد أو تركيب .

(٤)

الصورة الثالثة :

هذه صورة أخرى لأداء تاريخ النسخ ، وهى أكثر تعقيدا وتركيبًا . وتحتاج إلى إعمال فكر للوصول إليها . وعلى المفهرس والمحقِّق أن يتدربا عليها ، وأن يَفُكَّا هذا التعقيد ، ويكشف هذه التعمية ، بتحليلها إلى عناصرها ، ومعرفة الأرقام المعنية وتاريخ النسخ المقصود .

ذلك أن بعض النُّساخ أخذوا يؤرِّخون بعض منسوخاتهم من المخطوطات بالكسور بدلا من التأريخ بالتقويم الهجرى المتداول ، وهو أسلوب تعمية قُصد منه شحذ الذهن ، وإذ لم يَرْض عنه بعضٌ ، وعَدّه نوعا من البهلوانية المنافية لأهداف تأريخ كتابة المخطوطات[2] .

---

(١) آخِر .

(٢) حلّ تعمية التأريخ بالكسور ، ص ٢١٤ .

ولم تظهر هذه الطريقة إلا فى عصور متأخرة ، وعلى وجه الدِّقة فى الربع الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . ويبدو أن أول مَن وَضعها هو العالم التركى ابن كمال باشا ، المتوفى ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) ، وفى رأى أن آخر سبقه فى ذلك ببضع سنين[١] . ومهما يكن الأمر ، فواضح أن نشأة هذه الطريقة هى نشأة تركية عثمانية .

وقد سُميت هذه الطريقة بـ «التأريخ الكنائى» كأن ناسخها يَذكر معنى قريبا ، ويقصد المعنى الأبعد ، كما هى الكناية البلاغية . فإذا قال ـ على سبيل المثال ـ فرغتُ من نسخها فى السُّبع الخامس ، فإنه يذكر ، فى المعنى القريب ، الجزء الخامس من شىء قَسمه إلى سبعة أجزاء . أما المعنى البعيد الذى يقصده فهو اليوم الخامس من أيام الأسبوع السُّبْعة ، وهو يوم الخميس ، على أنهم كانوا يبدأون بالأحد من أيام الأسبوع[٢] .

أما الباحثون الغربيون فسمَّوْها[٣] Dating by Fractions ، وترجمتها «التأريخ بالكسور . . .» وأظن أن هذه التسمية أقرب للواقع ، وأسهل تعبيرًا واستعمالا .

والأمثلة على هذا اللون من تأريخ النسخ متوافرة فى المخطوطات التى كتبت منذ القرن العاشر الهجرى ، وكذلك فى بعض المصادر والمراجع التى تجدها فى ذيل هذا البحث[٤] ، لذا سأكتفى بثلاثة أمثلة من خلال تجربة حيَّة صادفتنى[٥] ، وبالتالى يمكن أن يُقاس عليها .

* المثال الأول : يقول الناسخ فى آخر نساخته :

فرغتُ منها . . . للشهر العاشر ، من العام الخامس ، للعَشْر التاسع ، للمئة الثالثة ، من الألف الثانى ، للهجرة . . .

يقصد : فى شهر شوال من عام ١٢٨٥هـ[٦]

* المثال الثانى : يقول الناسخ :

فرغتُ من نسخها قبيل صلاة العصر ، من يوم الأربعاء ، السابع من الثانى ، من الثانى من الثانى ، من التاسع ، من الثالث ، من الثانى ، من الهجرية النبوية .

(١) نموذج من التأريخ بالكسور فى المخطوط العربى ، ص ٣٩٤ .
(٢) لعلهم متأثرون بأوروبا .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٤ .
(٤) انظر : حلّ تعمية التأريخ بالكسور ، ونموذج من التأريخ بالكسور فى المخطوط العربى .
(٥) كُرَّاستى ، بخطِّى ، وانظر فهرس المخطوطات المصوَّرة ، الأدب ، القسم السادس ، ص ٢٣ .
(٦) فهرس المخطوطات المصوَّرة ، النحو ، القسم الثانى ، ص ٨٥ .

وقبل أن نبدأ فى حل هذا اللغز . ينبغى أن نعلم أن أقصى ما يسجّله الناسخ من «خانات» فى هذا النوع من التأريخ ، هى : الساعة ، اليوم ضمن الأسبوع ، اليوم ضمن الشهر . الشهر ، السنة ، القرن من السنين ، والألفْ سنة .

ونعلم من كلام الناسخ أنه صرَّح بالوقت من اليوم ، كما صرَّح باليوم من الأسبوع . وألغز فى اليوم ضمن الشهر ، والشهر ، والعَقْد (العَشَرات) من السنين ، والقرن (المئات) من السنين ، والألف سنة .

وعليه فإنَّ قوله : السابع من الثانى ، إن السابع للآحاد ، والثانى للعَشَرات (العَشْر) = ١٧

من الثانى التالية هي الشهر ، وهو صفر ، بعد الشهر الأول وهو المحرَّم .

من الثانى الأخرى هى (الآحاد) للسنة = ٢ .

من التاسع هى للعقود (العَشَرات) = ٨ .

من الثالث هى للقرن (المئات) = ٢ .

من الثانى ، هى للألوف ، كأنه يقول الألف الثانية = ١ .

وعليه فإن سنة النسخ ١٢٨٢هـ .

وهكذا ننتهى أن تاريخ الفراغ من النسخ = قُبيل صلاة العصر ، من يوم الأربعاء ، السابع عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٢هـ .

* المثال الثالث : يقول الناسخ :

فرغتُ من نسخها يوم الثلاثاء الخُمْس الثالث ، من السُّدْس الثانى ، من الربع الأول من الثلث الثالث ، من العشر التاسع ، من العشر الرابع ، من العشر الأول ، من العشر الثانى ، من الهجرة النبوية .

وقبل البدء فى الحل لابد أن نعرف أن الناسخ أخرج من قوله المُلْغِز هذا اهتمامه بتحديد السَّاعة ، أو ذكر صلاة من الصلوات ، كما حدَّد اليوم من الأسبوع صراحة بقوله الثلاثاء .

ونعلم أيضًا أن الشهور القمرية ، مرتبة بدءا من : المحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الآخر (الثانى) ، جُمادى الأولى ، جُمادى الآخرة (الثانية) ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوَّال ، ذو القعدة ، ذو الحجَّة .

وقد بدأ القول : الخُمْس الثالث ، من السُّدْس الثانى ، وهو لليوم ضمن الشهر وأيام الشهر ثلاثون يومًا ، سدسه ٥ أيام ، فالسدس الثانى يقع من اليوم ٦ - ١٠ ، والخُمْس الثالث منها ، هو اليوم الثامن .

وتبعه قوله : من الرُّبع الأول ، من الثلث الثالث ـ وهو للشهر ، وشهور السنة ـ كما قلنا ـ ١٢ شهرا ، والثلث الثالث منها يقع من الشهر ٩ - ١٢ ، والربع الأول منها هو ٩ ، وهو بترتيب الشهور الذى ذكرناه عمَّا قليل ، شهر رمضان .

وقوله : من العُشْر التاسع ، هذا للسنين ، وبدأ بالآحاد ، فالعُشْر التاسع = ٩ .

وقوله : من العُشْر الرابع ، وهو للعقود (العَشَرات) = ٣ .

وقوله : من العُشْر الأول ، وهو للمئات = صِفْر ، ولو وضعنا بدل الصِّفْر ١ ، لأصبح العدد ١٣٩ ، وهو العُشْر الثانى ، لا العُشْر الأول كما قال .

وقوله : من العُشْر الثانى ، وهو للألوف = ١ .

فعدد السنين ١٠٣٩هـ .

وبهذا ننتهى إلى أن تاريخ الفراغ من النسخ : يوم الثلاثاء الثامن من شهر رمضان سنة ١٠٣٩هـ .

ولا بأس أن نختم هذه الأمثلة بمثل رابع لعله أكثر بساطة ، وأقل تعقيدًا . يقول الناسخ(١) :

فى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى ، الشهر الرابع من شهور السنة السابعة ، من العشر الرابع ، من المئة الثالثة ، من الألف الثانية ، من الهجرة النبوية .

يقصد سنة ١٢٣٧هـ .

---

(١) انظر المخطوطة بدار الكتب المصرية - ٣٨٣ صرف . وهى «شرح الشافية» لابن الحاجب ، للشارح النِّظَام النَّيسَابُورى ، المتوفى بعد ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م .

المصادر والمراجع :

- الأرقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ/ سالم محمد الحميدة . بغداد : وزارة الإعلام ، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .
- أساس البلاغة/ الزَّمَخْشرى . بيروت : دار صادر ، ١٣٩٩ = ١٩٧٩م .
- تاج العروس من جواهر القاموس/ الزَّبيدى ، الجزء ٢٨ . الكويت ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م .
- الجمهرة/ ابن دُرَيْد . بيروت : دار صادر ، بالأوفست عن طبعة حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٥هـ .
- جوانب مضيئة من الشعر العربى/ محمد عبد الغنى حسن . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢م .
- حَلّ تعمية التأريخ بالكسور/ مصطفى موالدى . مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٣٩/٢ (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م) ص ٢١٣ - ٢٥٥ .
- طبقات الأطباء والحكماء/ ابن جُلْجُل . تحقيق فؤاد سيد . القاهرة : المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٥م .
- فهرس المخطوطات المصوَّرة ، الأدب ، القسم الرابع/ عصام محمد الشَّنْطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٤م .
- فهرس المخطوطات المصوَّرة ، الأدب ، القسم الخامس/ عصام محمد الشَّنْطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٥م .
- فهرس المخطوطات المصوَّرة ، الأدب ، القسم السادس/ عصام محمد الشَّنْطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٦م .
- فهرس المخطوطات المصوَّرة ، النحو ، القسم الثانى/ عصام محمد الشَّنْطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٧م .
- فهرس المخطوطات المصوَّرة ، الفلك ، القسم الثانى/ عصام محمد الشَّنْطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٩م .

- لسان العرب/ ابن منظور ، الجزء ١٣ ، طبعة مصوَّرة عن طبعة بولاق .

- المصادر العربية لتاريخ المغرب/ محمد المنّونى . الفترة المعاصرة ١٧٩٠ - ١٩٣٠م ، الجزء الثانى ، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م .

- المعجم العربى بين الماضى والحاضر/ عدنان الخطيب . القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٧م .

- المُعرَّب/ أبو منصور الجواليقى ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر . ط٢ . القاهرة : مركز تحقيق التراث ونشره ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م .

- نموذج من التأريخ بالكسور فى المخطوط العربى/ جعفر هادى حسن . مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٣٢/ ٢ . الكويت ، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م ، ص ٣٩٣ - ٤٠٢ .

- المعجم الوسيط/ مجمع اللغة العربية ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية . القاهرة ، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢ م .

* * *

الهوية بين الأصالة والتغريب

أ.د. عفت الشرقاوي*

يدور فى حياتنا الثقافية المعاصرة جدل شديد حول مفهوم التغريب . وقد يختلط أحيانا هذا المصطلح لدى المؤيدين والمعارضين على السواء بمفهوم التحديث . وهو جدل قديم تمتد جذوره إلى بدايات القرن التاسع عشر حين تعرضت المنطقة العربية لموجات متتابعة من التغيير ، جاءت فى معظمها من الغرب ، تحت تأثير الرغبة الوطنية فى تطوير الكفاءة العسكرية فى بعض الدول لمواجهة قوى معادية أو لحماية استقلالها القومى .

ويمكن أن نقول إجمالا ، إن استجابة المثقفين العرب لهذا التأثير المتواصل ، الذى ظل يمثل تحديا مستمرا من الغرب ، انقسمت على نزعتين هما : التقليدية والتحديثية . والمقصود بالنزعة التحديثية هنا ؛ ما نجده من موقف إيجابى أمام التجديد والتغيير ، بل أمام مستحدثات الحضارة الغربية عموما . أما التقليدية فإنها تعبر عن موقف سلبى تجاه كل أشكال التجديد . وتعتبر التحديثية المدعاة مرادفة للتغريب المطلق ، الذى يهدد فى رأى بعضهم الهوية الخاصة فى الصميم ، استجابة لثقافة الغرب الوافدة . فسبب التخلف عندهم هو عدم الالتزام بالتراث ، أو هو ابتعاد الحاضر عنه ، وهو ما يهدد مفهوم الهوية فى الصميم .

غير أن دعاة التحديث المسمى فى لغة خصومهم بالتغريب ، يرون فى هذه التقليدية وقوفاً جامدا سلبيا غير قادر على التفاعل الإيجابى مع العوامل الخارجية . إنه فى رأيهم نزعة رجعية فى أساسها . وقد يجوز أن نسمى بعض مثقفيها بالمحافظين أصحاب التوجه التاريخى ، الذين يستلهمون نموذجهم الحضارى من تقاليد قديمة تكونت عبر التاريخ . فمواقفهم الفكرية كانت تستلزم دائما عودة إلى الوراء ، فى رأى خصومهم من أنصار التحديث . فالماضى وليس الحاضر هو محور العصر الذهبي ، لأنهم يعتقدون أن الماضى يمكن استعادته ، لأن التاريخ يكرر نفسه فى رأيهم . ومثل هذا الموقف يعد بين سائر الثقافات العالمية ، موقفا تكاد تنفرد به الثقافة العربية .

ومع ذلك فإن هذه النزعة المحافظة كانت تمثل الاستمرار التاريخى للأمة ، والصلة الباقية مع الماضي ، كما كانت تمثل فى رأى كثير من الباحثين نقطة البداية للانبعاث ، والأساس الوحيد لمقاومة التهديد الأوروبي ، فلا توجد أمة دون ثوابت . وفى الوقت نفسه ،

(*) أستاذ بجامعة عين شمس .

ليس هناك مجتمع يضرب حول نفسه أسوار العزلة سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، فى عالم أصبح لا يعترف بثقافة الانكفاء على الذات ، استجابة لنمو الشعور القومى الذى يغرى أحيانا بالدعوة إلى مقولة الاكتفاء الذاتى فى المسألة الثقافية ، وهى دعوة خطيرة .

فى مقابل ذلك يجد الباحث أن أصحاب الاتجاه التحديثى - بوعيهم المتجدد لحركة التاريخ - كانوا يتطلعون إلى المستقبل ، ويرفضون الوضع التقليدى الذى رضى به أصحاب النزعة التقليدية إلى حد كبير ، ويستمدون تصوراتهم الأساسية من الثقافة الغربية ، وليس من تقاليد الماضى . كانت النظرة التحديثية ذات أحلام بعيدة فى التجديد ، لأن أصحابها آمنوا بأن العصر الذهبى إنما يكمن فى المستقبل وليس فى الماضى ، لأن تحقيق الهوية ليس مسألة ساكنة ، وإنما هو حركة غائية فى تطور مستمر .

مصطلح التغريب إذن قريب من مصطلح التحديث ، أو هو مرادف له ، ولكن ما يقصد إليه فى ذلك المؤيدون والمعارضون على التحديد غير واضح تماماً ، وقد يعلو الخلاف والاتهام صراحة أو ضمناً . والتهمة هنا تتجه إلى النقاء الروحى والولاء القومى من جهة ، أو إلى الجمود والتخلف الفكرى من جهة أخرى ، بحسب الموقف الأيديولوجى للمثقف بين هاتين النزعتين .

وهذا الاختلاف الواضح حول المقصود بالتغريب أو التحديث ، كما رأينا ، لا ينتهى إلى توضيح حاسم بسبب غموض المصطلح ، وتطور الواقع التاريخى الذى يفرض نفسه على المجتمعات العربية وغيرها . ولذلك نشأت نزعة إصلاحية ، تعنى بالتحديث الإسلامى ، ذات طابع وسطى ، شأن الحلول التوفيقية فى كل صدام ثقافى . وهذه النزعة تحكمها التقاليد أيضا ، ولذلك لا يعدها كثير من المؤرخين نزعة انبعاث حقيقى يؤسس للنهضة ، بل هى فى حقيقة الأمر نزعة محافظة متنورة ، متسلحة بإدراك عقلانى لوضعها وحاجاتها ، ولذلك سمحت بالتغيير ضمن حدود معينة ، كما فعلت مدرسة المنار وغيرها من المدارس الإصلاحية فى العصر الحديث . ولكن مثل هذا الاتجاه الإصلاحى الموفق بين الاتجاهين السابقين كان معرضا أيضا لنقد مزدوج على الجانبين ، فلا هو أرضى التقليديين ، ولا هو أسعد التحديثيين . وقد أثير حوله ، كما أثير حول التحديثيين ، شبهات تمس الضمير الدينى والهوية القومية والانتماء التاريخي ، نجد الإشارة إليها واضحة فى كثير من المؤلفات .

وأكثر المتحدثين فى الهجوم على التغريب يتفقون على أن التغريب «تيار بعيد المدى ، ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية ، ترمى إلى صبغ حياة الأمم بعامة والمسلمين

بخاصة بالأسلوب الغربى ، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة ، وخصائصهم المتفردة ، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية»[١] .

وفى إطار هذا التعريف المفعم بفكرة المؤامرة على العالم الإسلامى ، يعتقد أعداء التغريب أن تحديث الجيوش وتعزيزها بالسلاح والذخيرة كان من قبيل التواطؤ مع النفوذ الاستعمارى إبان عهد النهضة العربية والحاجة إلى الاحتكاك الحضارى بالغرب واستقدام الخبراء الغربيين للتدريس والتخطيط . ودليلهم فى ذلك أن السلطان محمود الثانى قضى على الإنكشارية (الجيش التقليدى للأتراك) سنة ١٨٢٦ ، وأمر باتخاذ الزى الأوروبى (فهم يرون أن مجرد تغيير الزى إلى نمط أوروبى كان ضرباً من التغريب المدبر) .

كذلك هم يدينون ما ذهب إليه السلطان العثمانى عبد المجيد ، لأنه أصدر فى سنة ١٨٣٩ منشورا يسمح فيه لغير المسلمين بأن يلتحقوا بالخدمة العسكرية . كما يدينون موقف السلطان سليم الثالث فى استقدام المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وإنجلترا لإنشاء المدارس الحديثة . وقريب من هذا فى رأيهم ، ما فعله محمد على والى مصر الذى تولى حكم مصر سنة ١٨٠٥ ، إذ قام ببناء جيش على النظام الأوربى ، وكان ذلك مدعاة لسلسلة من إجراءات التحديث غير المقبول فى مصر . ومن ذلك أنه عمد إلى ابتعاث الأزهريين من أجل التخصص فى أوروبا . ومثله أحمد باشا باى فى تونس ، الذى سار على نمط محمد على فى ذلك .

وهؤلاء النقاد يعدون من التغريب ما حدث فى إيران حين افتتحت أسرة القاجار التى حكمت إيران كلية للعلوم والفنون سنة ١٨٥٢ على أساس غربى . أما فى لبنان فهم يعدون أن حركة التغريب قد بدأت منذ عام ١٨٦٠ عن طريق الإرساليات .

وفى مصر ، نشأت الرغبة الشديدة عند الخديوى إسماعيل فى أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وكان له مشروعات ثقافية ذات طابع تغريبى فى هذا الاتجاه ، لا تلقى قبولا لديهم .

وهكذا نجد أن هذا التيار المحافظ يعد كل محاولة للاتصال بالحضارة الغربية خطأ مشيناً ، ووقوعا فى مخطط غربى متآمر على الحضارة الإسلامية ومنجزاتها ، فى أقاليمها السياسية المختلفة .

---

(١) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، صدرت عن الندوة العالمية للشباب الإسلامى فى الرياض ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩ هـ - ١٨٨٩ م ، مادة التغريب ص ١٤٥ .

وفى إطار هذا التأويل المتشائم ، يتم اتهام أعلام كبار لهم دورهم فى الحركة الإصلاحية والنهضة الثقافية للعالم العربى المعاصر . والاتهام بالتغريب هنا يعنى عندهم الانفلات من الانتماء الدينى ، أو التاريخى ، بصور متفاوتة ، كما سبقت الإشارة .

وكان من العجب أن يوضع على رأس هؤلاء الأعلام الموصومين بتهمة التغريب رجل نابه مثل رفاعة الطهطاوى ، الذى ابتعث إلى باريس ، وأقام فيها خمس سنوات(١٨٢٦ - ١٨٣١) فأضيف ذلك إلى أسباب إدانته . وكذلك خير الدين التونسى ، الذى أقام فيها أربع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٦) فسقط أيضا فى هوة التغريب . وعاد الرجلان كلاهما محملين بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساس علمانى عقلانى فى رأى هؤلاء النقاد .

ولم يسلم العلماء الذين أسهموا فى ترجمة بعض الكتب عن الفرنسية أو غيرها من مثل هذا الاتهام بالتغريب ، وخصوصا مؤلفات فولتير وروسو ومونتسكيو . فهؤلاء المترجمون ، فى رأى أصحاب الاتجاه المحافظ ، يحاولون نشر الفكر الأوروبى الذى ثار ضد الدين ، والذى ظهر فى القرن الثامن عشر .

ويدخل ضمن قائمة الاتهام بالتغريب ؛ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ - ١٨٧١) ، وابنه إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ - ١٩٠٦) ، وكذلك بطرس البستانى (١٨١٩ - ١٨٨٣) ، الذى كان أول مسيحى يدعو إلى العروبة والوطنية ، إذ كان شعاره : «حب الوطن من الإيمان» ، وهو شعار معيب فى نظرهم لأن القومية العربية عندهم : «حركة سياسية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل الدين ، وهى صدى للفكر القومى الذى سبق فى أوروبا»[١] ، وهم لذلك يسعون إلى اقتلاع وهم القومية العربية من الأذهان ، مع أنها تمثل وحدة حضارية وثقافية أعمق من كل تكتل آخر على خريطة العالم . إنها وحدة تسير مع الفكرة الإسلامية فى شتى المجالات ، عقيدة وشريعة وأخلاقا وحضارة[٢] .

وفى زعم هؤلاء النقاد للمؤثرات الغربية ، أن جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) كان داعية تغريب ، وهو من هو فى حشد الجهود للثورة على الاستعمار والخلاص من النفوذ الغربى . وكذلك زميله المصلح العظيم محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) الذى كانت مدرسته فى رأيهم - ومنها رشيد رضا - تعتمد على أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل ، بغية

(١) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ١٤٥ .
(٢) عفت الشرقاوى : الفكر الدينى فى مواجهة العصر . بيروت : دار العودة ، ص ٢١٧ .

التقريب بين الإسلام والحضارة الغربية . وهم يأخذون على محمد عبده ـ مثلا ـ أنه دعا إلى إدخال العلوم العصرية إلى الأزهر لتطويره وتحديثه ، فهذا الاتجاه العلمى الجليل من التغريب المعيب فى رأيهم[١] .

كذلك يدخل فى زمرة هؤلاء المستغربين - عندهم - قاسم أمين (١٨٦٥- ١٩٠٨) الذى يتهمونه بالدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، والدعوة إلى تمكين المرأة من العمل فى الوظائف والأعمال العامة . ومثله سعد زغلول (١٨٠٧ - ١٩٢٧) فهو من المتغربين أيضا لأنه دعا إلى إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى بقصد تطوير الفكر الإسلامى من خلال مؤسسة غير أزهرية ، منافسة للأزهر كما يظنون . وكذلك أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذى يتهم فى مؤلفاتهم بأنه نادى : «مصر للمصريين» . ثم طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) الذى يعد فى رأيهم أبرز دعاة التغريب فى العالم الإسلامى ، بكتابيه «الشعر الجاهلي» ، و«مستقبل الثقافة فى مصر» .

وكان من الطبيعى إزاء هذه النظرة المتشائمة إلى كل احتكاك ثقافى بالغرب ، أن يحتل مصطفى كمال أتاتورك مكانة خاصة فى اتجاه الهجوم على ثقافة التغريب ، فقد كان أكثر التحديثيين صراحة فى النقل عن الغرب ، فلم يلجأ إلى تأويلات تقليدية تبرر اختياراته الحضارية ، كما فعل كثيرون ، وقد مهد فى رأيهم لتوجه تركيا فى الركب العلمانى الحديث . وفى هذا الاتجاه يعد على عبد الرازق ، بسبب كتابه الذى نشره سنة ١٩٢٥ بعنوان «الإسلام وأصول الحكم» ، ممثلا مصريا لاتجاه مشابه للعلمانية الكمالية .

وتمتد الإدانة لتشمل كل من أسهم فى فكرة جديدة ، أو قدم مشروعاً للنهضة ، أو جدد فى مجال ثقافى خلال القرن الماضى . ومن هؤلاء زكى مبارك (١٨٩١ - ١٩٥٢) الذى درس على أيدى المستشرقين وهاجم الغزالى ، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) الذى يعد من أبرز المتغربين ، وكذلك أمين الخولى أستاذ مادة التفسير والبلاغة بالجامعة المصرية ، الذى يعتقد أنه من المروجين لأفكار طه حسين . وغير هؤلاء كثيرون ، يراهم أعداء التواصل مع الحضارة الغربية متآمرين على الإسلام والمسلمين ، يسعون إلى بسط معالم الحضارة الغربية المادية الحديثة على هذه البلاد الإسلامية ، وربطها بالعجلة الغربية ،

(١) انظر : محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر . القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠ . وقارن : محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ ، ص ٤٢٥ .

وهو ما يتم بالتدريج الآن فى رأيهم ، مع تفاوت فى تأثير حركة التغريب بحسب المواقع المختلفة لهذه البلاد[١] .

ولقد ظهر أثر هذا التغريب بوضوح ، كما يرونه ، فى مصر وبلاد الشام وتركيا وأندونسيا والمغرب العربى . أما البلاد الإسلامية الأخرى ، فتتدرج فيها درجة هذا التأثير الأقل فالأقل ، بحيث ينتهون إلى القول بأنه لم يخل بلد إسلامى أو شرقى من هذه الحركة المتغربة .

هذا ما تسجله المؤلفات المتعددة التى تعبر عن وجهة النظر المحافظة فى هذا الموضوع[٢] ، التى يعتقد أصحابها أن إنسان العصر الحالى يجد نفسه أمام طوفان من المعلومات المشوشة المتناقضة حول أحزاب وتيارات فكرية وسياسية وفرق وأديان وفلسفات لا يكاد يبصر فيها وجه الحقيقة الموضوعية ، وأن موضوع التغريب من المشكلات الأساسية فى ثقافة العصر .

وهكذا فهم موضوع التحديث باعتباره تغريبا للأمة ، وقضاء على هويتها التاريخية . وترتب على ذلك إدانة كاملة لكل تواصل مفيد مع ثقافة الغرب ، مع أن لكل ثقافة قومية أصولا ثابتة لا تتبدل مع الأيام إلا بالحد الأدنى الذى لايعوق التقدم ، كما أن لها فروعا لا تنفك تتغير كلما تغيرت الظروف من حولها . ولكن المهم ، كيف نوفق بين ذلك الفكر الوافد ، وبين ثقافتنا الخاصة بالحوار والتأمل . وكما يقرر الدكتور زكى نجيب محمود ، فإن الأصل فى الفكر إذا جرى مجراه الطبيعى المستقيم هو أن يكون حواراً بين «لا» و «نعم» وما يتوسطهما من ظلال وأطياف ، «فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكرا ، ولا القبول المطلق الأعمى يعد فكراً ، ففى الأول عناد الأطفال ، وفى الثانى طاعة العبيد»[٣] .

إن علاقتنا بالثقافة الغربية يجب أن يسودها مثل هذا الحوار ؛ بمعنى أن نقبل من الآراء المعروضة ما نقبله ، ونرفض ما نرفضه ، وفقا لما تقتضيه المصلحة . على أن القبول يكون قبولاً لما نظن أنه الصواب ، ويكون الرفض رفضا لما نظن أنه الخطأ . وهذا «الظن» الذى هو سمة لا مندوحة عنها فى فكر البشر ، هو الذى يجعل الصواب المقبول صوابا يحتمل الخطأ ، كما يجعل الخطأ المرفوض خطأ يحتمل الصواب . وهذا يتفق مع موقف أحد علمائنا

(١) الموسوعة الميسرة : فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ١٤٥ .

(٢) انظر : أنور الجندى : شبهات التغريب فى غزو الفكر الإسلامى ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(٣) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧١ ، ص ٣ .

الكبار الذى كان يقول : «رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب» . وبمثل هذه النظرة إلى «نعم» و«لا» ، يصبح نسبيا ما حسبناه بادئ الأمر مطلقاً ، ويصبح مبصرا ما كان بادئ الأمر مكفوف البصر ، فى مواقف القابلين والرافضين على السواء[١] .

وفى تاريخ الحضارة الإسلامية ما يدل على أن العرب فتحوا قلوبهم وعقولهم لكل ما حولهم من الثقافات بمثل هذا الاعتبار الحكيم ، فأخذوا وأعطوا أنفس ما تعتز به الثقافة الإنسانية . كان هذا فور اكتشافهم الأول للثقافة الغربية فى صورتها اليونانية التى كانت سائدة خلال المد الإسلامى فى العصر العباسي[٢] . ولم يجد العرب حرجا فى الإفادة من كل إنجازات عصرهم . لكن الحالة السياسية المعكوسة فى الاكتشاف الثانى - أى المعاصر - هى التى تميز تمييزا دقيقا بين الاستمدادات الثقافية التى قام بها المسلمون فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وتلك التى قام بها العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر . فالعالم الإسلامى إذ ذاك لم يكن فى موقف دفاعى ، كما يلاحظ بحق بعض المؤرخين ، ولكنه تبنى تلك الإمكانات لمصلحته هو ، وفعل ذلك فى ريث وأناة . وإذا كان قد وقع تحت تأثير ضغط ، فلم يكن ذلك من الخارج ، ولكن بدافع من مرحلة التطور التى يمر بها . وبالاختصار ، فإن الملابسات السياسية التى توجه النقل الثقافى فى عصرنا الحاضر هى التى تجعله صعبا من الوجهتين النفسية والاجتماعية ، ومفككا لموقف الجماعات التى تستقبل هذا النقل دون روية . فالاختيار ، وتحديد الوقت ، والتأثر الإيجابي ، ورد الفعل المعادى ، كل أولئك لم يعد خاضعا لحالة النمو ، ولا للحاجات الذهنية والوجدانية للمستعير ، ولكنه يخضع للطموح الثقافى الذى قد يصل إلى درجة الدعوة إلى التغريب المطلق ، ولسلسلة من الأحوال الاضطرارية التى ليس للمستعير عليها إلا تسلط محدود[٣] . ومن هنا يرى بعض المؤرخين أن العباسيين كانوا يسيرون فى طريق حمى عصرهم من الأخطار المصاحبة للاستمداد الثقافى فى عصرنا الحاضر الذى يتحكم فيه النزوع نحو الغرب .

فى هذا الإطار الحضارى الجديد ، نشأت صعوبة واجهت أصحاب نزعة التحديث من المثقفين الذين يقفون من المدنية الغربية موقف المعجب المشوق[٤] . لذلك فإن الظروف

---

(١) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ، ص ٣ .

(٢) انظر : محمد عابد الجابرى : تكوين العقل العربى . ط ٥ . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١ ، ص ٢٢٠ .

(٣) انظر :عفت الشرقاوى : الفكر الدينى ، ص ٨٣ .

(٤) فون جرونباوم : تأثر الأمم الإسلامية بمدنية الغرب ، نظرية الاستمداد الثقافى ، ص ٨٩ ، ضمن أعمال مؤتمر : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، ترجمة : محمد خلف الله أحمد . القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٥٥ .

السياسية الجديدة هى التى تضفى على حوار الثقافات هذا الجدل الخاص فيما يتعلق بالاستمداد الثقافى . فحضارة المسلمين واجهت العصر الحديث ، وقد تخلفت عن الركب ، فى مقابل حضارة الغرب النابضة بالحركة والحياة التى يشرق فى جنباتها ضياء العلم ، وتدفئها حرارة العمل . ووجد المسلمون أنفسهم وقد أصبحوا فى موقع الأدنى والأضعف الذى يرغب الآخرون فى السيطرة عليه واستغلال موارده .

وهذه المفارقة بين القوة والضعف كانت تعم أقطار المسلمين جميعا ، فليس هناك قطر واحد لم تصبه نكبة التخلف . وقد عانى العالم الإسلامى كله مرارة هذا اللقاء بين القوى الغاصب المنتصر المؤيد بمستحدثات العلم والتكنولوجيا ، وبين الضعيف المتخلف المقيد بجمود التقليد . ولقد كان من الطبيعى أن يحاول المسلمون تفهم أسرار هذه الحضارة الطارئة ، وينفروا إلى أقطار الغرب ، فيأخذوا عنها تلك الاكتشافات العلمية والمناهج العملية التى تقدمت بفضلها هذه الأمم الغربية[١] .

وهذا الاجتهاد من جانب العالم الإسلامى الذى حتمته الضرورة الحضارية فى مواجهة العصر ، هو نفسه الذى يسمى عند بعض المحافظين بالتغريب ، كما رأينا فى الأمثلة السابقة ، إذ يرون فيه فقدانا للهوية ، وتآمرا على الثقافة الإسلامية كما ذكرنا . وهذا نفسه هو الذى نتج عنه عند بعض المثقفين شعور متناقض نحو ثقافة الغرب يتراوح بين التقدير العظيم والعداء الشديد . فكيف يمكن أن يجمع المثقف المسلم فى نفسه بين الإعجاب بما وصل إليه الغربيون من تقدم من جهة ، والحقد على هذا المستعمر الغازى من جهة أخرى فى الوقت نفسه؟ وهذا هو جوهر مشكلة الأصالة والتجديد فى العالم الإسلامى حتى وقتنا الحاضر : الحيرة بين القبول والرفض ، والتردد بين الإعجاب والكراهية . وهذا مأزق نفسى خاص فى صراع الحضارات ، يغلب على ثقافة المسلم المعاصر .

من أجل ذلك صارت مسألة التمدن الإسلامى موضوعا للتأمل والبحث على النحو الذى رأينا جانبا منه . فقد أثيرت الدعوة إلى الوقوف عند القديم على قدمه ، كما كان هناك من طرف آخر من يدعون إلى البدعة التى لم تسبق . وكان هناك من يجتهدون فى التوسط بين الأمرين ، لأنهم رأوا أن المغالاة فى الجمود قد تتهدد المعرفة ، وأن المغالاة فى التجديد قد تتهدد الإيمان . ومن حسن التوفيق أن الاعتدال الكريم وجد أحيانا سبيله عند عدد كبير

---

(١) أبو الأعلى المودودى : موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، ترجمة محمد كاظم سباق . القاهرة : دار الفكر ، ١٩٣٨ ، ص ١٨٢ .

من المثقفين الذين يميلون إلى الإفادة من مستحدثات المدنية الجديدة مع الاحتفاظ بالأصول القديمة . وفى هذا الإطار الاجتهادى يستمر الاستمداد الثقافى من الحضارة الغربية ، بل هو يتم فى أبعد ما يتصوره الإنسان مجالا لهذا الاستمداد .

ولما كانت الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولا من تلك الثقافة فى عمومها ، فقد استطاع المثقف الحديث أن يفيد من مناهج جديدة فى التفكير ، هى التى يظن خصوم التجديد أنها من قبيل التغريب .

ومع ذلك فإن هذه الاستفادة من المناهج الجديدة لم تسمح للثقافة الأجنبية أن تطغى تماما على شخصية المثقف المعاصر فى المجتمع العربى ، بحيث تحطم قيمه التاريخية أو تشكل خطرا على عقيدته الدينية نتيجة التأثير المادى الأجنبى . ولقد ظل سريان العناصر الغربية مقصورا على ما يمكن أن يهاجر من قوم إلى آخرين ، كالفنون الصناعية والتطبيقية . وهذه العناصر لم تطبع العالم الإسلامى بالطابع الغربى الذى يتوهمه خصوم التغريب بالمفهوم الذى قدمناه ، بل هى لم تزد على الارتفاع بمناهج التفكير إلى مستوى عقلى أعلى ، وتنسيق الاقتصاد والفنون الصناعية وتنظيم الدولة . فهى لم تشمل المبادئ الأساسية المتضمنة فى الدين والفلسفة والفن ، لذلك لم يفقد المجتمع الإسلامى نفسه فى المدنية الغربية كما توهم بعض المحافظين ، لأن قبول عنصر من ثقافة أجنبية لم يستلزم أن يجر وراءه سائرها ، بالإضافة إلى أن هذا القبول لم يتم عن طريق النقل المباشر لقيم مرتبطة بتاريخ معين ، أو تجارب قومية خاصة ، بحيث تكون ذات تأثير مدمر فى الثقافة المستقبلة ، كما يتوهم أصحاب النزعة المحافظة .

وبتحقيق هذا الوعى يتم التواصل بين الشرق والغرب ، ولا تستتبع الاستمدادات من الحضارة الكبرى دائما استمدادات إضافية مجددة ، يمليها تقليد المغلوب للغالب ، بحيث تعتبر عامل تفكيك فى المجتمع المستقبل .

وهكذا يمكن أن نقول فى إيجاز ، بعد الذى تقدم : إن مسألة التغريب التى تشغلنا اليوم والتى تعبر عن هذا القلق بين أمجاد الماضى وآمال المستقبل ، يمكن أن يحسمها مراعاة الفرق بين روح الحضارة وأدوات المدنية فى تاريخ التطور البشرى . فمن الممكن أن نقول إننا نحمى هويتنا بالحفاظ على حضارتنا باعتبارها صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمع . فأما مظاهر التقدم الآلى والتكنولوجى ، فإنها تتصل بمعنى المدنية فى إطارها العام . ولا بأس من التغريب الحر فى هذا المجال ، باعتبار أن الحضارة هى : «ما نحن» ، والمدنية هى :

«ما نستعمل» . وبعبارة أخرى ، فإن حضارتنا تتمثل فى الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات ، بينما يتمثل الجانب المدنى منها فى السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا .

وعلى هذا ، فلا مجال لما يسمى بالتغريب فيما يتصل بالقيم العليا للمجتمع المتمثلة فى نشاطه الروحى والوجدانى ، أى فى حضارته التى هى جوهر ذاته ، بينما يجوز لنا ، بل يجب علينا أحيانا أن نلجأ إلى التحديث بمعنى التجديد على الأنماط الغربية الناجحة فى كل ما يتصل بغير ذلك من شئون الحياة ، أى فى مدنيتنا ، لأننا لا نملك حق التغريب فيما يتصل بتراثنا المدخر المتراكم ، بينما يحق لنا أن نمارس هذا التحديث فى كل ما يتصل بإنشاءاتنا الاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، إذا كان ذلك معينا على تحسين نظام الدولة وازدهار العمران ، وحماية الوطن ، أى مادام هذا الغرب أعلم منا بشئون دنيانا .

أساسيات العلوم الفيزيائية المعاصرة في التراث العربي
دراسة تأصيلية

أ.د. أحمد فؤاد باشا*

مقدمة :

علم الفيزياء ، هو أحد فروع العلوم الطبيعية ، وماهيته تختلف من عصر إلى عصر ، والرجوع إلى المعاجم والقواميس لا يفيد كثيرًا فى تعريفه . فالفيزيائيون يحاولون فهم القواعد أو القوانين الأساسية التى تحكم سير العالم الطبيعى الذى نعيش فيه ، وفى بعض الأحيان ينسحبون تدريجيًا من مجال ما بمجرد معرفة قوانينه الأساسية ، تاركين للآخرين القيام بالمزيد من التطوير والتطبيقات العملية . ولهذا نجد أن بعض الموضوعات التى تدخل الآن فى علم الكيمياء أو الجيولوجيا أو الفلك أو الهندسة أو غيرها ، كانت يومًا ما من موضوعات الفيزياء ، كما أن العديد من فروع الفيزياء الموجودة الآن لم تخطر على البال منذ جيل أو جيلين .

كذلك أصبحت الفيزياء قاسمًا مشتركًا فى الكثير مما ظهر من علوم بينية يتجاذبها تخصص أو أكثر ، مثل الفيزياء الكيميائية ، والفيزياء الأرضية ، والفيزياء الفلكية ، وعلوم الفضاء والعلوم البيئية وغيرها .

وتعريف الفيزياء بأنها العلم الذى يعنى بدراسة القوانين الأساسية التى تحكم سير العالم الواقعي ، هو الذى يوضح اهتمام ذوى التخصصات الأخرى بعلم الفيزياء ، لا بالنسبة للمتخصصين فى باقى فروع العلوم الطبيعية فحسب ، ولكن حتى بالنسبة لدراسى اللغة والآثار والتاريخ والفلسفة والاجتماع عندما يتعرضون مثلاً لعلاقة التطور بالنشاطات الإنسانية ، أو لبحث مسيرة التفكير العلمى ومناهجه ، أو لشرح مفاهيم الفراغ والزمن والمادة والطاقة ، أو غير ذلك مما يبرر أهمية الفيزياء بالنسبة لمختلف فروع المعرفة ومعالجتها على أسس علمية .

وهذه الدراسة التأصيلية تستعرض أساسيات بعض العلوم الفيزيائية المعاصرة فى التراث العربي ، وتلقى الضوء على الأفكار والآراء والنظريات والقوانين الفيزيائية التى تحتفظ

(*) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم - جامعة القاهرة .

بقيمتها المعرفية أو المنهجية حتى اليوم ، والتى أصبحت تشكل الأساس لكثير من المباحث الفيزيائية التى تعامل كعلوم تخصصية مستقلة .

وسوف نعتمد فى توثيق هذا العرض على بعض النصوص المحققة المنتقاة من أمهات الكتب التراثية .

١ - الميكانيكا : Mechanics

(أ) الحركة وأنواعها وقوانينها :

حدد ابن سينا فى كتابه «الشفاء» عناصر الحركة فى : المتحرك (الجسم المتحرك) ، والمحرِّك (القوة المسببة للحركة) ، وما فيه (موضع الجسم) ، وما منه (مكان بداية الحركة) ، وما إليه (مكان نهاية الحركة) ، والزمان (الفترة الزمنية التى استغرقتها الحركة) .

ونجد تعريف الحركة الطبيعية والحركة القسْرية فى قول ابن سينا أيضًا : «وكل جسم متحرك فحركته إما من سبب من خارج ، وتسمى حركة قسرية ، وإما من سبب من نفس الجسم ، إذ الجسم لا يتحرك بذاته ، وذلك السبب إذا كان محرِّكا على جهة واحدة على سبيل التسخير فيسمى طبيعة » .

كما نجد تعريف الحركة الانتقالية والحركة الدورانية فى كتاب «المعتبر فى الحكمة » لابن ملكا البغدادي ، وقد سمّاهما «الحركة المكانية» و« الحركة الوضعية » ، حيث يقول : «الحركة المكانية هى التى بها ينتقل المتحرك من مكان إلى آخر ، والحركة الوضعية هى التى تتبدل بها أوضاع الحركة ولا يخرج عن جملة مكانه كالدولاب والرّحا » .

وربط ابن المرزبان فى كتاب « التحصيل» بين الحركة والزمن ، فقال : «كل سرعة فى زمان ، لأن كل سرعة هىٰ فى قطع مسافة ، أو ما يجرى مجرى المسافة ، وكل ذلك فى زمان . . فلو كانت حركة لا نهاية لها فى السرعة ، لكان زمان لا نهاية له فى القصر ، فكانت الحركة لا فى زمان . .» .

وعرف ابن الهيثم مصطلح «كمية التحرك» الذى يشير إلى كمية فيزيائية فى المتحرك تتوقف على سرعة حركته وكمية المادة به (أى كتلته) ، وسماه «قوة الحركة» فى معرض شرحه لارتداد جسم مصادم لسطح مستوٍ ، حيث يقول : «والمتحرك إذا لقى فى حركته مانعًا يمانعه وكانت القوى المحركة له باقية فيه عند لقائه الممانع ، فإنه يرجع من حيث كان فى الجهة التى منها تحرك . . وتكون قوة حركته فى الرجوع بحسب قوة الحركة التى

كان تحرك بها الأول ، وبحسب قوة الممانعة . . لأن الحركة المكتسبة إنما تكون بحسب مقدار المسافة وبحسب مقدار الثقل» . وهنا يكتسب إدراك ابن الهيثم للمعنى الكمى للحركة أهمية خاصة إذا علمنا أن معدل تغير كمية التحرك بالنسبة للزمن هو الأساس الذى قام عليه قانون نيوتن الثانى للحركة كما سنرى بعد قليل .

ويعبر هبة الله بن ملكا البغدادى عن المعنى نفسه ، مقتربًا من مصطلح «طاقة الحركة» باستخدام كلمة « ميل» بمعنى «جذب» فيقول : «ويستدل على ذلك بالحجر المرمى من عالٍ من غير أن يكون عايدًا عن صعود بحركة قسرية ولا فيه ميل قسري ، فإنك ترى أن مبدأ الغاية كلما كان أبعد كان آخر حركته أسرع وقوة ميله أشدّ ، وبذلك يشجّ ويسحق ، ولا يكون ذلك له إذا ألقى عن مسافة أقصر ، بل يُبيِّن التفاوت فى ذلك مقدار طول المسافة التى يسلكها» .

وهذا أيضًا مثل واضح لحالة السقوط الحر للأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية ، حيث تزيد سرعة الجسم مع المسافة التى يقطعها من نقطة «السقوط» ، وتزيد كمية حركته وبالتالى طاقته تبعًا لذلك ، فيشج ويسحق عند ارتطامه . وفى هذا ـ مرة ثانية ـ تعبير كمى عن الحركة بتناسبها مع سرعة الجسم ومع كتلته ، وهو محتوى قانون نيوتن الثانى للحركة .

ويقترب البغدادى أكثر فأكثر من الصياغة الوصفية الدقيقة للقانون الثانى للحركة فيقول : «وكل حركة ففى زمان لا محالة ، فالقوة الأشد تحرك أسرع وفى زمان أقصر . . . فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة فقصر الزمان ، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة ، وبذلك تصير الحركة فى غير زمان أشد ، لأن سلب الزمان للسرعة نهاية ما للشدة» . ونلاحظ هنا معنى التسارع «العجلة» فى عبارة «سلب الزمان فى السرعة» ، وهو يقابل فى لغة العلم الحديث «معدل تغير السرعة» ، مما يفيد وقوف ابن ملكا البغدادى على معنى تناسب القوة مع تسارع الحركة (أى العجلة) ، ولكنه بطبيعة الحال ، وفى إطار الضوابط الارتقائية للنمو المعرفى لم يتوصل ، ولم يكن مطلوبًا منه فى حدود معطيات عصره أن يتوصل إلى الصيغة الرياضية التى وضعها إسحق نيوتن بعد ذلك بحوالى ستة قرون ، وهى :

القوة = الكتلة × العجلة

أما بالنسبة لقانون الحركة الأول الذى عبر عنه نيوتن بقوله : «كل جسم يظل على حالته من السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تغير من حالته» ، فإننا نجد أن ابن سينا قد عبر عن مضمونه المتمثل فى خاصية «القصور الذاتى»

التى يدافع بها الجسم عن بقائه فى حالته من السكون أو الحركة المنتظمة ، وذلك بقوله فى «الإشارات والتنبيهات» : «إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلّيٍّ وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من وضع معين ، وشكل معين ، فإذن فى طباعه مبدأ استيجاب ذلك» . ثم يضيف قائلا : «الجسم له فى حال تحركه ميل (أى مدافعة) يتحرك به ، ويحس به الممانع ، ولن يتمكن من المنع إلا فيما يضعف ذلك فيه ، وقد يكون من طباعه ، وقد يحدث فيه من تأثير غيره فيبطل المنبعث عن طباعه إلى أن يزول فيعود انبعاثه» .

وبالنسبة لقانون الحركة الثالث الذى عبر عنه نيوتن بأن «لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار ومعاكس له فى الاتجاه» ، فإننا نجد معناه فى كتاب «المباحث المشرقية فى الإلهيات والطبيعيات» للإمام فخر الدين الرازى حيث يقول : «الحلقة التى يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت فى الوسط ، لاشك أن كل واحد منهما فعل فيها فعلاً معوقًا بفعل الآخر ، ثم لا شك أن الذى فعله كل واحد منهما لو خلى عن المعارض لاقتضى اجتذاب الحلقة إلى جانبه» .

ويوضح هذا النص فكرة اتزان الأجسام تحت تأثير قوتين متساويتين فى المقدار ومتعاكستين فى الاتجاه بتأثير الفعل ورد الفعل . ويؤكد الرازى هذا فى معرض شرحه «لإشارات» ابن سينا قائلاً : « . . فالحبل الذى يجذبه جاذبان متساويا القوة إلى جهتين مختلفتين لا يخلو إما أن يقال إنه ما فعل واحد منهما فعلا ، وهو محال لأن الذى يمنع كل واحد منهما عن فعله هو وجود فعل الآخر» .

(ب) الجاذبية الأرضية وحركة المقذوفات :

لا شك أن الإنسان لاحظ منذ القدم سقوط الأشياء من أعلى إلى أسفل ، وكان أرسطو يعتقد أن سبب سقوط الجسم إلى الأرض يعود إلى «الوحشة الطبيعية» الكامنة فى الجسم نفسه ، تمامًا مثلما يميل الطفل إلى حضن أمه باعتبارها المكان الطبيعى لإزالة وحشته ، واتجاه حنينه يدفع به إلى مقاومة حالة الوحشة وطردها . وقد لاحظ كثير من مؤرخى العلم أن أرسطو قد طبق الأحاسيس الإنسانية على ظواهر الطبيعة وسلوك أشيائها ، وأنه قد أمعن فى «أنسنة الطبيعة» عندما رأى أن الجسم المادى الصغير مكانه الطبيعى حين «يسقط» حرًا هو حضن أمه : كوكب الأرض .

ويأتى الحسن بن أحمد الهمدانى فى القرن الثامن الميلادى بفكرة رائدة فى بنية الثورات العلمية كما طرحها فيلسوف العلم المعاصر «توماس كون» ، ضمنها كتابه القيم

«الجوهرتان العتيقتان» فى سياق حديثه عن الأرض وما يرتبط بها من أركان ومياه وهواء ، فيقول : « . . . فمن كان تحتها (أى تحت الأرض عند نصفها الأسفل) فهو فى الثبات فى قامته كمن فوقها ، ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى ، وكثبات قدمه عليها ، فهى بمنزلة حجر المغناطيس الذى تجذب قواه الحديد إلى كل جانب . فأما ما كان فوقه فإن قوته وقوة الأرض تجتمعان على جذبه ، وما دار به فالأرض أغلب عليه بالجذب لأن القهر من هذه الحجارة لا يرفع العلاة ولا سفلة الحداد » .

ويتضح جليًا من هذا النص ـ ولأول مرة فى تاريخ العلم ـ أن الهمدانى قد ربط ظاهرة الجاذبية بالأرض التى تجذب الأجسام فى كل جهاتها ، وهذا الجذب إنما هو قوة طبيعية مركزة فى الأرض وتظهر آثارها فى مجال فعال حول الأرض أشبه بذلك المجال الذى يتمتع به «حجر» المغناطيس . ولولا هذه الخاصية لكانت كروية الأرض ودورانها سببين أساسيين فى تطاير كل ما على سطحها . وبهذا المفهوم يكون الهمدانى قد أرسى أول حقيقة جزئية فى فيزياء ظاهرة الجاذبية ، وهى ما يعرف بطاقة الموضع ، أو طاقة الكمون ، الناتجة أصلاً عن ارتفاع الأجسام عن الأرض .

ويزخر التراث العلمى العربى بالكثير من النصوص التى تتضمن مفاهيم أكثر وأوصافًا أشمل لظاهرة الجاذبية ، فيقول البيرونى فى كتابه «القانون المسعودى» : «والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة ، وعليها أيضًا نزول الأثقال إلى أسفل» ، ويفطن الإمام الرازى إلى تعميم أكبر لفكرة الجاذبية يشمل جميع الأجسام المادية ، فيتحدث عن «انجذاب الجسم إلى مجاوره الأبعد» . ويصحح علماء المسلمين ذلك الخطأ الجسيم الذى وقع فيه أرسطو عندما قال بسقوط الأجسام الثقيلة أسرع من الأجسام الخفيفة ، فيثبت ابن ملكا البغدادى حقيقة علمية هامة تقضى بأن سرعة الجسم الساقط سقوطًا حرًا تحت تأثير الجاذبية الأرضية لا تتوقف إطلاقًا على كتلته ، وذلك عندما تخلو الحركة من أى معوقات خارجية ، ويعبر عن هذه الحقيقة بقوله : « . . . وأيضًا لو تحركت الأجسام فى الخلاء ، لتساوت حركة الثقيل والخفيف والكبير والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة ، فى السرعة والبطء . لأنها إنما تختلف فى الملاء بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق كالماء والهواء وغيره » .

ويضيف علماء الحضارة الإسلامية حقائق أخرى جزئية على طريق استكمال التصور

الإنسانى لظاهرة الجاذبية من خلال دراستهم لحركة المقذوفات، من حيث إن حركتها إلى أعلى تعاكس فعل الجاذبية الأرضية، أو أن القوة القسرية التى قذف بها الجسم إلى أعلى تعمل فى تضاد مع قوة الجاذبية الأرضية، فيقول العالم الفيلسوف هبة الله البغدادي فى كتابه «المعتبر فى الحكمة»، على سبيل المثال : « . . . فكذلك الحجر المقذوف، فيه ميل مقاوم للميل القاذف، إلا أنه مقهور بقوة القاذف، ولأن القوة القاسرة عرضية فيه فهى تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعى ولمقاومة المخروق . . . فيكون الميل القاسر فى أوله على غاية القهر للميل الطبيعي، ولا يزال يضعف ويبطئ الحركة ضعفًا بعد ضعف وبطءاً بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعي، فيغلب الميل الطبيعى فيحرك إلى جهته» . وهنا يتضح أن البغدادى لا يستخدم مفهوم «الميل» كقوة خفية أو «وحشة طبيعية» فى اتجاه الحنين إلى حضن الأم : كوكب الأرض، كما قال أرسطو، ولكنه عنى به القوة المادية التى تتحكم عمليًا فى حركة المقذوف صعوداً ضد الجاذبية الأرضية، وهبوطًا فى اتجاهها .

وهكذا نجد أن علماء الحضارة الإسلامية العرب قد سعوا بمنهجهم العلمى السليم إلى بلورة مفاهيم وصيغ ميكانيكية ساعدت علماء النهضة الأوربية بعد ذلك على صياغة النظريات والقوانين العلمية لحركة الأجسام على الأرض، أو حركة الأرض والكواكب والنجوم فى الفضاء الكوني .

٢ - البصريات : OPTICS

(أ) الضوء ونظرية الإبصار :

كانت آراء فلاسفة الإغريق متباينة فى تعريف طبيعة الضوء وتفسير عملية الإبصار، وهذا بسبب قصور منهج التفكير السائد آنذاك، القائم على التأمل العقلى الخالص والقياس الصورى البحت . وكان يمكن لهذه الآراء أن تظل سائدة حتى عصرنا هذا لأن القياس الصورى الذى اصطنعوه منهجًا للنظر لا يسمح بتقدم العلم مهما تراكمت المعارف المستنتجة على أساسه .

لكن علماء الحضارة الإسلامية استطاعوا أن يتوصلوا إلى الطريقة التجريبية الاستقرائية التى قفزت بهم إلى مرحلة معرفية أرقى، وكانت نظرية ابن الهيثم فى الإبصار ثورة علمية بكل المقاييس، انطلق فيها من مبدأ عام هو القول بوجود العالم الخارجى وجودًا مستقلاً فى ذاته خارج الذهن وخارج النفس، وأن العقل والحواس من أدوات إدراكه، ومن ثم عزا

إحساس البصر إلى عامل أو مؤثر خارجى له فى ذاته وجود عيني ، وأسماه «الضوء» .

(ب) قوانين انتشار الضوء :

من الموضوعات الهامة التى تطرق إليها ابن الهيثم فى كتابه الشهير «المناظر» إثبات خاصية انتشار الضوء فى خطوط مستقيمة بتجربة «الغرفة المظلمة» ، أو «الخزانة ذات الثقب» التى تحمل فكرة آلة التصوير الضوئى (الكاميرا) . وعندما تعرض ابن الهيثم لشرح ظواهر انعكاس الضوء وانعطافه وانتشاره لجأ إلى استخدام الخيال العلمى فى المماثلة بين الظواهر المختلفة والكشف عن الوحدة التى تربط بين وقائع متناثرة ، وابتكر الكثير من المفاهيم العلمية المطابقة للواقع والخبرة ، وكان التمثيل الذى استخدمه هو النموذج الميكانيكى لحركة كرة صغيرة من الحديد أو الصلب تسقط على سطح مستو أملس فترتد عنه .

وأدخل ابن الهيثم لأول مرة طريقة تحليل «المتجه» Vector إلى قسطين (مركبتين) متعامدين ، وأفاد من رؤيته النقدية فى استخدام المنهج الرياضى إلى جانب المنهج التجريبي ، ولهذا يعتبر المؤسس الأول لعلم البصريات الهندسية .

ولم يغفل ابن الهيثم الجانب التقنى فى بحوثه العلمية ، فقد استخدم الآلات الدقيقة فى تجاربه ، ولم يكتف بمجرد وصف كيفية استعمالها ، وإنما أسهب فى شرح التفاصيل المتعلقة بصنع الأجزاء المختلفة للجهاز . فيقول مثلاً فى استخدام أنواع المرايا : «رأينا أن نشرح ذلك ونوضح ليحيط بعلمه من كانت له رغبة فى معرفة الحقائق فبيناه فى هذه المقالة ، ولخصنا البرهان على علم حقيقته ، وذكرنا طريقة العمل فى اتخاذه وترتيب آلته ، وقدمنا الأصول التى يستعملها المهندسون فى جميع أنواع المرايا ، ليهتدى إليه من التمسه» .

(ج) مسألة ابن الهيثم :

عرفت هذه المسألة عند الأوربيين باسم «مسألة الهازن» Alhazen problem وهى تنص على أنه : «إذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس ، فكيف تُعيِّنُ على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها إلى إحدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها إلى الأخرى بمثابة شعاع منعكس » .

وحلول هذه المسألة كثيرة ومتنوعة ، وهى تتراوح بين اليسر والسهولة فى الأحوال

العامة ، وحينما يكون السطح العاكس مستويًا ، وبين الصعوبة والتعقيد إذا كان السطح العاكس كرويًا أو أسطوانيًا أو مخروطيًا . وتتدرج مسألة ابن الهيثم فى التعقيد إلى معادلة من الدرجة الرابعة ، وقد حلها ابن الهيثم بواسطة تقاطع دائرة مع قطع زائد . كما أورد حلولاً عامة لكل نوع من أنواع المرايا .

وقد كتب علماء آخرون فى البصريات وتعرضوا لبعض نظرياتها ، مثل الكندى والرازى وابن سينا وكمال الدين الفارسى وغيرهم ، لكن ابن الهيثم يظل له القدح المعلى فى هذا المجال الهام من مجالات العلوم الفيزيائية على مر العصور ، بعد أن وضع أصوله السليمة التى أدت إلى الحصول على واحد من أهم الإنجازات العلمية المعاصرة ، وهو «الليزر» .

٣ - الصوتيات : Acoustics

لم يصلنا شيء ذو قيمة علمية عن اهتمام أهل الحضارات القديمة بدراسة ظاهرة الصوت وتطبيقاتها ، اللهم إلا فيما يتعلق ببعض أنواع الغناء والعزف (الموسيقا) . لهذا فإننا نبدأ الحديث عن الصوتيات - أحد المباحث الفيزيائية المهمة - من حيث بدأ علماء الحضارة الإسلامية فى تناول ظاهرة الصوت بالدراسة والتحليل على أسس منهجية سليمة . فقد أجمعوا من حيث المبدأ على أن هناك شيئين ضروريين لانبعاث الصوت وانتشاره . أما الشيء الأول فلابد من وجود جسم يهتز لإحداث موجات الصوت (التضاغطية) على نحو ما نجد فى وتر العود أو الأوتار (الأحبال) الصوتية عند الإنسان . وأما الشيء الثانى فلابد من وجود وسط مادي ، كالهواء أو الماء ، تنقل خلاله هذه الموجات الصوتية إلى أن تصل إلى الأذن ويحدث الإحساس بالسمع . كذلك أجمع علماء المسلمين على تفسير جيد لحدوث الصدى نتيجة انعكاس الموجات الصوتية عندما يعترض مسارها عائق ، فتحدث فى ارتدادها رجعًا يشبه الصوت الأصلى .

ومن أوضح النصوص التراثية فى ذلك ما جاء فى كتاب «التحصيل» لبهمنيار ابن المرزبان ، حيث يقول : «الصوت أمر يحدث من تموج الجسم السيال الرطب كالهواء والماء بين جسمين متصاكين متقاومين . وأما الصدى فإنه يحدث من تموج يوجبه هذا التموج ، فإن هذا التموج إذا قاومه شيء من الأشياء كجبل أو جدار حتى دفعه ، لزم أن ينضغط أيضًا بين هذا التموج المتوجه إلى قرع الحائط أو الجبل وبين ما يقرعه هواء آخر يرده ويصرفه إلى خلف بانضغاطه ، ويكون شكله شكل الأول وعلى هيئته . . . ويجوز أن يكون لكل صوت صدى ولكن لا يسمع ، كما أن لكل ضوء عكسًا . . . والسبب فى أن لا يسمع الصدى فى

البيوت أن المسافة إذا كانت قريبة من المصدر وعاكس الصوت سُمِعَا معًا فى زمان واحد أو قريب من واحد» .

وقد فطن إخوان الصفا إلى تأثير الحركة الصوتية فى الهواء الذى لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها «فإذا صدم جسم جسمًا آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكل كروى واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجّاج (صانع الزجاج) فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل» . ولعل فى هذا القول أيضًا ما يؤكد سبق علماء المسلمين إلى تقرير ما أثبته العلم التجريبى حديثًا من أن الموجات الصوتية المنتقلة فى الوسط المادى تفقد قدرًا من طاقتها عنه اصطدامها بالأجسام تبعًا لنوعيتها وطبيعتها .

أما الحديث عن سرعة الصوت فى التراث العربى فيكتسب أهمية خاصة داخل الإطار المنهجى لتقييم المعرفة تاريخيًا . ومن يستعرض هذا الموضوع فى مختلف النصوص التراثية سوف يلاحظ أن البحث فى سرعة الصوت يأتى فى أغلب الأحيان مقارنًا بسرعة الضوء . فقد ذكر البيروني ، على سبيل المثال ، أن سرعة النور أعظم كثيرًا من سرعة الصوت ، وتحدث ابن سينا عن تأخر سماع صوت الرعد عن رؤية وميض البرق . واستطاع الحسن ابن الهيثم أن يثبت أن للضوء زمانًا وسرعة معينة ، كما أن للصوت زمانًا وسرعة معينة ، إلا أن زمان حركة الضوء أسرع بحيث لا يحس به أصلاً .

ومما يؤسف له أن أحدًا فى ذلك الوقت لم يفد من هذه الأفكار الهامة فى تقدير سرعة الصوت كميًا ، ونحن لا نرى سببًا لذلك غير عدم توافر أجهزة دقيقة لقياس الزمن بالثوانى أو بأجزاء من الثانية فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ التقنية عمومًا ، وتطور أجهزة القياس الدقيق على وجه الخصوص . وقد تأخرت هذه الخطوة الهامة والبسيطة إلى القرن السابع عشر الميلادى عندما تمكن «ميرسن » و«جاسندى» Mersenne & Gassendi من إجراء أول تجربة عملية لتعيين سرعة الصوت فى الهواء عن طريق قياس الفترة الزمنية التى تنقضى بين لحظة رؤية النار المنبعثة من فوهة مدفع (أو بندقية) عند إطلاق قذيفة منه على مسافة بعيدة ، وبين لحظة سماع صوت القذيفة . وظلت فكرة الربط بين ضوء وصوت صادرين من مصدر واحد فى نفس اللحظة أساسًا لتجارب عديدة أجريت بعد ذلك إلى أن تمكن «إسكلاجنون» E. Esclagnon خلال الحرب العالمية الأولى من تقدير سرعة الصوت فى الهواء الجاف عند درجة الصفر المئوى بدقة عالية تقترب من القيمة المعروفة

حاليًا (٣٣٠,١ متر فى الثانية) .

وقد أفاد المسلمون من فهمهم الواعى لأساسيات مبحث «الصوتيات» فى مجالات نظرية وتطبيقية متنوعة ، من بينها تطوير تقنية الهندسة الصوتية ، واستخدامها فيما يعرف الآن باسم «تقنية الصوتيات المعمارية» ، فقد عرفوا أن الصوت ينعكس عن السطوح المقعرة ويتجمع فى بؤرة محددة ، شأنه فى ذلك شأن الضوء الذى ينعكس عن سطح مرآة مقعرة . وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية «تركيز الصوت» فى أغراض البناء والعمارة ، وخاصة فى المساجد الكبيرة لنقل وتقوية صوت الخطيب أو الإمام فى أيام الجمعة والأعياد .

حدث هذا قبل أن يبدأ العالم المعروف «والاس ك . سابين» حوالى عام ١٩٠٠م فى دراسة سوء الصفات الصوتية لقاعة محاضرات فى «جامعة هارفارد» الأمريكية ، وتتبع سلوك الخواص الصوتية للقاعات وغرف الموسيقى .

٤ - فيزياء المواد والتمعدن : Physics of Materials and Metallurgy

اهتم علماء الحضارة الإسلامية بدراسة خواص المادة الصلبة والسائلة والغازية ، وبحثوا فى طرق تعيين هذه الخواص ، ومنها :

(أ) خاصية اللزوجة Vicsosity ، وقد أشار إليها عدد من العلماء فى معرض حديثهم عن طرق مقاومة الحركة ، أو عند محاولة تبسيط بعض الظواهر الطبيعية ليسهل فهمها واستيعابها . من ذلك ما قاله ابن سينا عن السقوط الحر للأجسام فى أوساط مادية مختلفة ، حيث أوضح أن مقاومة المنفوذ فيه هى المبطل للقوة المحركة . وقال هبة الله البغدادى : «إن الأكثف يبطئ حركة الجسم أكثر والأرق أقل» . وإذا كان فى هذا إشارة إلى تأثير لزوجة الوسط على سقوط الجسم خلاله ، كما هو واضح من كلمتى «الأكثف» و«الأرق» ، فإن كلمة «المبطل» التى استخدمها ابن سينا تدل على أنه ربما عنى ميل الأجسام الساقطة فى الأوساط اللزجة إلى أن تأخذ سرعة ثابتة بعد فترة معينة ، وهى ما تعرف باسم «السرعة النهائية» التى استخدمها «ستوكس» حديثًا فى استنتاج قانونه المعروف فى اللزوجة .

ومما يدل على أن كلمتى «الأكثف» و« الأرق» اللتين استخدمهما البغدادى تعنيان الاختلاف فى درجة لزوجة الوسط ، أن نفس الكلمتين استخدمتا فى أماكن أخرى عند ابن الهيثم للدلالة على الاختلاف فى الكثافة الضوئية للأوساط التى تسبب انكسار الضوء عند انتقاله خلالها .

وهناك من استخدم صراحة مفهوم اللزوجة فى السوائل والغازات ، لا بمعنى أن الوسط يقاوم حركة الجسم فحسب ، ولكن أيضًا بمعنى أن الوسط إما غليظ القوام أو خفيف القوام ، فيقول الإمام الرازى : «إن الجسم إذا تحرك فى مسافة ، فكلما كان الجسم الذى فى المسافة أرق كانت الحركة فيه أسرع ، وكلما كان أغلظ (أى فى القوام) كانت الحركة فيه أبطأ» . ويقول ابن الهيثم :« . . . كما أن الحجر إذا تحرك فى الهواء كانت حركته أسرع وأسهل من حركته إذا تحرك فى الماء لأن الماء يدافعه مدافعة أكثر من مدافعة الهواء» .

(ب) الوزن النوعى Specific gravity ، وقد عرف العلماء العرب هذه الخاصية للمواد الصلبة والسائلة وعينوها لبعض المواد بدقة تطابق تقديرات علماء العصر الحاضر . بالرغم من اختلاف المستوى العلمى والتقنى للآلات والأجهزة التى استعملت فى هذين العصرين . وكان من أوائل الذين أجروا تجارب لحساب الوزن النوعى للمواد المختلفة أبو الريحان البيرونى الذى استخدم جهازه المخروطي . كما استخدم الخازنى مقياسًا خاصًا لتعيين الوزن النوعى لبعض الوسائل .

أما فيما يتعلق بفيزياء المواد والتمعدن فقد تفوق عدد من العلماء فى دراسة الفلزات واستخلاصها من خاماتها ، أو سبكها مع غيرها . فالبيرونى ـ على سبيل المثال ـ تحدث عن تعدين الذهب وتصفيته بالنار ، إما بالإذابة وحدها أو بالتشوية ، كما وصف عملية تنقية الذهب عندما يكون ممزوجًا مع الأتربة أو الأحجار الكريمة ، وتحدث عن اختلاط الفضة بالذهب وتكوين السبائك بالمزج (الاتحاد) بين العناصر ، فهو يقول : «ومزاج الصفر مزاج حقيقي ، لأنهما بعد الاتحاد لا يتميزان بحيلة يعودان بها إلى الانفراد ، وإنما يبقيان ما بقيا ، ويفسدان معًا » .

وتحدث البيرونى أيضًا عن الشَّبه بقوله : « الشبه نحاص صُفِّر بإطعام التوتيا (الخارصين) المدبر بالحلاوات وغيرها حتى أُشبه بالذهب وسمى شَبهًا ، ولما كانت الصفرة فيه عارضة أخذت الناس بقسطها منه عند كل ذوب ؛ ولذلك يُرَقَّد بإطعام جديد من ذلك التوتيا ، وإلا بلغ به التنقيص إلى الحال الأولى النحاسية المحضة . . وكما أن الصفرة عرض عارض فيه ، كذلك ما اختلط فيه من التوتيا زائد فيه غير متَّحد به ولا مستحيل إليه ، فالنار فى كل إذابة تنقصه عنه وتنقصه عن جرمه ووزنه حتى تذهب به كله » .

وتحدث كثيرون عن التمعدن والفلزات ، من بينهم يظهر صاحب « كتاب الجوهرتين» الحسن بن أحمد الهمدانى الذى قدم شرحًا تفصيليًا لعملية تمعدن الذهب والفضة ، ابتداء

من الحصول على الخام من منجمه ، وانتهاء بصبّ قوالب الذهب أو الفضة الخالصتين ، وإيضاح استخدامهما فى صناعة الحلى وترصيع التيجان وتزيين صفحات القرآن الكريم وغيرها . كذلك شرح صناعة السبائك ومعالجة الحديد الخام والحصول على الفولاذ اللازم لصناعة السيوف وبعض أنواع الأسلحة . واهتم أثناء ذلك بوصف عمليات الطبخ والتملغم والاتحاد الكيميائى لفصل الشوائب ، وزود كتابه برسوم توضيحية لأشكال الأجهزة والأدوات والقدور والأفران المستخدمة .

٥ - الفيزياء الذرية : Atomic Physics

نشأت فكرة «الذرة» فى تفكير الإنسان لأول مرة عندما واجهته أول مشكلة فلسفية تتعلق بالتساؤل عن مبدأ الكون أو المادة الأولى التى نشأ منها ، وعن مدى إمكانية تقسيم المادة وصولاً إلى الجزء الأصغر منها غير القابل للانقسام ، أو « الأتوم» Atom كما أطلق عليها فلاسفة الإغريق . وتنسب النظرية الذرية عادة فى نشأتها إلى «لويقيبوس» الملطى وتلميذه «ديمقريطس» فى القرن الخامس للميلاد ، وإن كان المؤرخ والجغرافى اليونانى القديم «سترابو» Strabo قد عزا نشأتها إلى «موشوس » Mochos الفينيقى الذى سبق «لويقيبوس» ببضعة قرون .

وقد عرف العرب «الذرة» و«المذهب الذرى» الذى وضعه فلاسفة الإغريق ، ولكنهم استخدموا لذلك مصطلح « الجزء الذى لا يتجزأ» أو «الجوهر الفرد» ، ودخل المصطلح فى اللغة العربية حديثًا باسم «الذرة » ، وهى ترجمة غير دقيقة لكلمة Atom ، وتناولوا القضية من جانبيها الفلسفى والعلمي .

ويكفى أن نشير إلى الجانب العلمى من النظرية الذرية فى التراث العربى بإحدى التجارب العلمية التى أجراها جابر بن حيان (ت ٨١٥م) لتحضير «الزنجفر» (كبريتوز الزئبق) ، حيث يقول : «لتحويل الزئبق إلى مادة صلبة حمراء ، خذ قارورة مستديرة وصب فيها مقدارًا ملائمًا من الزئبق ، واستحضر آنية من الفخار بها كمية من الكبريت حتى يصل إلى حافة القارورة ، ثم أدخل الآنية فى فرن واتركها فيه ليلة بعد أن تحكم سدّها ، فإذا ما فحصتها بعد ذلك ، وجدت الزئبق قد تحول إلى حجر أحمر ، وهو ما يسميه العلماء بالزنجفر ، وهى ليست مادة جديدة فى كليتها . والحقيقة أن هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما ، وكل ما حدث أنهما تحولّتا إلى دقائق صغيرة امتزجت ببعضها ، فأصبحت العين المجردة عاجزة عن التمييز بينهما ، وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب ،

ولو كان فى قدرتنا وسيلة تفرق بين دقائق النوعين لأدركنا أن كلاً منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة» .

ومن وجهة النظر العلمية المعاصرة يعتبر هذا الوصف تصويرًا عجيبًا للاتحاد الكيميائي ، لعل فيه شبهًا من تصوير «دالتون» Dalton (ت ١٨٤٤م) الذى جاء بعد جابر بألف عام ، وقال بأن الاتحاد الكيميائى يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض .

وإذا عقدنا مقارنة سريعة بين الطريقة التى عولج بها مفهوم الذرة على النحو الذى أوضحنا ، وبين الطريقة التى اتبعها علماء الغرب إبان عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، نجد أن المذهب الذرى الإغريقى القديم قد عاد إلى الظهور على يد جاسندى Gassendi (ت ١٦٥٥م) ، وعلى أيدى علماء الكيمياء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، فى صورة ضروب من الحدس الهندسى نستطيع اليوم أن ندرك مبلغ سذاجتها . والواقع أن المفكرين فى ذلك الحين لم يترددوا فى أن ينسبوا إلى الذرة كل المدركات الحسية المباشرة ، بحيث إن الصورة الخاصة لذرات المادة تفسر إحساسات الذوق والرائحة واللون . وهكذا قيل إن ذرة البرد مدببة لأن البرد قارس ، وإن تأثير الأحماض فى الأجسام القاعدية أشبه باختراق الطرف المدبب فى الأحماض لمسام القلويات . ولا شك أن مثل هذه التشبيهات ليس لها قيمة علمية ، بل إنها لا تصور لنا الظواهر تصويرًا جيدًا .

لكن الذرة الكيميائية كما تصورها «جاب» و«دالتون» فى عمليات الاتحاد الكيميائى بين العناصر لم تعد مع حلول القرن العشرين ذلك الجزء الذى لا يتجزأ . فقد أدى تطور النظرية الذرية ، أو الفيزياء الذرية ، إلى قيام علم الفيزياء النووية بدراسة التغيرات التى تتعرض لها نواة الذرة ، ودراسة الإشعاع الذرى الطبيعى بدراسة التفاعلات النووية . بل إن ظهور عالم الجسيمات الأولية وفيزياء الطاقات العالية قد أدى بنا الآن إلى الدخول فى مجال العلم الذى مازال يتكون ، والبحث فى أعماق « الذرة » ـ مرة أخرى ـ عن جزء جديد منها لا يقبل التجزئة . لقد اقترب الإنسان كثيرًا من الرؤية المباشرة للذرة المفردة والإمساك بها لاستخدامها فى إجراء تجارب علمية لم تخطر يومًا على بال بشر !!

٦ - الفيزياء الفلكية : Astrophysics

يختص هذا المبحث الهام بتطبيق قوانين الفيزياء على مشكلات علم الفلك ، ومنها حركات الكواكب وأقمارها ، والقوى التى تربط بين أجزاء المنظومات السماوية المختلفة

لتحتفظ بالشكل الذى يميزها ، وتركيب وديناميكا المجرات ، وتندرج هذه الموضوعات تحت علوم فرعية من قبيل : « الميكانيكا السماوية» Celestial mechanics والقياسات الفلكية Astrometry ، وفيزياء المجموعة الشمسية Solar system physics ، وغيرها .

وكانت النظرية السائدة قديمًا عن حركة الكواكب (بما فى ذلك حركة الشمس والقمر) تقضى بأن الأرض تقع فى مركز الكون ، وأن الحركة الكوكبية دائرية منتظمة . واقترح فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد نموذجان لتفسير الحركة الكوكبية : أحدهما نموذج حركة فلك التدوير Epicyclic motion والآخر نموذج حركة الفلك الخارج المركز Eccentric motion.

وفى القرن الثانى للميلاد أدخل بطليموس عدة تعديلات مهمة لتفسير الحركات الظاهرة للقمر وللكواكب المتحيرة ، ولكنه لجأ مضطرًا إلى أنواع من الحركة المناقضة لمبدأيْ الانتظام والدائرية ، وشيَّد نظامه الكوكبى على تخيُّل الكوكب متحركًا على فلك حامل (ناقل) Deferant مركزه خارج عن مركز العالم (الأرض) ، ثم تصوّر فلكا معدِّلاً للمسير Equant ، لا ينطبق مركزه على مركز العالم (الأرض) ولا على مركز الفلك الخارج ، وقال إن الكوكب الدائر فى فلك تدويره تكون حركته منتظمة أو معتدلة بالقياس إلى هذا الفلك المتخيل الجديد ، لا بالقياس إلى مركز العالم ولا إلى مركز الفلك الخارج ، رغم أن الكوكب لا يتحرك هو نفسه ، ولا يتحرك مركز فلك تدويره على هذا الفلك المعدِّل .

وجاء الحسن بن الهيثم (ت ١٠٤٠م) برؤيته النقدية ، فاستدرك على بطليموس فى مؤلفه المعروف «الشكوك على بطليموس» محددًا ١٦ اعتراضًا على النظرية البطلمية ، هى حالات عدم الانتظام فى الحركة الكوكبية . ولعل أهم شك على «المجسطى» لابن الهيثم ، من الناحية التاريخية ، هو اعتراضه الموجه إلى استخدام بطليموس لما يسميه «الفلك المعدل للمسير» . والمهم ، من الناحية التاريخية أيضًا ، أن عدم رضاء كوبرنيكوس عن حيلة الفلك المعدل للمسير كان أحد الأسباب التى أدت به (كما قال هو نفسه) إلى قلب نظام بطليموس رأسًا على عقب ، ووضْع الشمس ، بدلاً من الأرض ، فى وسط العالم .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى قدم نصير الدين الطوسى (ت ١٢٧٤م) إصلاحًا أشمل ، منطلقًا على الأرجح من تحليلاته العلمية لشكوك ابن الهيثم المتعلقة بالحركات غير المنتظمة للأفلاك الحاملة للقمر والكواكب ، فاقترح آليّة تعرف باسم «مزدوجة الطوسى» Al-Tusi's couple لتفسير التناقضات الواضحة بين تراكيب بطليموس النظرية

وبين نتائج الأرصاد العملية . وبالإضافة إلى الطوسي ، اقترح فلكيون آخرون من مدرسة مراغة نظرية تسمح بتحويل النماذج الخارجة المركز إلى نماذج تداويرية ، وكان الأبرز من بين هؤلاء «مؤيد الدين العُرضى الدمشقي» (ت ١٢٦٦م) و«ابن الشاطر» (ت ١٣٧٥م) . وتعزى الأهمية البالغة لهذه النتائج إلى علاقتها بنظرية كوبرنيكوس الخاصة بمركزية الشمس . تلك النظرية التى عكست المتجه Vector الذى يصل الشمس بالأرض ، مع إبقاء النماذج الرياضية مصونة على حالها دون أن تمسها .

إن تشابه الروايات المتواترة عن نماذج كوبرنيكوس ونماذج فلكيى مراغة هو الذى أثار الاهتمام ، وأصبح من المتفق عليه فى الأعمال الحديثة التى تناولت علم الفلك عند كوبرنيكوس – وخاصة الأعمال التى قام بها كل من نوجبور Neugebauer وسورد لو Swerdlow أن التصور الفلكى الجديد لكوبرنيكوس عن نظام العالم لم يقم على ملاحظات جديدة مفاجئة ، ولا على نماذج رياضية لم يتوصل إليها العرب ، وإنما كان الأمر نقلة جذرية خالصة فكريًا ، ونوعًا من التحول العقلى أحال المجموعة القديمة من المقدمات إلى مجموعة جديدة من العلاقات . وفضلاً عن ذلك ، فإنه لا فرق بين مركزية الشمس للعالم أو مركزية الأرض من الناحية الرياضية البحتة التى كان يعمل عليها الفلكيون العرب ، فلقد كانوا يعرفون تمام المعرفة أن الظواهر الفلكية التى نراها من الأرض ، يمكن أن تفسر على أن الأرض ثابتة والشمس متحركة ، أو العكس بالعكس .

ومن ناحية أخرى ، فإن من يرجع إلى أعمال كوبرنيكوس يراه يُعمل هيئة أفلاك الكواكب جميعها على افتراض أن الأرض ثابتة ، ثم ينقل هيئة تلك الأفلاك النهائية إلى افتراض أن الشمس ثابتة والأرض متحركة . والحقيقة العلمية التى نعرفها اليوم تقول إنه لا الأرض ثابتة ولا الشمس ثابتة فى هذا الكون الذى يعج فيه كل شيء بالحركة ولا يعرف السكون . ولذلك يمكن المقابلة بين هيئة الأفلاك التى كان يعمل عليها كوبرنيكوس ، والهيئة التى كان يعمل عليها الفلكيون العرب من أمثال الطوسى والعرضى وابن الشاطر ، بعد أن حفزتهم شكوك ابن الهيثم إلى إعلان الثورة على النظام البطلمى والبحث عن نظام كوكبى جديد ، ونجحوا فى وضع نماذج يمكن ترجمتها إلى صيغة فيزيائية لا تجبّ المبادئ الفلكية المعروفة ، أى نماذج تعبّر عن الحركة الظاهرية لكوكب ما باعتبارها محصلة لمجموعة حركات ، كل منها حركة منتظمة بالنسبة لمركزها الخاص بها . وكان هذا هو ذروة ما أنجزته بحوث العرب فى النظرية الفيزيائية لحركة الكواكب .

وأسفرت مقارنات الباحثين بين النصوص والرسوم الواردة فى مؤلفات كل من كوبرنيكوس وفلكيي مرصد مراغة ، عن أن الشبه بلغ (باستثناء مركزية الشمس عند كوبرنيكوس) حداً دعا البعض إلى القول - دون تجاوز الحقيقة - بأن كوبرنيكوس هو أشهر أتباع مدرسة مراغة ، إن لم يكن آخرهم ، ودعاهم أيضًا إلى التساؤل ، لا عمّا إذا كان كوبرنيكوس قد تعلم نظرية مراغة ، بل متى تعلمها وكيف ؟

والإجابة على التساؤل المطروح تتضح من دراسة انتقال بعض المؤلفات العربية إلى الغرب اللاتيني ، فقد تسنّى هذا الانتقال بواسطة مصادر بيزنطية وصلت إلى إيطاليا فى القرن الخامس عشر الميلادي . وظهر فى البندقية عام ١٥٣٦م كتاب للمؤلف جيوفانى باتيستا أميكو Giovanni Battista Amico بعنوان :

"De motiblus Corporum Coelestium uixta Principia peripatetica sine excentricis st epicyclis"

وفيه يبذل المؤلف جهده من أجل إعادة الحياة إلى علم الفلك متحد المركز بمساعدة نماذج مبنية كلها على استخدام نظرية الطوسى ومزدوجته الموجودة فى كتابه «التذكرة» .

وهناك دليل آخر على الانتقال المباشر موجود فى مخطوط بيزنطى إغريقي ، لترجمة يونانية وضعها - حوالى عام ١٣٠٠م - « شيونيادس» Chioniades عن أصل عربي وجد طريقه إلى «الفاتيكان» بُعيد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م يوجد على إحدى صفحاته عرض واضح لمزدوجة الطوسى مع نموذج قمرى لابن الشاطر ، ويوجد على صفحة أخرى عرض نموذج قمرى للطوسى مع رسم تخطيطى يوضح تعديل مزدوجة الطوسى لهيئة الأجسام الصلبة .

وإذا علمنا أن كوبرنيكوس قد أقام فى إيطاليا لسنوات قليلة ، وانتقل إلى روما فى ربيع عام ١٥٠٠م ، وبقى فيها حوالى سنة وقام بإلقاء محاضرات فى الرياضيات الفلكية ، فإن ما لدينا من ظن يتحول إلى اعتقاد بأن كوبرنيكوس قد اطلع بالفعل على نظريات العرب الفلكية وأفاد منها فى صياغة نظريته عن مركزية الشمس وهيئة المجموعة الشمسية .

٧ - فيزياء الأرض : Geophysics

(أ)علم شكل الأرض : Geomorphology

يهتم هذا العلم فى صورته المعاصرة بدراسة التضاريس الأرضية المختلفة فوق سطح اليابسة والمغمورة تحت الماء ، ويعنى بتتبع أطوارها المتعددة ، وتفهم الأسباب والعوامل

المؤثرة فى تكوينها ، وذلك فى ضوء ما يسمى «بالنظرية الجيومورفولوجية» الحديثة التى تقضى بأن تطور أشكال سطح الأرض يعتمد على عوامل التعرية والإرساب والحركات الأرضية ، وهى عوامل ناتجة عن تأثير قوى البناء والهدم .

وقد استطاع أبوبكر الكرجى فى القرن الحادى عشر الميلادى أن يطور فكرة الدورة التضاريسية التى تقول بتطور معالم سطح الأرض بحيث كلما أثرت قوى الرفع البانية على منطقة ما ورفعتها فوق مستوى سطح البحر ، فإنها تكتسب طاقة كامنة بفارق الارتفاع عمّا حولها ، مما يسهل لقوة الجاذبية الأرضية أن تنقلها شيئا فشيئا الى مواقع أقل ارتفاعاً منها ، مثل قيعان المحيطات ، فى محاولة لكى يتساوى بُعد قممها عن مركز الأرض ، وينتج عن ذلك تطور فى تضاريس الأرض ينتهى معه السطح النهائى بالتعرية إلى سطح منخفض ومستو هو «السهب» (أى الفلاة) . وقد نسبت هذه الفكرة إلى «ديفيز» فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكننا نجد ما يصحح هذا الإسناد الخاطىء عندما نقرأ للكرجى قبل ذلك بثمانية قرون ، فى كتابه «إنباط المياه الخفية» ، ما نصه :

«إن فى الأرض حركات دائمة ، منها طلب الأبنية للوقوع والانهدام ، والميل على سمت الاستقامة ، وكذلك الجبال والتلاع تنهار قليلا قليلا ، وتتفتت طلباً للمركز ، والأرض الرخوة فى تربتها حركة دائمة ، وهى طلب أجزائها الصلابة باعتماد بعضها على بعض . وأعظم هذه الحركات المذكورة انتقال المياه العظيمة ، وجريان الأودية القوية من أرض الى أرض فى الأزمنة الطويلة ، فإذا اجتمعت موادها فى ناحية من نواحيها ، وارتفعت حتى بُعد سطحها من المركز ، وساوى ذلك بُعد الموضع المحاذى له الذى يقابله ، ثم بعد المساواة زاد عليه ، تحركت الأرض طلبا للمعادلة المذكورة ، فتتغير لذلك عروض البلاد ومطالعها وأنصاف نهارها ، ويصير ذلك سبب انتقال البحار ، وظهور عيون وغيض عيون ، ولا يكون ذلك دفعة واحدة ، بل يكون على التدرج كانتقال العمارات من أرض إلى أرض» .

والمتأمل فى هذا النص للكرجى يلاحظ تحليله الفيزيائى لبيان أنواع الحركات الأرضية الدائمة وأثر الجاذبية الأرضية عليها .

(ب) علم المعادن والتعدين : Mining and Mineralogy

يزخر التراث العربى بالكثير من المؤلفات التى تناولت دراسة العديد من المعادن وتعدينها والتنقيب عنها . وقد اعتمد علماء الحضارة الإسلامية على الملاحظة والتجربة فى كثير من دراساتهم للمعادن والجواهر والأحجار الكريمة ، وفى تمييز دخيلها من أصيلها

بحسب لونها وشفافيتها وبريقها وصلابتها وحكاكتها (مخدشها) وتشعيرها (أو تشققها)، وغير ذلك من الخواص الفيزيائية التى تميز بها المعادن اليوم. وقد حاولوا قياس بعض هذه الخواص وتقديرها كميًا، مثل خاصية الوزن النوعى التى عينوها لمواد كثيرة بدقة تطابق التقديرات المعروفة حاليا، ومثل خاصية الصلابة Hardness التى تحدد درجة تماسك المعدن وقدرته على خدش معدن آخر، فقد ذكر التيفاشى من خواص «الألماس» Diamond أنه يقطع كل حجر يمر عليه، وهو نفسه عسر الانكسار، وذكر أن الياقوت يقطع الحجارة شبيها بالماس، وليس يقطعه شىء غير الماس.

وذكر البيرونى فى كتاب «الجماهر فى معرفة الجواهر» أن الماس أصلب الجواهر ويليه الياقوت ثم أشباه الياقوت، وقال: «إنما قدمت ذكر الماس على ما ذكر مما بقى من مثمنة الجواهر التى لها الرياسة، أعنى اللؤلؤ والزمرد، لأنه فاعل فى الياقوت الفاعل فيما دونه، وغير منفعل بشىء فوقه، ولا متأثر مما دونه.. والمناسبة بينه وبين الياقوت أقرب المناسبات بالرزانة والصلابة». وبهذا يكون البيرونى والتيفاشى قد وضعا اللبنة الأولى فى فكرة بناء «مقياس موهز» Mohs scale للصلابة ذى الدرجات العشر، ويشغل الألماس والياقوت الدرجتين العاشرة والتاسعة فيه على الترتيب، بينما يحتل «التلك»، وهو أقلها صلابة، الرقم واحد.

(ج) علم الزلازل : Seismology

حاول الإنسان منذ القدم أن يتعرف على أسباب حدوث الزلازل، وكانت أفكاره عنها فى بادئ الأمر قائمة على الأساطير والخرافات. وكانت تفسيرات علماء الإغريق مجرد آراء فلسفية وتخيلات بعيدة عن الواقع، يمثلها رأى أرسطو الذى يقضى بأن الأرض جافة بطبيعتها، ولكن المطر يملؤها بالرطوبة، وتقوم الشمس ونارها بتسخينها وتتسبب فى الرياح. والزلازل هى ريح وعواصف مكتومة فى كهف كبير بجوف الأرض، أو هى نتيجة ضرورية لذلك.

وجاءت بدايات التفسير العلمى على أيدى علماء الحضارة الإسلامية، فيتحدث الهمدانى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) عن الطاقة الزلزالية «فى باطن الأرض، ولكنه يسميها «الرياح المحتقنة»، ويصف ما ينتج عنها من هزات متفاوتة الشدة يصحبها أحيانا حدوث خسف على نطاق واسع. والخسف الذى ذكره الهمدانى فى كتابه «الجوهرتين» هو المقابل للمصطلح الأجنبى الحديث Taphrogenesis، ويعنى الحركات

التى تحدث رأسيا إلى أسفل على نطاق واسع ويصاحبها تصدع كبير الزاوية .

ويقدم ابن سينا وصفا تفصيليا لبعض أنواع الزلازل ، فيقول : «منها ما يكون على الاستقامة إلى فوق ، ومنها ما يكون مع ميل إلى جهة ، ولم تكن جهات الزلزلة متفقة ، بل كان من الزلازل رجفية ، ما يتخيل معها أن الأرض تقذف إلى فوق (أى زلازل رأسية) ، ومنها ما تكون اختلاجية عرضية رعشية (وهى ما ينتج عنها الطيات الملتوية) ، ومنها ما تكون مائلة إلى القطرين ويسمى القطقط (وهى ما تحرك الأرض فى اتجاهين وينتج عنها ما يعرف بالطيات المضطجعة) ، وما كان منه مع ذهابه فى العرض يذهب فى الارتفاع أيضا ، ويسمى «سلميا» (أى ما يحرك الأرض حركة رأسية وأفقية معاً ويسبب ما يعرف بالانكسارات السلمية)» .

ومثل هذه المحاولات التى تعاملت مع الظاهرة بأسلوب علمى ، بالإضافة إلى ما دوَّنه المسلمون من سجلات زلزالية موثقة على أساس من الملاحظة والتجريب ، هو الذى ساعد على زيادة معرفتنا نسبيا بطبيعة مثل هذه الظاهرة الكونية التى تتطلب إلماما دقيقا بوقائع تاريخها الطويل . والاسترشاد بهذا التاريخ يعتبر ضرورة منهجية ومعرفية لأى دراسات معاصرة أو مستقبلية تتعلق بخرائط التوزيع الزلزالى ، فظاهرة الزلزال تعتبر أقل الظواهر الكونية من حيث فهمنا لها ، لأن مصادرها فى باطن الأرض لا تزال بعيدة عن ملاحظاتنا المباشرة ، ولا نستطيع إلا الاستدلال على ما يحدث فى الباطن من خلال القليل الذى نشاهده على السطح .

أهم المصادر والمراجـع :

١- أحمد فؤاد باشا : الاتجاه العلمى عند الهمداني ، مجلة المسلم المعاصر ع ٥٨ ، ١٩٩٠م .

٢ - أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى الإسلامى شيء من الماضى أم زاد للآتى . القاهرة : دار الفكر العربى ، ٢٠٠٢م .

٣ - أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣م .

٤ - أحمد فؤاد باشا : دراسات إسلامية فى الفكر العلمي . القاهرة ، ١٩٩٠م .

٥- أحمد فؤاد باشا : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية . القاهرة ، ١٩٨٤م .

٦ - توبى ، أ : فجر العلم الحديث ، الإسلام - الصين - الغرب . الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ٢٠٠٠م .

٧ - جولد شتاين ، توماس : المقدمات التاريخية للعلم الحديث . الكويت : عالم المعرفة ، ٢٠٠٣م .

٨ - الخازنى ، عبد الرحمن : ميزان الحكمة . حيدر آباد الدكن : دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـ .

٩ - ابن سينا : كتاب الشفاء - الطبيعيات ، تحقيق محمود قاسم ، مراجعة وتقديم إبراهيم مدكور . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩م .

١٠ - شاخت وبوزرت : تراث الإسلام . الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٨٨م .

١١ - عبد الله الدفاع وجلال شوقي : أعلام الفيزياء فى الإسلام . ط ٢ . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥م .

١٢ - الكرجى ، أبو بكر محمد بن الحسن : كتاب إنباط المياه الخفية ، تحقيق ودراسة : بغداد عبد المنعم . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٧م .

١٣ - مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية . القاهرة ، ١٩٤٢م .

١٤ - ابن ملكا البغدادى : أبو البركات هبة الله :«المعتبر فى الحكمة ، مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستنبول ، رقم ٣٢٢٢ ، ٢٢٥ ورقة .

١٥ - الهمدانى ، الحسن بن أحمد : كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) ، دراسة وتحقيق : أحمد فؤاد باشا . القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٤م .

قراءة معاصرة في السيرة والمنهج العلمي للشيخ الرئيس

أ.د. رفعت حسن هلال*

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) المعروف فى الغرب باسم Avicenna وهو عبقرى ، نادراً ما تجود الأيام بمثله ، فقد عرف كطبيب لا يبارى . ويشهد كتابه «القانون» بعلم ومعرفة بفنون مهنة الطب وأصولها ، وقد ألف كتباً فى الدين والمنطق والفلسفة والفيزياء والرياضيات والفلك . وعبقريته تظهر أكثر ما تظهر فى كتابه «الشفاء» الذى يتصدى فى بعض أجزائه لعلوم ما وراء الطبيعة . فمن هو هذا العبقرى الذى ظلت كتبه فى الطب تدرس فى الجامعات الغربية حتى القرن الثامن عشر .

حياته :

إن حياته موثقة بطريقة قلما تيسرت لأحد من علماء عصره ، فقد كتب هو بنفسه سيرته الذاتية التى تغطى الثلاثين عاماً الأولى من حياته ، أما بقية حياته فقد وثقها تلميذه وصديقه الجوزانى .

ولد ابن سينا فى عام ٣٧٠هـ/ ٩٧٣م فى قرية تسمى أفشنة بجوار بخارى ، وحظى بتعليم جيد فى مراحل عمره الأولى . وأتم حفظ القرآن كله وهو ابن عشر سنين ، وأتى على كثير من فنون الأدب . وكان أبوه وأخوه ممن اعتنقوا مذهب الإسماعيلية ، وحاولوا أن يضموه إلى فكرهم ، ولكنه لم يقتنع بما ذهبوا إليه - رغم طفولته - فقال عن نفسه «وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى» . وبدأت مرحلة جديدة بتتلمذه على يد أبى عبد الله الناتلى . وسرعان ما تفوق على أستاذه فقال «وكان أي مسالة قالها ، تصورتها خيراً منه» . وأخذ يقرأ الكتب بشغف وفهم تعجب منهما أستاذه ، وتولى بنفسه حل أشكال كتاب أوقليدس ، ثم انتقل إلى المجسطى فتولى قراءة الأشكال الهندسية وحلها بنفسه ، وأبدع فى ذلك حلولا لم يكن يعرفها أستاذه فقال «فكم من شكل ما عرفه إلا حين عرضته عليه وفهمته إياه» .

ولقد رغب ابن سينا فى تعلم الطب ، فقرأ ما وقعت عليه يداه من كتبه ونبغ فيه ، حتى بدأ الأطباء يقرءون عليه علم الطب وتعهد المرض «فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المصنفة من التجربة ما لا يوصف» وكان يومئذ ابن ستة عشر عاماً .

(*) رئيس قطاع المراكز العلمية بدار الكتب ، ومدير مركز التراث العلمي بجامعة القاهرة .

ثم توفر على قراءة المنطق والفلسفة لمدة عام ونصف «لم أنم فى هذه المدة ليلة واحدة بطولها» . وانظر إلى هذا العالم الجليل الذى عرف أن الله يفتح أبواب علمه على من يريد ، وآمن إيمانا مطلقاً بأنه سبحانه وتعالى الملهم . أقول انظر إليه إذا استعصت عليه مسألة يقول : «أتردد بسبب ذلك إلى الجامع ، أصلى وأبتهل إلى مبدع الكل ، حتى يتضح لى المنغلق منه ويسهل المتعسر» . وكان لا ينام حتى يحل المسألة ، وإذا غفل يظل عقله يعمل حتى يصل إلى حل لها «واتضح لى كثير من المسائل فى النوم» .

ثم انتقل بعد ذلك لدراسة كتاب أرسطو فى علوم ما وراء الطبيعة «الميتافيزيقا» وقرأه أكثر من أربعين مرة ، محاولا فهم مغزاه والاقتناع بما فيه ، ولكنه لم يستطع . وانظر إلى أمانته العلمية حيث يقرر أن كتاب الفارابى فى شرح علوم ما بعد الطبيعة هو الذى يسّر له فهم كتاب أرسطو . وعندما قام بعلاج أمير بخارى - فى ذلك الوقت - نوح بن منصور ، سمح له بدخول مكتبة بخارى العظيمة ، حيث قرأ ما تحويه من أمهات الكتب ، ونهل من علم من سبقه من العلماء ، وفرغ منها جميعا ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

وببلوغ ابن سينا سن الواحدة والعشرين ، كان قد فرغ من أول كتاب له فى الفلسفة سماه «المجموع» ، وكان كتابًا جامعًا فى العلم أتى فيه على سائر العلوم سوى العلم الرياضى . ثم صنف كتاب «الحاصل والمحصول» فى حوالى عشرين مجلداً ، فى علوم الفقه والتفسير والزهد ، وكتابا فى الأخلاق اسماه «البر والإثم» وبدأ عطاء العبقرى . . واندفع قلمه ليكتب ويصنف ويشرح فنون العلوم كلها .

ويشهد العام ٣٩١هـ / ٩٩٥م نقطة تحول جذرى فى حياة ابن سينا ، فقد مات أبوه العائل له والسند ، فاضطر إلى الخروج إلى معترك الحياة ليعمل فى إدارة سلطان البلاد . ولحكمته وبعد نظره قربه السلطان كوزير للبلاد . وكان لهذا الحب أعداء حاولوا النيل من مكانة ابن سينا لدى الحاكم ، وتآمروا عليه فحوكم وسجن ، وهرب وتخفى . وعاش الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى أصفهان ، يتكسب عيشه من علاج المرضى . ومات عام ٤٢٨هـ/١٠٣٧م . فى همدان ودفن فيها . ولا يسعنى أن أصف إحساسه بضيق الأرض عليه بما رحبت ، وهوانه على الناس ، أكثر من وصفه لنفسه فى بيت من قصيدة له ، قال فيها :

لما عظمتُ فليس مصرٌ واسعى

لما غلا ثمنى عدمت المشترى

ولم يكن ابن سينا فيلسوفا عادياً عاش فى كتبه ، ولكنه كان يصارع الحياة نهاراً ، ويسهر طوال الليل يكتب ويدرس ويحل المعضلات العلمية . كان يكتب فى أى مكان ، ولو على صهوة حصان ، أو فى السجن ، ومرجعه الوحيد هو ذاكرته الفولاذية .

وقد كان يؤمن بالمنهج التجريبى فى العلم . وليس صحيحا أن أعماله لم تكن إلا تطبيقًا لنظريات من سبقه من علماء اليونان ، فالمنهج مختلف ، بل إن ابن سينا فى كثير من المواضع ينقض ويستهجن النظريات اليونانية ، وهو ينظر مثلاً إلى منطق أرسطو على أنه غير كاف ولا يتصل بالواقع .

أعماله :

إن أعمال الشيخ الرئيس التى وصلت إلينا أعمال ضخمة ، ولكنها غير كاملة ؛ لأنه كان يجيب على ما يوجه إليه من مسائل ، ولا يهتم بتدوين هذه الإجابات فى أحيان كثيرة .

وبعض ما كتبه ابن سينا فُقد فى حياته مثل كتاب «الإنصاف» ، وقد أحصى العلماء له ٢٤١ كتابا ، منها ١٣١ تأكدت نسبتها إليه ، أما بقية الكتب ففيها شك . ويرجع هذا الشك أول ما يرجع إلى التنوع الكبير فى مجالات العلم التى كتب فيها الشيخ الرئيس . فقد عرف كفيلسوف وطبيب ، ولكن كتاباته فى التاريخ الطبيعى والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات وحتى الموسيقى ، جعلت الباحث يلهث لتحرى الدقة فى نسبة الكتب إليه .

والمتفحص لمنهج ابن سينا يلاحظ أنه فرق بين العلوم التطبيقية التى أفرد لها الكتب الخاصة مثل كتابه الشهير «القانون فى الطب» ، وبين العلوم النظرية والبحتة مثل الرياضيات والفيزياء ، التى اعتبرها جزءاً من الفلسفة ، واشتمل عليها كتابه المعروف فى الفلسفة والميتافيزيقا (الشفاء) .

وكتاب «القانون» يمثل وحدة علمية متكاملة ومنظمة ، فى أبواب تغطى جميع المعارف الطبية فى زمنه ، معززة بشرح العالم العبقرى ، مما جعل الكتاب مرجعا رئيساً فى الجامعات للتدريس وممارسة الطب لمدة تزيد على سبعة قرون متتالية . وحتى فى وقتنا الحاضر ، فإن علماء الكيمياء الصيدلانية يجدون فيه من وصف الأدوية المفردة والمركبة والنباتات الطبية ما لا يجدونه فى غيره من المراجع . ويقرر الدكتور عبد الله أحمدين - أحد الأطباء المعالجين بطهران (إيران) - أنه درس الممارسات الطبية لابن سينا وطبقها على مرضاه ، وحقق نتائج باهرة ، وخاصة فى علاج الروماتيزم .

ويقع كتاب «القانون» فى خمسة مجلدات . يقدم المجلد الأول عموميات الطب ، فيُعرّف بالجسم البشرى ، وأعضائه وأجهزته ، والأمراض والممارسات العلاجية المختلفة بصفة عامة (وقد أطلق على هذا المجلد فى ترجمته الفرنسية اسم «التشريح» ب .د . كونج ١٩٠٥-١٩٣٠) ، واحتوى المجلد الثانى على العقاقير ، وصيدلانية النباتات والأعشاب الطبية . أما المجلد الثالث فيقدم دراسات فى علم الأنسجة pathology مقسمة إلى دراسة الأعضاء ، أو الأنظمة فى الجسم البشرى . وأما المجلد الرابع فيبدأ برسالة فى الحمى ، يليها رسالة عن العلامات والأعراض والتشخيص للأمراض ، مع تقديم شرح واف للعمليات الجراحية الثانوية ، والأورام والجروح والكسور والسموم . ويقدم المجلد الخامس موسوعة الصيدلة pharmacopoeia فى أبهى وأكمل صورة .

ولم يكتف ابن سينا بهذا الكتاب الجامع ، ولكنه ألف العديد من كتب الطب الصغيرة التى تغطى موضوعات بعينها ، حتى يضمن أوسع انتشار لها وأكبر فائدة منها . ومن أشهر هذه الكتب ، كتابه فى النبض PULSE والموسوعة الصيدلانية pharmacopoeia ، و«النصيحة فى حفظ الصحة» ، وهو من أوائل الكتب فى تاريخ الطب التى تتعرض لمجال الطب الوقائى .

ومن ألطف ما كتب ابن سينا قصائد شعرية ، لتقديم الأساسيات والمعارف الطبية الرئيسة ، وكان لهذه القصائد بالغ الأثر فى تعليم الأطباء وتدريبهم ، وقد أطلق على إحداها «الأرجوزة فى الطب» وترجمت إلى اللاتينية عدة مرات بين القرنين ١٣ و ١٧ الميلاديين تحت اسم «Cantica Avicenne» ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبية مثل الفرنسية (١) .

ولعل من المناسب هنا ، أن نعرض لمنهج ابن سينا فى الطب ، حيث قدم هذا العالم الفيلسوف منهجًا للباحثين فى مجال الطب يعكس فيه فهمه العميق ونظرته الواسعة للمرض والصحة . وقد لخص منهجه الطبى فى عبارة واحدة تقول : «إن لكل شىء سببا ؛ فلا بد من فهم أسباب المرض وأسباب الصحة» ، وهذه الأسباب من الممكن أن تكون ظاهرة ، وفى أغلب الأحوال تكون خفية ، ولذا فإن من الواجب دراسة الأعراض . والأسباب على العموم أربعة أنواع هى : أسباب مادية ، وأسباب متعلقة بالكفاءة ، وأسباب شخصية ، وأسباب عامة .

(١) Pome de la medecine, H.Jahier and A.Noweddine, Paris, 1956.

والأسباب المادية : هى المرتبطة بالعضو المصاب نفسه ، أما الأسباب المرتبطة بالكفاءة فهى ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالإنسان من هواء وماء وخلافه . وانظر أخي القارئ إلى تنبه هذا العالم العظيم لأهمية التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان العامة ، فهذا الوعى البيئي لم يحظ باهتمام الإنسان المعاصر إلا فى العقود الأخيرة من القرن العشرين . ويلخص ابن سينا فى كلمات بليغة تأثير البيئة على الصحة العامة ، فيقول : «كلما زاد ما يعلق بها (يقصد البيئة ، من هواء وماء وتربة) ظهرت وتسارعت أعراض المرض» .

ولم يكتف ابن سينا بالمنظور البيئي للمرض ، ولكنه خرج منه إلى المنظور الشخصى hygiene من عادات نوم ، وعادات أكل ، وطريقة عمل ومشى ، وكل ما يتعلق بالحياة الخاصة للإنسان . وخلص إلى أنه لابد من اتباع إرشادات صحية فى الأكل والشرب ولابد من القيام بالتمارين الرياضية حتى تحفظ الصحة . وهكذا قدم الشيخ الرئيس المفتاح للصحة العامة وأهم قواعد الطب الوقائى .

ولم يكن هذا العالم الدقيق فى تحليله والنافذ إلى جوهر المشكلة يشتت جهده فى الفروع ، وكان دائما يحدد هدفه النهائى قبل بداية البحث ، ثم يتجه إلى هذا الهدف دون أن يضيع جهده فى المشاكل الفرعية . فعندما بدأ علاج تسوس الأسنان حدد الهدف حين قال : «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تأكل ، وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه ، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك» .

أما كتب ابن سينا فى مجال الفلسفة فكثير منها وصل إلينا غير كامل ، وبعضها فقد تمامًا . والفلسفة عند ابن سينا تعنى : المنطق ، والعلوم الفلسفية البحتة التى تبحث فى الكون ، وما وراء الطبيعة . وتعنى أيضا العلوم الطبيعية ، مثل الفيزياء ، والفلك ، والرياضيات .

لقد كان ابن سينا يبحث فى الأصل والجوهر ، وكان يؤمن كما نؤمن نحن الآن أن لكل علم فلسفة ، وأن الله سبحانه خلق العلم وخلق منهجه ، وعليك أيها الباحث أن تفهم منطق المنهج العلمى وتفلسفه . ومن أهم وأعظم كتب ابن سينا فى هذا المجال كتاب «الشفاء» الذى قدم فيه نقضاً ودراسة وتحليلاً لتطبيقات ما وراء الطبيعة metaphysics ، بالإضافة إلى رسائل غاية فى الأهمية فى : الحركة ، والسكون ، والنسبية ، والفعل ورد الفعل . وهذه الأعمال يجب أن يتصدى لتحقيقها من منظور معاصر علماء فى مجالات الفيزياء والرياضيات ، رغم أن هذا الكتاب قد تم نشره محققاً على يد الدكتور محمود قاسم ، وقدم له الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مدكور .

وقد قام ابن سينا بنفسه باختصار أجزاء من كتاب «الشفاء» ؛ لتقديم أهم الأفكار فى كتاب مختصر بعنوان «كتاب النجاة» . كما وصل إلينا أيضا فى صورة كاملة كتاب «الإشارات والتنبيهات» . وكذلك كتاب «دانش نامه علائى»(١) ، وهو كتاب كتبه بطلب من الأمير علاء الدولة . أما كتاب «الإنصاف» فلم تصلنا إلا أجزاء منه . وكذلك كتاب «منطق المشرقيين» . وقد زخرت المكتبة العربية بالعديد من الكتيبات التى ألفها ابن سينا لتوضيح وجهة نظره فى قضية ما ، أو لتوضيح بعض النقاط أو التفاصيل الهامة .

والقراءة المتأنية للسيرة الذاتية والعلمية للشيخ الرئيس توضح مدى عمق تفكير هذا الرجل الذى يحدد هدفه ويركز عليه ، ولا يشغل نفسه أو يشتت ذهنه بالدخول فى التفاصيل وإنما «يغوص إلى عمق المشكلة» .

تأثير ابن سينا فى الغرب :

إن انتقال علوم الإغريق إلى العربية فى حركة الترجمة الكبرى ، وترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية كانت اللبنة الأولى والأساس للنهضة العلمية المعاصرة . وقد بدأت حركة الترجمة من العربية فى القرن العاشر الميلادى فى صقلية ، ثم توسعت وأخذت شكلاً مؤسسياً فى توليدو بأسبانيا خلال القرن الحادى عشر ، ثم انطلقت شرارتها إلى أجزاء أخرى من أوروبا كفرنسا وإيطاليا . وكان الكتابان الرئيسان لابن سينا : «القانون» و«الشفاء» من الأعمال الأولى التى ترجمت ، وجعلته شخصية مشهورة ومحترمة فى الغرب كعالم وفيلسوف .

ومن بداية القرن الثانى عشر وحتى القرن السادس عشر ، كان تدريس الطب وممارسته فى أوروبا يعتمد بصفة أساسية على كتاب «القانون» . ورغم أن أعمال أبى بكر محمد ابن زكريا الرازى كانت معروفة ، ولها تقدير عظيم من الناحية الإكلينيكية ، إلا أن «القانون» ظل الدستور الرئيس للأطباء . وقد ترجم لأول مرة فى الفترة من ١١٥٠ إلى ١١٨٧م ، على يد جيرارد سيرمونا . وتلا ذلك العديد من الترجمات التى بلغ عددها ٧٨ ترجمة ، أغلبها إلى اللاتينية ، وبعضها إلى العبرية . ويجب أن نلاحظ هنا أن ترجمة المصطلحات الطبية لم تكن على مستوى علمى دقيق ، وبعض المصطلحات العربية أخذت كما هى دون ترجمة ، وربما لم يكن معناها الحقيقى والمغزى الذى ترمى إليه واضحاً تماماً فى أذهان المترجمين . وذلك يعكس الفارق فى مستوى علم الطب الأكاديمي بين الشرق العربى والغرب الذى كان

(١) كلمة فارسية تعنى رسالة فى المعرفة ، وعلائى إضافة إلى الأمير علاء الدولة الذى ألفت الرسالة بناء على طلبه .

يحاول أن ينفض عنه ظلام العصور الوسطى . وكانت الصورة أكثر إشراقا فى ترجمات «الشفاء» التى تميزت بدقة عالية وفهم للمصطلحات .

وقد اعتمد العلماء فى تدريس الطب على كتاب «القانون» فى أغلب الجامعات الأوروبية . وظهر هذا الكتاب كمرجع أساس لدراسة الطب فى أقدم برنامج دراسى معروف فى أوروبا فى كلية الطب فى فرنسا عام ١٣٠٩م ، وفى جميع برامج تدريس الطب اللاحقة حتى عام ١٥٥٧م الذى ظهر فيه كتاب «الطب» تأليف : جالين . ومع هذا فقد ظل كتاب «القانون» يدرس حتى القرن السابع عشر . يؤكد ذلك التحقيق الذى نشر فى روما عام ١٥٩٣ لكتاب «القانون» . والأدب الأوروبي - كما تمثله قصص كنتر بارى - يحكى لنا أنه لا يوجد طبيب لم يدرس كتاب «القانون» . ولقد كان من الشائع أن يتخصص الطبيب فى أحد فروع الطب كما قسمها ابن سينا . مثلاً : فى تخصص الحمى ، أو أمراض العيون ، أو أمراض القلب ، وهكذا . وعلى الجانب الآخر ، اعتمد جميع العلماء العرب كتب ابن سينا كمرجع أساس لهم ، رغم أن بعضهم شكك فى صحة بعض أفكاره ، مثل ابن زهر ، أو حتى أثبت خطأها وقدم التصحيح لها ، مثل : ابن النفيس عندما سجل اكتشافه للدورة الدموية . كما كتب ملخصاً لكتاب «القانون» يسمح لأي طبيب بفهمه واستيعابه بسهولة ويسر .

أهم ما كتب الشيخ الرئيس :

١- كتاب النجاة (تحقيق د . ماجد فخري) (ودون تحقيق من موقع الوراق (W) (وب) .

٢ - كتاب الشفاء :

٢ . ١ . جزء : الإلهيات (محقق دار الكتب والوثائق المصرية) (ودون تحقيق من موقع الوراق (W)(وب)

٢ . ٢ . جزء الطبيعيات(محقق دار الكتب والوثائق المصرية) (علم النفس تحقيق يان باكوس)

٣- كتاب الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسى (تحقيق د . سليمان دنيا)

٣ . ١ . الجزء الأول : المنطق (دون تحقيق من موقع الوراق (W) ترجمة شمس عناتى

٣ . ٢ . الجزء الثانى : الطبيعيات (دون تحقيق من موقع الوراق (W)

٣ . ٣ . الجزء الثالث : الإلهيات (دون تحقيق من موقع الوراق (W)

٣ . ٤ . الجزء الرابع : التصوف (دون تحقيق من موقع الوراق (W) ترجمة شمس عناتي

٤- كتاب القانون في الطب

٥- كتاب المبدأ والمعاد ترجمة ودراسة د . يحيى مشعوط (فرنسية)

٦- كتاب الحدود (تحقيق وترجمة فرنسية ، آن مارى غشيون)

٧- عيون الحكمة (دون تحقيق من موقع الوراق (W)

٨ - المباحثات (تحقيق عبد الرحمن بدوى فى كتابه أرسطو عند العرب)

الكتب والرسائل التي ليست مؤكدة النسبة إليه :

١- ١- رسالة في الحزن من مخطوطة مدرسة المراغة .

٢- ٢- دانش نامه علائى : ترجمة فرنسية .

قائمة مؤلفاته وكتبه وما كُتب عنه :

- مؤلفات ابن سينا ، لجورج قنواتي .

- AN ANNOTATED BIBLIOGRAPHY ON IBN SINA (1970-1989) INCLUDING ARABIC AND PERSIAN PUBLICATIONS,
AND TURKISH AND RUSSIAN REFERENCES by Jules L. JANSSENS
Leuven University Press

مواقع عن ابن سينا على الشبكة :

- بحث خلال (موقع جوجل) .Avicenna - Ibn Sina(ج)
- بحث خلال (موقع التا فزتا) Avicenna - Ibn Sina(ج)
- بحث خلال (موقع هيابيس) (موقع نويس) (ج)
- قائمة المكتبة الوطنية الكندية (ج)
- موقع المكتبة الوطنية الأمريكية للطب . فهرست خاص للمخطوطات الإسلامية في الطب .

● يقدم موقع مكتبة الكونجرس الأمريكي دراسة ببليوجرافية عن أهم الدراسات والكتب عن ابن سينا . باللغات العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية ، والذي يعطى بالإضافة إلى كتاب يولز يانسن صورة متكاملة عن الموقف الحالي من الدراسات والتحقيقات لأعماله .

الحكومة النبوية

(٢)

أ. عبد المتعال سالم عاشور(*)

انتهى بنا الحديث فى العدد السابق عند الحافظ أبى الإسعاد عبد الحى الكتانى والملابسات التى أحاطت بتأليف كتابه «التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» .

واليوم نستكمل الحديث عن الكتاب ، ونحاول أن نتلمس أوجه الشبه والخلاف بينه وبين كتاب الخزاعى «تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية» ، وأن نعرض للمعالم الأساسية للدولة النبوية عند الشيخين .

أثار فى الشيخ الكتانى شجونه وأساه وحرك مواجعه ما رآه عند بعض الباحثين من إهمال لعصر النبوة ، ممن يخطفون الخطفة من العلم نتفا ومن وصفهم الخزاعى بقوله : «رأيت كثيرا ممن لم ترسخ فى المعارف قدمه وليس له من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه»[1] . ومنذ السطور الأولى فى سفر «التراتيب» يسجل الشيخ هذا الإهمال وسببه : «فإن الذين اعتنوا بتدوين المدنية العربية لخلفاء المملكة الإسلامية ، أهملوا ما كان من ذلك على عهد رسول الله ﷺ» . وما ذاك إلا لأن الذين يتعاطون السير شاب تناولهم قصور مخل وقراءات قاصرة وأهواء مضلة فلم يحيطوا علما بما كتبوا وغاب عنهم ما بلغته المدنية النبوية ، وندّت عن أبصارهم هذه الوظائف والإدارات والعمالات .

لقد سن ﷺ من القوانين والنظم ما يأمن معه كل ذى حق على حقه ويدفع التعدى من الأشرار وذوى الأطماع على أحد من الأمة أو أهل الذمة ، ومن أحكام الزوجية ، ومن أحكام المعاملات ، وسن العقوبات ، واهتم بالتعليم ، واستصلاح الأراضى ، وبناء المساجد ، ونظم الجيوش ، وقرر أصول الحقوق الدولية والمعاهدات والجوار وشئون القضاء ،

(*) من رجال التعليم .

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٤٢ نقلا عن الخزاعى .

ثم أسند هذه العمالات والوظائف إلى الأكفاء من الصحابة حتى قال البعض : «لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه فى إثبات نبوته»[١] .

شىء آخر أثقل صدره بالهموم ، وهو هذا النكران والجحود الذى تعرّض له شيخه الخزاعى ، وخلو أكثر الدواوين من التعريف به ، وجهل جملة أهل العصر به ، فيقول : «ولولا تفكرى فى أمر أبى الحسن الخزاعى وأن ما أحياه من مآثر السلف وإن قضى عليه الزمن الأخير بالنكران لكنت قد أضربت عن هذا العمل ونبذته . ولكن «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين»[٢] .

لكن عزيمة الشيخ وإخلاصه ، وإحاطته بعظمة الحضارة فى عصر النبوة ، ثم حاجة هذه الحضارة إلى من يجلو عظمتها اقتناء للأجر الجميل واجتناء للشكر الجزيل جعله يتصدى لهذه المهمة .

وهو فى تأسيه بالشيخ الخزاعى ونسجه على منواله يبادر بالقول : «ولم أقلد أبا الحسن فى عزوه» .

وتدعيمًا لابتكاراته وإضافاته واستدراكاته ، وحفظا لجهده واجَه قولاً رائجا فى علاقة اللاحق بالسابق فى مسيرة العلوم والفنون والآداب : «ما ترك الأول للآخر شيئًا» أو ما قاله الشاعر الجاهلى :

ما أرانا نقول إلا مُعادًا أو مُعارًا من قولنا مكرورًا

قاعدة ظالمة تصادر وتثبط العزائم ، وتدعو إلى الجمود والتوقف . ولذلك فقد وقف عندها الشيخ الكتانى طويلاً مناقشًا ، ومستأنسًا بقول الجاحظ : «ما على الناس شىء أضر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئا» . والأوقع من هذه الكلمة قول الإمام على كرم الله وجهه : «قيمة كل امرئ ما يحسن» وما قاله أبو الحسن المسعودى[٣] : «قد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر ، وربما كان الأخير أحسن تأليفا وأمتن تصنيفا» .

ومن هنا كانت العلوم نامية غير متناهية ، لكن الناس درجت على إطراء المتقدمين ، ومدح الماضين ، وتعظيم السالفين ، حتى ولو كان فى كتب المحْدَثين ما هو أعظم فائدة .

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٣) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين البغدادى . المؤرخ (ـ ٣٤٥هـ) صاحب «مروج الذهب» . كان معتزليا .

وهذا الجاحظ على جلالة قدره يحكى عن نفسه فيقول : «كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى إليه ولا الإرادات تبتسم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله ابن المقفع[١] أو سهل بن هارون[٢] أو غيرهما من المتقدمين فيقبلون على كتبهم ويسارعون إلى نسخها[٣]» .

وكأن الشيخ يتنبأ بالتجاهل والإغضاء الذى أصابه فيشترك مع ابن حزم[٤] فى أساه وهو يردد : «أزهد الناس فى العالِم أهله فلا كرامة لنبى فى وطنه وكيف لقى رسول الله ﷺ ما لقى من قومه وعشيرته .

وإذا كان هذا فى زمن رواج العلوم ورقيها ورجحان أهلها «فكيف بزماننا هذا زمن التأخر والانحطاط وغلبة الأغراض السافلة والتشبث بأذيال الناقصين والتقليد الأعمى لكل مستهجن؟»[٥] .

أراد الشيخ الكتانى أن يستدرك التقصير المشمول بفقر المصادر وفطير القراءات والغفلة عما ازدان به عصر النبوة تألقا وأريجا مع ما يحيط بدولته من شمال وشرق حيث دولة الروم ودولة الفرس وما بينهما من حروب ومؤامرات ودسائس وفتن وإغراق فى الملذات والترف . دع عنك العرب وما كانوا عليه من هوان .

وسط هذا الظلام الدامس أضاءت شمس النبوة المحمدية وما هى إلا مدة يسيرة حتى عمت أرجاء الأرض .

ثم إحساس الشيخ بمسئوليته أمام الآتين بعد فهو يقول لهم :

«إليكم معشر الآتين أسوق هذه المجموعة النفيسة التى هى كمرآة مكبرة تتجلى لكم منها الحالة الاجتماعية والسياسية والحربية والعلمية الأخلاقية والعائلية التي كان فى عصر النبوة[٦]» .

---

(١) عبدالله بن المقفع (-١٤٣هـ) إمام طبقة الكتاب فى العصر العباسى كان مجوسيا ثم أسلم . اختص بالمنصور أبى جعفر فكتب له حتى قتل وهو في مقتبل العمر ، من أشهر أعماله : الأدب الصغير ، كليلة ودمنة .

(٢) سهل بن هارون (-٢١٥هـ) كاتب بليغ من واضعى القصص ، اتصل بخدمة هارون الرشيد وولده المأمون وكان شعوبيا متعصبا للعجم ، له كتاب على نسق كليلة ودمنة . الأعلام ٣/٢١٠ .

(٣) مقدمة التراتيب .

(٤) ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد (-٤٥٦هـ) عالم الأندلس فى عصره وأحد الأئمة الكبار ، كان من صدور الباحثين ، وكان شديد النقد للفقهاء والعلماء مما كان سببا فى إجماعهم على بغضه فطاردوه وحذروا منه ، وهو إمام المذهب الظاهرى ومن كتبه المحلى ، الفصل ، الإحكام . الأعلام ٥/٥٩ .

(٥) مقدمة التراتيب ٧٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

وقد تجرد الشيخ لهذه المهمة وفاءً لحق هذا العصر . وعُنى بتراجم الوظائف والدواوين والنظم وعدّ هذا الهدف من الواجبات حتى تكون هذه الفترة النبوية منوالاً تنسج عليه الأمة ، وحافزًا يبعث فيها أسباب النهوض لاسترجاع ما فات ، وصونًا لاستقلالها ، وليعلموا شرف الرسالة المحمدية .

هذا عن بواعث التأليف فماذا عن المصادر؟

يعجب المرء لهذا الفيض الموسوعى للمصادر والمراجع التى استقى الشيخ منها مادة كتابه والتى تغطى جميع فروع المعرفة : لغوية وأدبية ، وفقهية ، وتاريخية ، وعلم الحديث . وطبقات الرجال والأنساب وأخبار الدول . وكتب التفسير ، والأصول ، والتصوف ، وكتب السياسة والرحلات وأسامى الفنون ، والمعاجم والمسانيد وتاريخ المدن وكتب الأحكام ، والشروح والذيول والاستدراكات . قراءة واعية ناقدة ينسب كل قول لقائله وكل شاهد لمصدره بين التقريظ والتفنيد . يبدأ حديثه عن المصادر فيقول : «ولما كان لكل شىء مادة . فمادة كتابنا هذا من الوجهة الحديثية : الكتب الستة التى هى معصم الإسلام وساعده . وشروحها . . . »إلخ[١] . حيث تتجاوز الكتب فى هذا الفن فقط ثمانين مؤلفًا وعلى هذا النسق أخذ فى سرد بقية العلوم : سيرة وتراجم وأنسابا . . . إلخ . ولقد احتلت أسماء الكتب من المقدمة اثنتى عشرة صفحة بالبنط الصغير ، غير ما جاء فى ثنايا الكتاب بعد ذلك .

قصة كتاب الخزاعى معه . وكيف ترسم خطاه؟ وأين عثر عليه؟

يقول الشيخ عبد الحى الكتانى :

«ومن أعظم ما اعتمدته وسايرته كتاب التخريج وإن كنت لم أقف عليه كاملاً . فإنى على ترتيب ما وقفت عليه منه اعتمدت ، وعليه أضعاف فصوله وأصوله ونقوله زدت واستدركت ، كما فعل ابن حجر[٢] فى «الإصابة» فيما زاده على الذين دونوا قبله . . أو كما وقع لابن الطلاع الأندلسى[٣] مع ابن أبى شيبة[٤] . وقد كنتُ شديد التطلب لهذا

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٢١ .

(٢) ابن حجر . الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى (ـ ٨٥٢هـ) نشأ يتيم الأبوين . حاز من العلوم واجتمع له من شيوخ العصر ما لم يجتمع لغيره . وتفرد فى علم الحديث وقصر نفسه عليه وزادت تصانيفه فيه على مائة وخمسين مصنفًا . من أهم مؤلفاته : فتح البارى ، الإصابة . لسان الميزان .

(٣) ابن الطلاع : محمد بن الفرج القرطبى المالكى ، أبو عبد الله بن الطلاع : مفتى الأندلس ومحدثها فى عصره (-٤٩٧هـ) . له مصنف بعنوان ، أقضية رسول الله ﷺ ، وسبب تأليفه ، هو أنه عثر على كتاب صغير لابن أبى شيبة بهذا العنوان فرأى أن ينسج على منواله تبركا ومحبة ، ولذلك يشير الكتانى إلى أن صنيعه مع الخزاعى كصنيع ابن الطلاع مع ابن أبى شيبة .

(٤) ابن أبى شيبة : عبد الله بن محمد (-٢٣٥هـ) صاحب المسند والمصنف . راجع الأعلام ٤١٩/٧ ، ٢٦٠/٤ .

الكتاب والبحث عنه من أقصى وادى نون إلى بلاد العريش حتى ظفرت به فى مكتبة تونس الزاهرة فى رحلتى إليها سنة ١٣٣٩هـ فأخرجته بقصد الاستنساخ ولكن لم أجد اسم المؤلف على ظهر هذه النسخة»[١] . وهى النسخة التى ظفر بها بمكتبة جامع الزيتونة ومنها استخرج النسخة التى بين يديه . وهى ناقصة القسم العاشر . على أنه أشار إلى نسخ أخرى سمع بها ولم يرها : واحدة بمكناسة وأخرى بفاس وثالثة بباريس . كما أشار إلى تلخيص الشيخ رفاعة الطهطاوى لكتاب التخريجات ، وذلك فى مؤلفه المسمى : «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز»[٢] .

ولما ظفر بمنيته بالعثور على هذا الكتاب الفريد فى بابه صحبه ليالى وأيامًا «يميز أبوابه ويشير على رءوس الكلام وأصوله ، ويصحح أخطاء ناسخه الذى وجده لم يعتبره ولا عرف له قيمة ، ولا فهم أنه عند عشاق الآثار الإسلامية من أكبر الكتب»[٣] .

ثم بدا له أن ينسج على منواله فأنشأ سفره ذاك المسمى بالتراتيب الإدارية ، وانقطع له أربعة أشهر أو تزيد ، وأضاف إليه الممتع والنافع بعد أن قرأ العديد من المراجع والمصادر مما أشرنا إليه ، ثم صاغ ذلك كما يقول : «على أنى قد عملت على الكتابة فى هذا الموضوع بلسان يناسب العصر ، وقلم يرمى إلى إيثار الاختصار الواضح ، والاقتصار على الأفيد والأرجح من غير إخلال أو خروج على الموضوع»[٤] .

والنسخة التى بين يدىّ من كتاب «التراتيب الإدارية» هى من نشر دار الكتاب العربى ببيروت بدون تاريخ . وتتكون من مجلدين :

المجلد الأول يحتوى على :

١ - مقدمة شارحة مستفيضة ذكر خلالها البواعث والأهداف والمصادر ، والتقاءه بكتاب الخزاعى والتعريف به ، وعرض لبرنامج الكتابين : كتاب الخزاعى وكتابه . وتحتل هذه المقدمة ثمانين صفحة .

٢ - الجزء الأول من الكتاب ويضم ، الأقسام الثمانية الأولى ، وينتهى بهذا التنويه : «تم الجزء الأول من كتاب التراتيب الإدارية» .

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٣٣ .
(٢) السابق ، ص ٤٢ .
(٣) السابق ، ص ٣٣ .
(٤) السابق .

ويستغرق هذا الجزء ٤٨٠ صفحة .

المجلد الثانى :

١ - بدأه باستدراكات ومقدمات لم يعرض لها الخزاعى استغرقت أربعا وعشرين صفحة .

٢ - القسم التاسع عند الخزاعى مع الاستدراكات والإضافات ويشغل ١٤٤ صفحة .

٣ - القسم العاشر وبه موضوعات جديدة لا علاقة لها بالقسم العاشر عند الخزاعى ، ويبلغ حوالى ثلاثمائة صفحة .

٤ - تقريظ وتنويه نشرته إحدى الجرائد .

٥ - فهرسة الكتاب .

وعدد صفحات هذا المجلد ٥٠٠ صفحة . وإذن فصفحات الكتاب تجاوزت الألف بستين صفحة ، وبلغت أبوابه ستة وأربعين وأربعمائة .

وتتمثل المعالم البارزة فى بناء الحكومة النبوية عند الشيخين فى الآتى :

أولا : وحدة الأمة وتماسكها ووضع النظم والقوانين اللازمة لذلك ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن البيعة والمعاهدة .

ثانيا : الوظائف والعمالات والدواوين اللازمة لهذا البناء المعمارى :

١ - ما يلزم صاحب السلطة من الحجابة والحراسة والحاشية والوزارة ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الكتانى فى مقدمة كتابه حيث قال :

«بحيث يجد المتتبع أن وظائف حاشية الملك الخاصة بشخصه - أى شخص رسول الله ﷺ - من صاحب الوضوء والفراش والحارس والحاجب كانت موجودة عند النبى ﷺ . ولعلَّ عن ذلك العهد أخذها ملوك الإسلام»[1] .

٢ - الجهاز المالى وما يستتبعه من نشاط اقتصادى من زراعة وتجارة وصناعة وبقية الحرف . وموارد الدولة من زكاة وخراج وغنائم وجزية ، ثم النفقات وتعيين المصدقين أو العاملين على جمع الزكاة ، مع ملاحظة أن الزكاة تغطى كل صنوف الأموال من زراعة وتجارة ونقد وماشية وركاز ، وأن تنظيم الأسواق وتطهيرها من الغش والغبن والتطفيف والربا

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٩ .

جزء من عمل المحتسب ، وأن ما يرد من أموال ينفق على أهل القرية أو القبيلة نفسها من الفقراء .

٣ - الجهاز القضائى : وما يستتبعه من ديوان المظالم ، وتعيين الشهود ، وشروط القاضى ، وأدب القضاء وإصدار الأحكام ونفقات القضاء .

٤ - الجهاز الأمنى : اتخاذ الحرس ، ومراقبة الأسواق ، ومنع المحرمات ، وتنفيذ الأحكام من عقوبات وحدود وقصاص وسجن .

٥ - ديوان الرسائل والمعاهدات والترجمة وعقود الصلح .

٦ - تعيين الولاة على الإمارات والنواحى .

٧ - التعليم .

٨ - الأوقاف فى شئون المساجد والمواريث وأمراء الحج .

٩ - الدفاع أو الجهاد وتعيين القادة (أمراء الجيش) ومن يستخلف رئيس الدولة ، وتقسيم الجيش إلى أخماس ، والأسلحة ، وتدريب الجنود على الفروسية والرمى وصناعة الأسلحة وحفر الخنادق ، ورعاية أسر الجنود .

١٠ ـ الطب وأنواع الأدوية والحَجْر ، ومسئولية الطبيب الجنائية إذا أخطأ ، وتعيين الممرضات . وهناك إلى جانب ذلك الرعاية الاجتماعية واستقبال الوفود والاهتمام بالتدريبات الرياضية كالسباق والسباحة والمبارزة والرمى .

وكل ما سبق كان موجوداً فى العهد النبوى وإن اختلفت الأسماء أو جاء بصورة مبسطة . فإذا قلنا مثلا : القضاء ، فليس معنى ذلك أن هناك درجات للتقاضى من ابتداء إلى استئناف إلى نقض . . . إلخ . . أو أن هناك أنواعًا للمحاكم من مدنية إلى تجارية إلى عسكرية ، لكن أصول التقاضى فى إقامة الدعوى متحققة عدالة وشهودا وبيِّنة . . . إلخ .

المقارنة بين الشيخين والعملين :

أولا : أبو الحسن الخزاعى وكتابه التخريجات :

١ ـ من علماء القرن الثامن .

٢ ـ فاسى الموطن تلمسانى المولد .

٣ ـ ذو ثقافة واسعة وقراءة مديدة بين الفقه والحديث والأدب واللغة . . . إلخ .

٤ ـ من أسرة علمية نابهة .

٥ ـ شغل منصب القضاء وكان من كتاب ملوك بنى مرين .

٦ - كتابه «التخريجات» : مجلد واحد تبلغ صفحاته ٨٨٠ صفحة .

وليس للخزاعى فيما نعلم غير هذا المؤلف ، وقد أهدى مؤلفه كما أشرنا من قبل إلى أحد ملوك بنى مرين . وقد عرضنا له فيما سبق .

وقد تعرض للنكران وإهمال الحديث عنه . وإن كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م) قد عرض له فى السيرة النبوية التي سماها : «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» .

أقام الخزاعى كتابه على أقسام عشرة . وقد عرضنا له بالتفصيل فى الجزء الأول من هذه الدراسة

ثانيا : الشيخ أبو الإسعاد عبد الحى الكتانى .

١ ـ من علماء القرن الرابع عشر الهجرى .

٢ ـ من حيث الثقافة : أضاف إلى القراءة الرحلات العلمية وزيارة المكتبات ومشافهة العلماء مع تفوق فى المصادر التى قرأها . وقد هيأ له التأخر الزمنى ووفرة المكتبات أن يقرأ ما لم يقرأه الخزاعى .

ومن حيث التأليف :

أ ـ الخزاعى لم نسمع أن له مؤلفاً آخر غير «التخريج» بينما ترك الكتانى مؤلفات أخرى أشرنا إليها .

ب ـ مصنف الكتانى أكبر حجماً وأغزر مادة وأكثر استقصاء . ويكفى أن نقارن بين مقدمة الخزاعى وهى لا تتجاوز ثلاث عشرة صفحة ومقدمة الكتانى وقد اقتربت من الثمانين صفحة تكفى وحدها كتابًا مستقلاً .

جـ ـ الخزاعى جعل إهداء كتابه إلى أحد ملوك بنى مرين . بينما أهدى الكتانى مؤلفه إلى (روح شيخنا الأستاذ الوالد رحمه الله تعالى) .

د ـ بنى الخزاعى كتابه على أقسام عشرة وتحتها أبواب أشرنا إلى عددها . وكذلك فعل الكتانى إلا أن الجزء العاشر عند الخزاعى لم يكن موجوداً فى النسخة التى كانت عند الكتانى فاستبدل بهذا الجزء قسمًا عاشرًا زاد به على ما عند الخزاعى . وسنشير إليه فيما بعد . ولذلك جاء برنامج الكتابين واحدًا . وبعد كل باب يقول الكتانى باعتباره مستدركًا على الخزاعى بعد أن يذكر أبواب سلفه : « فذكرت هذه الأبواب مهذبة مختصرة عزوا وسياقا ، واستدركت خلال تراجمه» . ولنختر أقل البرامج مثالاً وهو القسم الأول .

يقول الشيخ الكتانى فى طُلَعة الأقسام :

القسم الأول فى الخلافة والوزارة وما يضاف إلى ذلك من الخدمات النبوية الشخصية وهى عند الخزاعى سبعة أبواب :

١ - فى ذكر خليفة رسول الله .

٢ - باب فى الوزير

٣ - فى صاحب السر

٤ - باب فى الآذن وهو الحاجب والبواب

٥ - باب فى الخادم

٦ - باب فى صاحب الوساد

٧ - باب فى صاحب النعلين

ثم يقول الكتانى : ذكرت هذه الأبواب مهذبة محررة عزوا وسياقًا واختصارا ، ومما زدت عليه فى هذا القسم خلال أبوابه :

١ - باب فى ذكر الفرق بين الخليفة والسلطان والملك من حيث الشرع والاصطلاح .

٢ - باب فى ذكر حبس بعض الوافدين عن الإذن .

٣ - باب فى ذكر من خدم المصطفى من الأحرار .

٤ - باب فى ذكر من كان يخدمه عليه السلام من الموالى ذكوراً وإناثًا .

٥ - باب فى ذكر من كان يوقظه عليه السلام إذا نام ويستره إذا اغتسل .

٦ - باب فى ذكر من كان يبيت على باب رسول الله ﷺ من الرجال[1] .

ولو أننا قارنًا بين الشيخين فى أول باب وهو ذكر خليفة رسول الله ﷺ لوجدنا الشيخ أبا الحسن الخزاعى قد شُغِل بشخصية أبى بكر رضي الله عنه : اسمه ولقبه وكنيته ومبايعته مبايعة عامة وخاصة ، والحجج التى قامت عليها خلافته ، ونبذة من أخباره ومناقبه ، ثم وفاته ومدة خلافته . تتخلل الأبواب شروح وفوائد لغوية ، ثم يختم بحديثه عن معنى الخلافة وأول خليفة ومعنى أمير وأول أمير . . . إلخ .

أما أبو الإسعاد الكتانى فقد بدأ من حيث انتهى سلفه فلم يَعْرِض لشىء من هذا وإنما دخل فى معنى الخلافة والإمارة بتوسع وإضفاء سياسى على المنصب مما لم ينتبه له

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٥٠ .

الشيخ الخزاعى . ثم أضاف تفصيلا ممتعا عن الفروق بين الخليفة والملك والسلطان مما لم يذكره الخزاعى ، إذن فالكتانى لم ينقل كل ما قاله الخزاعى وإنما اختار جانبًا عمَّقه ثم أضاف إليه واستدعى الكثير من الأعلام ومقالاتهم للاستشهاد ، ولم يَشْغَل نفسه بالوقوف عند اللغويات كما فعل الخزاعى .

ويمكن تطبيق ذلك على بقية الأقسام .

وهاك عرضاً لموضوعات التراتيب باعتباره الأوقع والأدلّ والأجلَى على عنوان كتابه وهو «الحكومة النبوية» :

القسم الأول : أشرنا إليه وهو يتعلق بالخلافة والوزراء .

القسم الثانى : فى العمليات الفقهية وأعمال العبادات من عمالات المسجد وإمارة الحج ومعلم القرآن والفقه ، وكذا المبعوثون إلى الآفاق والجهات لهذا الغرض ، والمعلمون من الرجال والمعلمات من النساء ، ودار القراء (المدارس) ، ومن تصدَّر للفتوى ، والإمام فى الصلاة ، والإمام فى رمضان ، وأول أمير للحج ، واتخاذ المنبر ، والمؤذنون ، وإضاءة المساجد وتنظيفها وتجميرها ومنع التشويش بها ، والحزم فى استدعاء المصلين إلى المساجد وعمارات البيت الحرام وسدانته .

القسم الثالث : العمليات الكتابية : وفيه : كُتاب الوحى ، كتاب السر ، كتاب الرسائل والإقطاع ، الكتابة للبوادى ، العهود والصلح ، كُتاب فى الأمور الخاصة برسول الله ﷺ ، أدوات الكتابة ترتيب الكتاب من افتتاحية وموضوع وخاتمة وكيفية مخاطبته ﷺ للملوك وكيف كان ﷺ يفتتح كتبه ، ونصوص محفوظة من كتبه ﷺ ، وآخر كتاب له ، ﷺ وأطول كتاب محفوظ لرسول الله ﷺ ، وهل كتب ﷺ بيده الشريفة شيئا؟ ، خاتمه الشريف ونقشه ومن أى مادة ، واستخدامه ومن كان يحمل الخاتم ، وضع التاريخ وتصحيح أن أول من أرخ رسول الله ﷺ وليس عمر . باب فى السفير (الرسول) وحسن اختياره ﷺ لسفرائه ، ووصيته لهم اتخاذ البريد وأصل الكلمة وكيف أنها اسم للمسافة بين محطتين ثم أطلقت على حامل البريد ، سفراؤه ﷺ للصلح وللدعوة إلى الإسلام وبالأمان ، وللملوك فى أمور أخرى . الرسول ﷺ يبعث سفيره بهديه . وجائزته لسفير غيره ، زيد بن ثابت المترجم لرسول الله ﷺ ، كتب اليهود ، شعراء رسول الله ﷺ واستماعه للشعر وتكرمته ﷺ لسبْى سُبى له بسبب أبيات من الشعر ، ومن كان خطيب رسول الله ﷺ ، فصل فى كتاب الجيشِ ، فى البيعة ومعناها المعاهدة والمعاقدة ، فصل فى ثبوت العطاء فى عهد رسول الله

ﷺ ، فصل فى الديوان ومعناه وأول من دون الدواوين ، وما يدل على أن التدوين وقع أيام الرسول ﷺ قبل عمر ، والسن التى يجاز عندها التسجيل فى ديوان الجيش ، وكيف رد الرسول ﷺ من لم يستأذن أبويه ، تعيين القادة ورؤساء الجيش والنقباء والمحاسب ، الوصاية .

القسم الرابع : فيما يتعلق بالعمليات الأحكامية : ومنها :

الإمارة على النواحى ، والولاة الذين ولاهم رسول الله ﷺ على البلاد ، والقضاء والحج والصدقات ووصاياه ﷺ لعماله . قضاء رسول الله ﷺ وكيف أن له حكم الباطن والظاهر وجُمع له بين الشريعة والحقيقة والأقضية التى قضى فيها ﷺ[١] ، وشروط القاضى ، ومن كان يقضى أيام رسول الله ﷺ وهل كان للقضاة والولاة رواتب ، والنظر فى المظالم من أيام النبوة[٢] ، وأين كان يجلس القاضى للفصل والحكم ، ومن أول من اتخذ داراً للقضاء . باب فى الشهادة وكتابة الشروط وشهادة الصبيان (وصورة عقد من عقود ذلك العصر الطاهر)[٣] ، ومن كان يكتب العقود والمعاملات ومن كان يكتب بين الناس فى قبائلهم زمن النبوة ، ومن كان فارض المواريث والوكيل فى غير الأمور المالية ، إرسال الخبير فى حرفة ما ليحكم بين المتنازعين[٤] ، معرفته ﷺ بأمور الهندسة والبناء وإصلاح الطرق . باب فى المحتسب والقسام وفيمن ولاه رسول الله ﷺ أمر السوق . فصل فى إرسال رسول الله ﷺ من ينادى فى الناس : من ضيَّق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له . فصل فى صاحب العسس ومن ولى ذلك أيام الرسول ﷺ . السجن أيام الرسول ﷺ للرجال والنساء . إطعام المساكين وكسوتهم[٥] ، وسائل التأديب بالضرب أو بالنفى أو بالهجران أو بالتعبيس منه ﷺ لأصحابه ، هل قتل ﷺ أحدًا بيده متى أمر بالتحريق للبناء وهدمه ، تنفيذ حد الحرابة ومن كان يقيم الحدود ومن كان يُجعل على الأسرى .

القسم الخامس : العمليات الحربية وما يتصل بها :

الإمارة على الجهاد وكم غزوة غزاها ﷺ . وما هى أشرف الغزوات عند الله وعند رسوله ﷺ ؟ . عدد بعوثه وسراياه ومن عينهم من أمراء الجند ومن كان يستخلف ، وصاحب

---

(١) التراتيب : ٢٥٠/١ .
(٢) السابق : ٢٦٦/١ .
(٣) السابق : ٢٧٤/١ .
(٤) السابق : ٢٨٠/١ .
(٥) السابق : ٣٠٠٠/١ .

اللواء ، وأول لواء رفع بين يديه ﷺ ، عقد الألوية لأمراء البعوث وانفراد كل قبيلة برايتها ، وأصل رسم الهلال وألوان راياته ﷺ واسم رايته ومم كانت تتخذ الرايات؟ وتقسيم الجيش إلى خمسة ، ومن أمير الرماة ، واتخاذ الشعار فى الحرب ، وتنظيمه ﷺ للجيش واتخاذ الخيل والمسابقة عليها . فصل فى خيله وإبله وبغلته ، ومن كان حرسه بالمدينة وحراس عسكره والمتجسس ، واتخاذ العين للتعرف لا للتجسس ، استخدام المخذل فى الحرب والنمام ، استعمال السفن الحربية وصانع المنجنيق والدبابات والخندق ، والمغانم ، والتهنئة بالنصر ، وماذا يقول ﷺ إذا رجع من سفره؟ .

كيف كان حال كفار جزيرة العرب معه ﷺ[١] ومعاملته معهم .

القسم السادس : العمليات الجبائية :

فُتح على رسول الله ﷺ فى حياته بلادُ الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق . وجُبى إليه من أخماسها وجزيتها ما لا يُجبى للملوك إلا بعضُه . وهادنه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشىء منه ولامسك منه درهمًا ، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين[٢] . ومن أبواب هذا القسم : الجزية ـ الأعشار ـ الخراج ـ الزكاة ـ من يكتب الصدقات . الخارص ـ الوقف المستوفِى ـ زكاة رمضان .

القسم السابع : فى العمليات الاختزانية :

خازن الطعام . الكيال . الدرهم واستعماله ، وهل كان موجوداً أيام النبوة؟ أسماء الأكيال التى كانت مستعمله فى عهده ﷺ . باب فى اتخاذ الإبل والغنم ووسم الحيوان والحمى بحميه الإمام .

القسم الثامن : فى سائر العمالات ومنها :

المشرف على نفقات رسول الله ﷺ ، الوكيل فى الأمور المالية ، إنزال الوفد فى دار الضيفان ، نزول وفد ثقيف فى قبة ضربت لهم بالمسجد ، ومن كان يلى أمر الوفود فى زمنه ﷺ ، جوائزه للوفود ، تجمله ﷺ للوفود ، الفنادق لنزول المسافرين ، دار المرضى وقيام الصحابيات بخدمة المرضى . الطبيب وجواز الاستعانة بأهل الذمة على خلاف فى ذلك ، والتطبيب بالكى وقطع العروق وأن من لايعرف الطب لايباح له أن يعالج الناس . باب فى

---

(١) التراتيب : ٣٨٤/١ .

(٢) السابق : ٣٩١/١ .

الحجر الصحى ، النسوة الممرضات ، الحكيم المنجم القافى ، الصُّفَّة وأنها أصل لاتخاذ الزوايا للفقراء والمنقطعين . وآخر الجزء الأول : كان النبى ﷺ يسمر مع أبى بكر فى الأمر من أمور المسلمين .

القسم التاسع فى ذكر حرف وصناعات كانت فى عهد رسول الله ﷺ وذكر من عملها من الصحابة رضوان الله عليهم زيادة على ما تقدم . وقد قدَّم لهذا القسم بمقدمات تسع ذكر فيها مشروعية التصرفات المالية والكسبية قدوةً برسول الله ﷺ ، فقد باع ﷺ واشترى ، وأجر واستأجر ، ووكل وتوكل ، وأهدى وأُهدي إليه ، ووهب واستوهب ، واستدان واستعار ، وضمن وشفع ووقف ، وحلف واستحلف ، وكفَّر يمينا وأمضى أخرى ، ومازح وورَّى ولم يقل إلا حقاً فكان ﷺ القدوة والأسوة . فالكسب والضرب فى الأرض والمشى فى الأسواق والزراعة والتجارة والاحتراف مشروع ومطلوب . وإذا كان المشرع قد ذم الزراعة فى حديث يشير إلى أن الذل فى أذناب البقر[1] فذلك إذا شَغَلَتْ عن الغزو فأطمعت العدو على الهجوم ، فأما إذا جُمع إلى الزراعة الاستعداد والقوة فتلك هى السُّنَّة . وينبغى ألا تشغل الكاسب عن حق من حقوق الله ، وأن يتحرى الكاسب مواطن الحرام والشُّبهات كالربا والكهانة والسحت ومهور البغايا والرشوة والزمر والطبل فيتجنبها ، وألا تشغل عن الصلاة فى أول وقتها . وأما ما يتعلل به بعض الجهال من ترك التكسب بغلبة الحرام فليعلموا أن هذا الزمان قلَّ أن يوجد فيه الحلال صافيا ، فليكتسب السالك ما يحفظ به حياته متحريا الحلال حتى لايموت جوعا . قال بعض الظرفاء :

يقول لى الجهول بغير علم ... دع المال الحرام وكن قنوعا
فلما لم أجد مالا حلالا ... ولم آكل حراما مِتُّ جوعا

فعليه أن يراعى درجات الحرام والشبهة .

ثم استعرض الشيخ الكتانى الحرف والصناعات التى كانت موجودة فى عصر النبوة سواء أكانت صناعات حربية أو مدنية وسواء أكانت للرجال أو للنساء . وسواء أكانت مباحة أو مختلفًا عليها .

وأول حرفة تكلم عنها وعن الصحابة الذين تعاطوها : حرفة التجارة باعتبارها أكثر الحرف سيرورة ، وساق خلال حديثه الكثير من الطرف والعظات والنوادر .

(١) عن ابن عمر قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد . سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم . أبو داود ٣/٧١٠ كتاب البيوع .

وقد أربت أنواع الحرف والصناعات التى ذكرها على الخمسين إذا أدخلنا أنواع التجار أعداداً : العطار . البزاز . بائع الرماح . بائع الطعام ، فهؤلاء وأمثالهم مندرجون تحت «التجار» . ومن طرائفه ذكر أصل تسمية البيع والشراء : تجارة .

ومن الحرف التى ذكرها : الوزّان ، الصرّاف ، الحطاب . الدلاّل (السمسار) ، الدباغ ، النساج ، النجار ، الخياط ، الصوّاغ ، النقاش ، المصور ، الحدّاد ، البنّاء . الصبّاغ ، العوام ، الصياد ، الجزار ، الحلاق ، السقاء ، الطباخ . . . إلخ .

ومن حرف النساء : الماشطة ، والتى تحرش بين النساء ، والتى تذهب لجس نبض الرجل هل له بزواج فلانة؟ ، والممرضات والتاجرات ، والقابلة ، والخافضة (الخاتنة) والمرضعة ، والغازلة ، والمرأة تمثل النساء فى المجلس النبوى ، والمغنى والمغنية فى المدينة فى العهد النبوى (وقد فصّل هنا وصفاً وتنويعاً وفقهًا تفصيلا مستقصيًا) ، واتخاذ التماثيل للبنات الصغار ، ورقص الحبشة فى المسجد النبوى ، والمصارعة وحرف أخرى .

ويلاحظ أن للشيخ متابعات فقهيةً كلما اقتضى الأمر كما حدث عند ذكره الغناء والمغنين ، أو اللهو واللعب المأذون فيه ، أو جواز التعامل مع غير المسلمين عند ذكره لحرفة الصاغة . كما أنه كان يستقصى الموضوع كما فعل عند حرفة البناء فقد استطرد فى حديثه فذكر بناء المسجد النبوى والمساكن النبوية وهدم مسجد الضرار .

القسم العاشر : انفرد الشيخ الكتانى عن سلفه بهذا الباب وسبب ذلك أن النسخة التى وقعت فى يده سقط منها هذا القسم . ولكى يتساوى فى عدد الأقسام مع الشيخ الخزاعى أنشأ هذا القسم . ولذلك فهو يقول فى مقدمته : «قد عوضنا هذا القسم من كلام الخزاعى لخلوه من الفائدة بقسم آخر استدركناه عليه ، وهو من الأهمية بمكان وربما يضارع جل أجزاء المؤلف»(١) .

وموضوع هذا القسم : الحالة العلمية على عهده ﷺ . وقد أقامه على مقصدين .

المقصد الأول : تشخيص الحالة العلمية على عهده عليه السلام تعلمًا وتعليما وكتابة وأدواتها ونحو ذلك .

المقصد الثانى : تشخيص الحالة الاجتماعية من حيث ما حازه أصحاب النبى ﷺ من السبق فى أنواع النبوغ وسعة المدارك . .

---

(١) التراتيب : ١٦٨/٢ .

أبواب المقصد الأول ستة أبواب بعد المائة .
وأبواب المقصد الثانى واحد وسبعون بابًا .

وهذا القسم يصلح وحده كتابًا مستقلاً . . يأتى فى مفتتحه الحديث عن القرآنِ الكريم على أنه أوسع دائرة للمعارف تناولها البشر . ثم يردفه ببيان عن السُّنَّة المطهرة لارتباطهما معًا فيستغرق الحديث عنهما حوالى خمسين صفحة (١٦٨ ـ ٢١٧) يتجلى لنا فيها علم الشيخ وتبحره ورحلاته بين فنون الثقافة المختلفة . ومن الإجحاف تلخيص حديثه هذا ، فالهدف هو الإغراء والترغيب فى طلب هذا الكنز والانتفاع بفوائده .

ثم يوالى حديثه فى تشخيص الحالة العلمية على العهد النبوى فيتحدث عن تعليم النساء وحق الأبناء على الآباء فى التعليم . . والتدوين والترجمة . . وأول من تكلم فى التصوف والفتوى ، والسن الذى يبدأ فيه التعليم ، وعلم الأنساب ، وعلم الفرائض ، وعلم النجوم ، وعلم الحساب ، والرحلة فى طلب العلم ، وآداب طالب العلم . . . إلخ .

وفى المقصد الثانى نجد الشيخ يذكر مِن الصحابة مَنْ لحقت بهم صفات معينة كالعلم والعدل والهيبة والأمانة والسبق والحلم ، ومن كانت تستحى منهم الملائكة ، ومن كان أحفظهم ، ومن الذى انتهى إليه الجود ، ومن أفرضهم ، ومن كان يقرأ الكتب القديمة ، ومن كان يجيد لغات متعددة . . . إلخ . يقول الشيخ الكتانى : «وهذا يعرفك أن المدينة المنورة كانت فى الزمن الأول مأهولة بصنوف الأعمال واختلاف الأفكار والصفات والأشغال الحياتية التى لابد منها فى كل مصر اتخذ عاصمة لمدينة عظمى سادت على العالم فى أقرب وقت ، وما وصل إليه ذلك العصر الزاهر من الاختلاف فى الأحوال والاتفاق فى الآمال»[1] .

بعض آرائه الفقهية :

ولأن الشيخ أبا الإسعاد الكتانى مالكى المذهب شأن أبناء المغرب والأندلس ، فقد أشار إلى سبب انتشار المذهب هناك . فقد تمت البيعة للنفس الزكية (٩٢ ـ ١٤٥هـ) لما وهنت الدولة الأموية . ويقال إن السفّاح والمنصور كانا ممن بايعاه ، فلما قامت الدولة العباسية ، وطارد العباسيون الشيعة وسُجن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) حتى مات بالسجن ، فرَّ أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى وأقام دولة الأدارسة هناك . فى

---

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٧٥ .

هذا الصراع السياسى كان الإمام مالك يرى أن الأسبقية فى البيعة إنما كانت للنفس الزكية وأن بنى العباس اغتصبوها فحفظها له إدريس هذا ، وأوصى باتباع مذهبه وقراءة «الموطأ»[١] .

وهذه بعض آرائه الفقهية :

أولاً ـ فى الطب :

(١) كان ﷺ يديم التطبب (العلاج) فى حال صحته ومرضه . أما فى حال صحته فباستعمال التدبير الحافظ لها ، من الرياضة وقلة الأكل ، وأكله الرطب بالقثاء ، وإكحال عينيه بالإثمد ، والإبراد بالصلاة فى الحر . وأما تداويه فى مرضه فكانت تقدم عليه وفود العرب وفيهم الأطباء[فيصفون له فنعالجه كما تقول السيدة عائشة] وأمر بالتداوى[٢] . «ولما مرض سعد بن أبى وقاص قال له ﷺ : ايت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب» . وكان الحارث طبيب العرب . وكان كافراً .

وهنا اختلف الفقهاء . قال ابن عبد البر «جائزٌ أن يُشاوَر أهل الكفر فى الطب إذا كانوا من أهله» . وقال آخرون : لا يجوز التطبب بأهل الذمة . وانتصر الشيخ للرأى الأول وساق الأدلة على الاطمئنان للخبير الأمين فى الطب والأدوية والمحاسبة . يقول ابن تيمية : «إذا كان اليهودى أو النصرانى خبيراً بالطب ثقة عدلا جاز كما يجوز أن تودعه المال»[٣] .

(٢) عن النساء الممرضات والطبيبات :

ذكر من الصحابيات الرُّبيّع بنت معوذ ورفَيدة الأسلمية وليلى الغفارية وغيرهن ، فكنَّ يخرجن فى الغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم يسقين الجرحى ويداوينهم . وبناءً على ذلك يجوز معالجة الأجنبية للرجل للضرورة ، بل ذكر أن ابن الزبير لما مرض بمكة استأجر عجوزاً لتمرضه فكانت تغمز رجله وتفلّى رأسه»[٤] .

(٣) الحجر الصحى : ذكر فيه قول رسول الله ﷺ : «إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها وإذا سمعتم به فى أرض فلا تقدموا عليها» . وأن عمر رضي الله عنه طبق الحديث حين وقع الطاعون بالشام سنة ١٨هـ تقريبا[٥] .

---

(١) التراتيب : ١/٩ .
(٢) السابق : ١/٤٥٥ .
(٣) السابق : ١/٤٦٠ .
(٤) السابق : ١/١١٥ .
(٥) السابق : ١/٤٦٦ .

(٤) من لايعرف الطب لايحل أن يعالج الناس : وذكر فيه الحديث الشريف «من تطبب ولم يُعَلم منه الطبُّ فهو ضامن»[١] .

وبعدُ : فهذا غيض من فيض كما يقولون ، ينبيك عن هذا العصر الزاهر بنور الحضارة والذى ظلمه الجهّال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[٢] وما نقلته عن الشيخ قطرة من بحر ، لا تغنى عن البحر نفسه فجزاه الله خيرا .

ثانيا : فى الغناء

(١) الحديث[٣] الشريف فى الصحيحين حين دخل أبو بكر ﷺ على السيدة عائشة وعندها جاريتان فى أيام منى يغنيان ويضربان الدف ، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله ﷺ رأسه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد . وفى بعض الطرق ، قال الصّديق : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ؟

تأمل فقه العلماء وتأويلهم لحكمة الصدّيق : رأى ﷺ أن هذا الغناء من جمل المباح . لكنّ منصب النبوة وتعظيم حضرته ﷺ وشدة الاحتشام منه حمله على التنويه ، فزجر عن ذلك احتراماً لا تحريمًا . وكان فى رد رسول الله ﷺ أمران :

أ : ألا يُعتَقَدَ تحريمُ ما أبيح فى شرعه توسعة لأمته ورفقاً بها وتفسحاً فى بعض الأوقات .

ب : إظهار الشارع مكارم الأخلاق ، وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح قلوبهم ببعض المباح فيكون أنشط لهم فى العون إلى وظائف العبادة»[٤] .

(٢) ومما جاء فى الصحيح : «ونكح بعضُ الأنصار بعض أهل عائشة . فقال لها رسول الله ﷺ : أهديت عروسك؟ قالت : نعم . قال ﷺ : فأرسلت معها بغناء؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[٥] .

---

(١) التراتيب : ٤٦٦/١ .

(٢) سورة يونس : ٣٩ .

(٣) فتح البارى ، كتاب العيدين ، باب الحراب والدرق يوم العيد جـ ٢ ص ٣٦٦ ، صحيح مسلم ، كتاب العيدين ، باب الرخصة فى اللعب . . جـ ٢ ص ٦٠٧ .

(٤) التراتيب : ١٢٦/٢ .

(٥) راجع صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٩٥ كتاب النكاح .

(٣) روى النسائى عن السائب بن يزيد أن امـرأة جـاءت إلى رسـول الله ﷺ فـقال : «يا عائشة تعرفين هذه ؟ قالت : لا يا نبى الله . قال : هذه قينة بنى فلان . تحبين أن تغنيك؟ فغنتها»[١] .

هذه بعض الأحاديث الشريفة من عشرات الآثار والأخبار وأسماء المصنفات التى ذكرها الشيخ فى هذا الباب . ويعجبنا هذا الملمح التربوى الذى التفت إليه . يقول الشيخ الكتانى : وفى هذا إشارة إلى أصل عظيم من أصول التمدن وهو أن تجعل الأمة الألعاب مشحونة بتربيات تمكن القلوب من حب الدين والوطن وترتوى بمكارم الأخلاق . وذلك تعليقا على رأى بعض المشايخ : «وهو أن اللهو الذى يرتكب لإظهار المسرة العيدية ينبغى ألا يكون خالياً عن نحو مصلحة شرعية حتى يخرج ذلك اللعب عن دائرة اللهو الباطل»[٢] .

ثالثا : من أحكام الحج :

هل يجوز الحج من مال الدولة (مال الله) زكاة وغيرها؟

قال مالك : بلغنى أن عمر بن الخطاب اتخذ إبلاً من مال الله يعطيها الناس يحجون عليها فإذا رجعوا ردوها إليه . قال ابن رشد : هذا من النظر الصحيح فى مال الله ، لأن أولى ما صُرف فيه مال الله ما يستعان به على أداء فرائض الله . فينبغى للأئمة أن يتأسوا به فى ذلك»[٣] .

مآخذ الشيخ الكتانى على سلفه الخزاعى وغيره :-

كانت موسوعة «التراتيب» مَعرِضاً فسيحاً للنقد والاعتراض على الخزاعى وغيره . وهذه لفتات منها تكشف عن وعى الإمام أبى الإسعاد وغيرته أحيانا وعتابه من لم ير رأيه :-

١ - انتقد ابن خلدون حيث يقول :

أ - « وقد وقعتْ لبعض الأعلام فلتات إن لم نقل : سقطات وهفوات ، حتى إن الولى ابن خلدون قال فى مقدمة «العبر» فى مواضع : إن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما هى أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال يتناقلونها فى صدورهم . . . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم

(١) طلبته عند النسائى فلم أجده وإنما الذى خرجه أحمد فى مسنده رقم ١٥٦٦٠ من مسند السائب وفيه : تحبين أن تغنيك؟ قالت : نعم . قال : فأعطاها طبقا فغنتها . فقال النبى ﷺ : قد نفخ الشيطان فى منخريها .

(٢) التراتيب : ١٢٥/٢ .

(٣) السابق : ٥٣٩/١ .

والتأليف والتدوين»[١] . فرد الشيخ الكتانى قائلا : «ولكن من واصل ليله بنهاره واطلع وطالع بالدقة وحسن الروية يجد أن المدنية وأسباب الرقى الحقيقى التى وصل إليها العصر النبوى الإسلامى فى عشر سنوات من حيث العلم والكتابة والتربية وقوة الجامعة وعظيم الاتحاد وتنشئة الناشئة ، وما قدر عليه رجال ذلك العهد وما أتوه من الأعمال وما استولوا عليه من الممالك وما بثوا من حسن الدعوة وبليغ الموعظة ،لم تبلغها أمة من الأمم ولا دولة من الدول فى مئات السنين» ثم قارن الكتانى بين الدولة الإسلامية الناشئة وبين دولتى الروم والفرس «اللتين سقطتا فى بؤر الفساد والتحلل والفتن»[٢] .

ب - وفى لفتة علمية صحح لابن خلدون ما ذكره من أن يوسف بن تاشفين (٤١٠ -٥٠٠هـ) سلطان المغرب الأقصى وصاحب الانتصارات على الفرنجة فى الأندلس أوفد على المستظهر العباسى أبى العباس أحمد بن عبد الله (٤٧٠ - ٥١٢هـ) الخليفة العباسى ، أوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربى وولده القاضى أبا بكر محمد بن عبد الله العربى (٤٦٨ - ٥٤٣هـ) فقال الشيخ الكتانى :

هذا الكلام «منقوض لأن ابن العربى ووالده ذهبا للمشرق فراراً من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد (٤٣١ - ٤٨٨هـ) بدليل أن عبد الله بقى بالمشرق متجولاً إلى أن مات هناك إجماعاً . وولده أبو بكر بقى بعده ورجع لبلده (أشبيلية) لا إلى مراكش . واعتقلتْ أحوالهما إلى أن رجع أبو بكر فتشفع فيه الحافظ أبو على الصدفى .»[٣] .

٢ - وانتقد ابنَ إياس محمد بن أحمد أبا البركات (٨٥٢ - ٩٣٠هـ) حين قال فى تاريخه : إن الخليفة المتوكل على الله (عبد العزيز بن يعقوب بن خلفاء الدولة العباسية بمصر ٨١٩ - ٩٠٣هـ) عهد للشيخ جلال الدين السيوطى (٨٤٦ - ٩١١هـ) بوظيفة لم يسْمَع بها قط ، فقد جعله على القضاة قاضيا كبيراً يولى من يشاء ويعزل من يشاء . . . إلخ .) .

فذكَّره بأن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم أشهر تلامذة أبى حنيفة ١١٣ - ١٨٢هـ) ولى القضاء لثلاثة خلفاء من بنى العباس : المهدى والهادى والرشيد ، وكان إليه تولية القضاء بالمشرق والمغرب ، وأنه أول من خوطب بقاضى القضاة . وكذلك قيل لابن أبى دُوَاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ) قاضى القضاة أيام المعتصم[٤] .

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ١١ .

(٢) السابق ، ص ١١ .

(٣) التراتيب : ١٣/١

(٤) السابق ٢٦٢/١ .

٣ ـ ونقده لشهاب الدين المرجانى (١٢٣٣ ـ ١٣٠٦) المؤرخ حين ذكر فى كتابه «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» أن ديوان المظالم كان يباشر المظالم فيها الخلفاء بأنفسهم إلى أيام المهتدى بالله ، وربما سلموها إلى قضاتهم . فرد عليه الشيخ قائلاً :

هذه الوظيفة كان يليها المصطفى ﷺ بنفسه لأنه كان ينتقد أحكام قضاته وعماله ويناقشهم . ولما تكلم النويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ـ ٧٣٣هـ) صاحب «نهاية الأرب» على ولاية المظالم قال : نظر رسول الله ﷺ فى المظالم فى السَّرَب الذى تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار فى شراج (جمع شَرج بالفتح وهو مسيل الماء من الحرَّة إلى السهل) . (وقد أشار القرطبى إلى هذه القصة عند قوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] فحضره رسول الله ﷺ[2] .

٤ ـ وفى نقده للقسطلانى أحمد بن محمد (٥٨١ ـ ٩٢٣) أثناء حديث الكتانى عن مصادره فى مقدمة «التراتيب» قال : والمواهب اللدنية للشهاب القسطلانى وهو كتاب جامع مسبوك تداولته الأيدى وخدمه الناس . ومن الغريب أننا نجد نصفه مأخوذاً من «فتح البارى» بعزو وغيره كما نبه على ذلك شارحه الزرقانى ، كما قال قبل ذلك : «إن المصنف اقتبس من الشفا (للقاضى عياض) فى غالب التقاسيم والأبواب حتى إنه اقتفى أثره فى صدر الخطبة[3] .

٥ – ومن نقده لسلفه أبى الحسن الخزاعى نكتفى أيضا بهذه النماذج :

(أ) «وقد زُيّن له رحمه الله التوسعُ فى المواد اللغوية . وتعمد كثيراً من الاستطرادات والمتشابهات ، ومهما وقع له ذكر صحابى إلا وبسط ترجمته ونسبه مقلداً صاحب «الاستيعاب» ، مستوعبًا ما عنده فى ذلك الصحابى»[4] .

(ب) ومع أن موضوع كتابه العمالات والصناعات التى وجدت فى زمانه ﷺ إلا أنه يأتى بذكر ما حدث بعده على عهد الخلفاء الراشدين . أقول : وقد أشرت إلى ذلك عند الخزاعى فيما سبق ، وقد حدث نفس الشىء مع الكتانى مع أنه نقد الخزاعى فى ذلك . ويمكن الرجوع إلى المظالم والمغنيين وغيرها عند الكتانى لنجد أنه استطرد أيضا فى هذا .

(١) سورة النساء : ٦٥ .
(٢) التراتيب : ٢٦٦/١ ، وراجع كذلك نيل الأوطار للشوكانى ٢٧٢/٨ كتاب الأقضية والأحكام .
(٣) مقدمة التراتيب ، ص ٢٣ .
(٤) السابق ، ص ٤٥ .

(جـ) كثير من التخاريج التى ذكرها إما تستند إلى ضعيف الأخبار أو متكلف الاستنتاج ويظهر أن الشيخ الخزاعى لم يكن عظيم المزاولة للصناعة الحديثية ، فلذلك تراه يُصَدِّر الأحاديث غالباً بلفظ «روى» وقد يستعمله حتى فى أحاديث الصحيحين مع أن «روى» إنما تستعمل فى الأحاديث الضعيفة كما ذكر أئمة التخريج[١] .

(د) «لاحظت عليه أنه يعزو الحديث لمسلم وهو فى البخارى . والقاعدة عندهم أنه لايقدم أحد على البخارى»[٢] .

وعاب عليه جدًا أنه حين ذكر حديث «تهادوا تحابوا» فى المقدمة وقف بتخريجه عند محمد بن سلامة القضاعى (-٤٥٤هـ) فى كتابه «الشهاب» فقال : « وهذا عجيبٌ صدورُه من مالكى مُحَدِّث . فأما مالكى فلأن الحديث فى الموطأ لإمامه مالك بن أنس : باب ما جاء فى المهاجرة . .الخ . وأما مُحَدِّث : فلأن البخارى خرَّجه فى الأدب المفرد . وأبا يعلى والنسائى فى الكنى . وابن عبد البر فى التمهيد بإسناد حسن . . . وحديث مخرج فى كثير من السنن والمعاجم كيف يعزوه للقضاعى فى الشهاب»[٣] .

(هـ) وفى مجال المآخذ الحديثية قال الشيخ الكتانى فى ٤٢/١ :

ذكر الخزاعى حديث معاوية : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» مقتصراً عزوَه لمسلم مع أنه فى البخارى . وهذا معيب منه رحمه الله لما تقرر أن الحديث إذا كان فى البخارى لايعزى لغيره» . وهناك انتقادات أخرى فى هذا الفن نكتفى فيها بما دوَّناه .

(و) أخذ عليه أيضا أنه أهمل ترجمه «مارية» خادمة رسول الله ﷺ ، مع أن الاستيعاب ترجم لها فقال : وكانت تكنى أم الرباب . حديثها عند أهل البصرة «أنها تطأطأت للنبى ﷺ حتى صعد حائطا ليلة فرَّ من المشركين . وترجمها أيضا فى «الإصابة» . والعجب من الخزاعى كيف أهمل هذه الترجمة مع أن «الاستيعاب» كان بيده وهو معظم مادته . والكمال لله»[٤] .

(١) مقدمة التراتيب : ٤٥ .
(٢) السابق ٤٦ .
(٣) السابق .
(٤) التراتيب : ٣٥٠/١ .

(ز) عند حديث الشيخ الكتانى عن الزراعة والغرس قال :

«لِمَ أغفل هذه الترجمة الخزاعىُّ مع أهمية الزراعة فى نظر الإسلام وكثرة اعتناء الصحابة بها ، وفيض الآيات القرآنية حول الزرع والنبات والغرس تذكرة بنعم الله سبحانه ، وقد أكثر سبحانه فى كثير من الآيات التذكير بما أنعم به من إخراج الزرع والنبات . . . إلخ»[١] . ونكتفى أيضا بهذا القدر فى نقد الخزاعى .

لكنَّ الشيخ الكتانىَّ وهو يتحدث عن المُدّ والصاع وغيرهما من أسماء المكاييل أيام رسول الله ﷺ قال كلمة إنصاف فى حق أبى الحسن الخزاعى :

«كما أن كلمة الإنصاف أن مباحث المكاييل والأوزان والدرهم والدينار من كتاب الخزاعى هنا لم أر أوعب منها ولا أجمع فيما رأيت ممن كتب فى المسألة من أهل الشرق والغرب بحيث لو لم يشتمل كتابه إلا عليها لكان جديراً بالاعتبار»[٢] .

والآن

(١) مع العاصمة الإسلامية الأولى وهى تتكون فى شهورها الأولى .

(٢) ثم ملاحظات عابرة حول مصنف الشيخ الكتانى وبه يُختتم البحث .

أولا : وصف المدينة قبل الهجرة .

(أ) من حيث الموقع والمساحة : تشغل المدينة مساحة واسعة تمتد من جبل أحد شمالا إلى جبل عير جنوبًا ، ويبلغ طولها اثنى عشر ميلا فى عشرة أميال ويخترقها من الشمال الغربى إلى الجنوبى الشرقى وادى بطحان ثم يجتمع فى وادى العقيق[٣] . وهى واحات متفرقة فى سهل فسيح يطلق عليه سهل المدينة . وكلمة «المدينة» معربة عن السريانية أى مساحة واسعة يسكنها قوم تجمعهم ظروف ومصالح مشتركة . فى هذا السهل الذى يقوم على جانبيه مرتفعان من البازلت الأسود يسميان الحرتين أو اللابتين تتناثر واحات أو قرى صغيرة ـ منها قباء والسنح وراتج .

(ب) ومن حيث السكان : كانت قبائل الأوس والخزرج والمجموعات اليهودية الكبيرة تسكن واحات خاصة بها[٤] ، وكان بالمدينة عند الهجرة ثمان وسبعون حصنا (آطام)

---

(١) التراتيب : ٢/٤٠ .

(٢) السابق : ١/٢٣٨ .

(٣) صالح أحمد العلى : الدولة فى عصر الرسول ﷺ المجلد الأول تكوين الدولة وتنظيمها . بغداد : المجمع العلمى العراقى ، ١٩٨٨ ، ص ٢١ .

(٤) حسين مؤنس : دراسات فى السيرة ، ص ٤٩ .

تستعمل للمراقبة والحماية[١] وهناك المزارع والمراعى حيث منازلُ القبيلة أو حماها فقد كانت المزارع منتشرة تُروىَ بالمياه التى تجـرى فى الوديان أو من الآبار. فالنشـاط الرئيسى هـو الزراعـة أو بعض الصناعات البيتية كالغزل والنسيج فى البيوت، وماتخصص فيه اليهود من صناعة الذهب وتجارته وبعض الصناعات الأخرى.. ولم يكن التمـاسك العشـائرى قويا.. وللمرأة مكانة مستقلة، ولعل فى كلمة سيدنا عمر ما يوضح هذا: «كنا معشر قريش نغلب النساء. فلما قدمنا على الأنصار إذا قـوم تغلبهم نساؤهـم فطفق نساؤنا يأخـذن من أدب الأنصار»[٢]. وكان هناك بعض الشخصيات من ذوى المكانة والنفوذ ومنهم النقباء الاثنا عشر. ولا تشير الأخبار إلى مؤسسات سياسية كدار الندوة فى مكة أو نواد. نظراً لسعة رقعة المدينة، ثم اشتغالهم بالزراعة. مع كثرة المصادمات والمشاحنات مما أفقدهم الأمن أو مركزية السلطة، وكذلك اصطدام المصالح وكان لليهود دور كبير فى إشعال هذه الفتن والحروب.

(جـ) ومن الناحية الثقافية: لم تكن القراءة والكتابة منتشرة فى المدينة باستثناء أفراد مثل أُبَيّ بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، ممن كان يُطلق عليهم «الكملة» وهم الذين يحسنون الكتابة والرمى والعوم. وكان أهل المدينة شأن غيرهم عبدة أصنام وكانوا يحجون إلى مكة بشعائر خاصة.. وتشير المصادر إلى أن أبا الهيتم وصرمة بن أبى أنس وأسعد بن زرارة كانوا يكرهون الأصنام ومنهم من ترهب ولبس المسوح. ثم هناك إلى جانب هؤلاء وأولئك جاليةُ اليهود، ولاشك أنه كان لهم أثر متناثر من عقيدتهم[٣].

ويشير ياقوت فى «معجم البلدان» إلى أمر لم أقرأه عند غيره. يقول: وكان على المدينة وتهامة فى الجاهلية عامل من قبل مرز بان الزاره (قرية بالبحرين) يَجْبى خراجها[٤].

ولابد من الإشارة إلى ما يحيط بالمدينة من قبائل الأعراب، وكان أهل المدينة يشترون منهم بعض المنسوّجات والسلع كالصوف واللبن المجفف ويبيعونهم التمور والشعير.

هذا باختـصـار حـال المـدينة سكنا وأمنا وثقـافـة واقـتـصـاداً واعـتـقـادا قـبل هجـرة الرسول ﷺ، وإن كان محمد عمارة قد ذهب فى حديثه عن سيطرة اليهود إلى أبعد من ذلك

(١) الدولة فى عصر الرسول ﷺ، ص ٢٢.
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٤٥/٩ كتاب النكاح.
(٣) الدولة في عصر الرسول ﷺ، ص ٣٠. ويذكر الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: «أن الأوس والخزرج لما نزلوا المدينة وجدوا اليهود مستوطنين بها فحالفوهم. وكانوا تحت قهرهم. ثم غلبوا على اليهود..» فتح البارى ٣٦٧/٢.
(٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٨٢/٦ دار بيروت للطباعة.

حيث قال : «أما يثرب وواحاتها الزراعية فإنها كانت قد خضعت لما يشبه السيطرة العبرانية منذ أن زحفت إليها هجرات اليهود فى القرن الأول بعد الميلاد عقب تدمير دولتهم على يد الرومان فاستعمروا تيماء وخيبر ويثرب وفدك ، واجتذبوا أجزاء من قبائل يثرب إلى ديانتهم وتكلموا العربية ولكنهم ظلوا بمعزل . . . واستمرت لهم سيطرة السادة على العرب الذين كانوا موالى لهم «ثم أشار إلى لقاء الرهط الخزرجى برسول الله ﷺ عند العقبة . وسألهم ﷺ أمِنْ موالى يهود؟ قالوا : نعم»[(١)] ويقول ياقوت فى إشارة سريعة :« وكانت قريظة والنضير اليهودُ ملوكا حتى أخرجهم منها الأوس والخزرج . وكانت الأنصار قبلُ تؤدى خراجًا إلى اليهود»[(٢)] .

ثانيا : المدينة دار الهجرة وعاصمة الإسلام

١ - بيعة العقبة :

أول لقاء بين رسول الله ﷺ وأهل المدينة بمكة كان عندما قدم مكة نفر للحج[(٣)] فاتصل الرسول بستة منهم ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا . وكان هؤلاء الستة من ذوى المكانة فى قومهم ومن عدة عشائر . وحين قدم هؤلاء إلى المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم الإسلام .

وفى السنة التالية قدم مكة اثنا عشر فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء «ألا نشرك بالله شيئا ولانسرق ولانزنى ولانقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان ولانعصى فى معروف» . هذه البيعة وما سبقها إنما هى على التوحيد وبعض الأحكام الخُلقية . . .

وطلب المبايعون أن يرسل معهم الرسول ﷺ رجلاً يفقههم فى الدين ، فأرسل ﷺ مصعب بن عمير (يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين) .

ثم كانت البيعة التالية حين قدم من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان[(٤)] . وهذه البيعة هى أول مظهرٍ سياسى فى الإسلام وأول أساس لشرعية الحاكم . وإن كانت شرعية الرسول ﷺ مستمدة من الله سبحانه .

(١) محمد عمارة : الخلافة ، ص ٥٤ ، كتاب الهلال .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٨٣/٥ .
(٣) وإن كان ابن حجر قد ذكر أن هذا النفر قدم مكة ليحالفوا قريشًا . . الفتح ٣٦٧/٢ .
(٤) «المرأتان هما : أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم أسماء بنت عمرو» . سيرة ابن هشام ، المجلد الأول ، ص ٣٠٢ .

تمر كلمة «البيعة» فلا يلتفت إليها أحد من علماء السياسة والحكم إلا إذا كانت عند السقيفة أو ما تلاهما ، ولايقفون عند مبايعة الرسول ﷺ لهؤلاء القوم . وقد تكررت البيعة ولكنها تطورت .

والبيعة كما نعلم : عقد يمنح السلطة أو التفويض فى أمر عام أو خاص . وبيعة العقبة الثانية لاترجع أهميتها إلى تثبيت الإسلام وتوسيعه ونشره فى المدينة ، فهذا الأمر قد استقر قبلها إنما ترجع أهميتها إلى الآتى :

١ ـ تنظيم علاقة الرسول بمسلمى المدينة على أسس قانونية واضحة .

٢ ـ أنها تعبير عن العزم الذى أبداه أهل المدينة على حماية مسلمى مكة .

٣ ـ أنها تجاوزت الجوانب الأخلاقية فى البيعة الأولى حيث جاء فى الثانية هذه قوله ﷺ : «تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر» «وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم» وفى رواية أخرى : «أن تنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم» . ولما سئل جابر بن عبد الله : كيف بايعتم رسول الله ﷺ ؟ قال : بايعناه على ألا نفرّ» . هذه مبايعة تؤكد على الجانب السياسى والحربى معاً . فأما الجانب الحربى فهو ما جاء فيها من الحديث عن المنع والنصر وعدم الفرار . وأما الجانب السياسى فقد اهتموا بتأمين مصالحهم ، فقد قال أبو الهيتم بن التيهان يارسول الله ﷺ إن بيننا وبين الرجال ـ اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها فهل عَسَيْت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . فابتسم رسول الله ﷺ وقال[1] : «بل الدمَ الدمَ والهدمَ الهدمَ . أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتهم»[2] وهى معاهدة قد تجرهم إلى حرب الأسود والأبيض وبذلك ضمنت بيعة العقبة قاعدة جديدة فى مجتمع يفتقد السلطة المركزية والتنظيم السياسى والمسئول الذى يجمع شملها وينظم أمورها . .»[3] .

(١) سيرة ابن هشام ، ص ٣٠٣ .

(٢) بل الدم الدم يعنى : إنكم تُطلبون بدمى وأطلبُ بدمكم ، دمى ودمكم شىء واحد . والهدم الهدم : إن كانت بفتح الدال فهو القبر أى أقبر حيث تقبرون وقيل : «الهدم هو المنزل أى : منزلى منزلكم» كقوله ﷺ فى حديثه الآخر : المحيا محياكم والممات مماتكم ، أى لا أفارقكم . وإن كانت بسكون الدال وبالفتح أيضًا فمعناه : إهدار دم القتيل ، ومعناه : إن أهدر دمكم فقد أهدر دمى لاستحكام الألفة بيننا . وهو قول معروف للعرب يقولون : دمى دمك وهدمى هدمك وذلك عند المعاهدة والمناصرة .» راجع «النهاية فى غريب الحديث والأثر» لابن الأثير ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، دار إحياء الكتب العربية .

(٣) الدولة فى عهد الرسول ، ٧٢/١ .

ثم كان تعيين النقباء الإثنى عشر : ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج أول إشارة إلى التنظيم بعد أن طلب الرسول ﷺ أن يختاروا من يشاءون . «وأراد رسول الله ﷺ بذلك أن تكون إلى جانبه هيئة مختارة من شيوخ المدينة تشاركه فى كل ما يستجد .»[١] .

أين الشيخان الكتانى والخزاعى فى أمر البيعة وتعيين النقباء وهما متضامنان معاً؟ أشارا عَرَضاً إلى بيعة العقبة الأولى فى سياق الحديث عمن بعثه رسول الله ﷺ إلى الجهات يعلم الناس القرآن الخ . . فقد جاء عند الخزاعى «ومنهم ـ أى المعلمون أو القراء ـ مصعب ابن عمير عند انصراف النبى ﷺ من القوم الذين بايعوه فى العقبة الأولى وهم اثنا عشر . . . إلخ .» . وعند الكتانى : بعثه رسول الله ﷺ مع الاثنى عشر أهل العقبة الثانية[٢] . ونلاحظ أن الخزاعى جعلها الأولى وجعلها الكتانى الثانية .

وأما النقباء فلم يأت لهم ذكر عند الخزاعى وجاء عند الكتانى بعنوان : باب فى النقباء ثم قال : لما مات أسعد بن زرارة جاء بنو النجار إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ، مات نقيبنا فنقّب علينا قال : أنا نقيبكم . لكنها فى ذكر العرفاء ربما جاء توضيح ما ذكروه عن العرفاء شيئا عن دور النقباءحيث جاء فيه : العريف : القيم بأمور القبيلة والجماعة من الناس يلى أمورهم ويعرف الأمير أحوالهم منه . وهذا التعريف يوضحه الموقف التالى : حين جاء وفد هوازن مسلمين يسألون رسول الله ﷺ أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فأحب رسول الله ﷺ أن يرد إليه السبى دون المال فخطب فى الناس لأجل ذلك ، فقال الناس : قد رضينا ذلك فقال لهم رسول الله ﷺ : إنا لاندرى من أذن لكم فى ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبى ﷺ فأخبروه برضاهم» . فأصل نصبهم هو أن المصلحة تقتضى ذلك لما يحتاج إليه الأمير من المعاونة على ما يتعاطاه بنفسه وتحمل الكبار بالصغار والرؤساء بالمرءوسين فى الحروب والضمانات وسائر المعاملات»[٣] .

٢ - الرسول ﷺ فى المدينة

فإذا ما وصلنا إلى المدينة المنورة نجد أنه ﷺ اهتم بتنظيم الزراعة بها وتعبيد الطرق وغرس الأشجار وإقطاع الأرض لاستصلاحها وإقرار الأعراب حولها مما أشرنا إليه فى بداية

---

(١) حسين مؤنس : دراسات فى السيرة ،ص ٦٦ .
(٢) التراتيب ٤٢/٢ .
(٣) السابق ٢٣٦/١ .

هذا البحث . وكان علاجه للمجتمع شاملاً فى جانبه الاقتصادى أو جانبه الإدارى . ولم تكن المهمة سهلة إذا تذكرنا الروح القبلية والاعتداد بالفردية التى تأبى الخضوع لأى سلطة لكنَّ خلقه الكريم ﷺ فى التسامح والإيثار والحب وقوة شخصيته عزَّز مكانته وثبَّت سلطانه على القلوب .

وحين نتكلم عن الإدارة لايعنى ذلك أجهزة ومؤسسات ومجالس استشارية ، إنما نعنى إدارته ﷺ لدولاب العمل والأخذ بمبدأ الشورى وتعيين الولاة وأمراء الجند والاهتمام بالتعليم والصحة . ولعلَّ من بواكير هذا التنظيم الإدارى والسياسى معاً ما جاء فى الصحيفة التى أصدرها ﷺ فى السنة الثانية للهجرة[١] . ونشير إلى خطوطها العريضة التى تؤكد النبوة والسلطة معاً فى شخصية ﷺ وكيف أنه أصبح سيد المدينة ، تصدر القرارات باسمه ، وتجب طاعة الجميع له ، بعد أن نتحدث عن الهجرة فى جانبها السياسى .

كان الهدف من بيعة العقبة إيجادَ قاعدة آمنة توفر للمسلمين حرية العقيدة وتوفر الجماعة الآمنة لمن يلجأ إليها . وكان من شروط البيعة لمن يسلم هو أن يهاجر إلى المدينة . يتضح ذلك من حثّ القرآن الكريم على الهجرة وخاصة آخر الأنفال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾[٢] .

وهذا الشرط كان ضروريًا وذا أهمية كبيرة في حياة الدولة المسلمة عندما كان عدد المسلمين قليلاً وكانوا مهددين بالأخطار . فكان لابد من استدعاء كل من أسلم لتوطين المدينة وليكونوا أقرب إلى الرسول ﷺ ويستطيعوا الاستجابة السريعة لما تقتضيه الظروف . كما أن السكن فى المدينة مع الرسول ﷺ ومع المسلمين يعين على تفهيم المسلمين الجدد مبادئ الإسلام ومتطلباته وقد ظل هذا الشرط موجوداً إلى أن فتحت مكة[٣] .

ترتب على هذا الشرط ـ وهو استيطان المدينة للمسلمين الجدد ـ مشكلات صحية واقتصادية واجتماعية . وقام ﷺ بدوره العظيم وهو يستقبل اللاجئين والفارين بدينهم من

---

(١) نص الصحيفة عند ابن هشام ، ٢٤٨/٢ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، وراجع : صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ﷺ ، ١٠٤/١ .

(٢) الأنفال ، آية ٧٢ .

(٣) صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ، ٧٥/١ .

شتى البقاع . لقد تصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا فأصاب المرض بعض الصحابة . واستوخم البعض جو الهجرة الجديد وأخذت تستيقظ فى نفوسهم غرائز الحنين إلى الوطن المفقود . وهكذا واجهت النبىَّ العظيم ﷺ شدائد المشكلات بالإضافة إلى توفير العمل والمسكن . كان هو المثل الأعلى أمامهم . ثم أخذ يصبرهم على احتمال الشدائد . ويطالبهم بالمزيد من الجهد والتضحية ، ويعدُ بالخير لمن يصبر على لأواء المدينة وشدتها ، ويدعو الله سبحانه أن يحبِّب إليهم المدينة وأن يبارك لهم فى طعامها . حتى ارتفع الروح المعنوى بهذا التشويق والإقبال ، واتجهت القوى الفتية إلى البناء[1] . وأما الجانب الاجتماعى فتشير إليه آية الممتحنة ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[2] .

وأما مشكلة المعيشة والسكن فقد أتيح لبعضهم أن يتاجر كما حدث مع عبد الرحمن ابن عوف وغيره ، ونزل بعضهم ضيفا على الأنصار ، واتخذ بعضهم المسجدَ مسكنا . على كلٍّ لم تكن إعالة المهاجرين تمثل عبئا كبيراً نظراً لانخفاض مستوى المعيشة والقناعة بما تيسَّر حتى لو كان التمر والماء ، إلى أن أقطع الرسول ﷺ الأراضى التى لاملكية لها (خط ـ ﷺ ـ لأصحابه فى كل أرض ليست لأحد وفيما وهبت له الأنصار من خططها)[3] .

شُغل رسول الله ﷺ أول مستقره بالمدينة بوضع الدعائم التى لابد منها لقيام رسالته فى المعالم الآتية :

١ ـ صلة الأمة بالله .

٢ ـ صلة الأمة بعضها ببعض .

٣ ـ صلة الأمة بالآخرين .

أمة الإسلام ليست كأى أمة . إن المسلمين أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله وتوضح نظرتهم للحياة ، وتنظم شئونهم . وتنتهى بعلاقتهم بالآخرين إلى غايات معينة . يستضيئون بالوحى ويقتدون بإمامهم وسيدهم ﷺ ليحققوا الحكمة العليا التى من أجلها خُلق الناس وقامت الحياة .

---

(١) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ١٣٣ .

(٢) الممتحنة : آية ١٠ .

(٣) صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ﷺ ، ص ٨٥ .

تتحقق صلتهم بالله أول ما تتحقق فى المسجد[١] فكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ هو بناء المسجد فى صورة بسيطة . فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد وأعمدته الجذوع . هذا البناء المتواضع الساذج هو الذى ربى ملائكة البشر ومؤدبى الجبابرة وملوك الدار الآخرة . إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم ومنتدى للأدب .

ليس المسجد مساحة تحتكر الصلاة ، فالأرض كلها مسجد ، إنما هو رمز لما يهتم له الإسلام ويتشبث به . إنه وَصْل العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن ويتكرر آناء الليل وأطراف النهار . فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد وتجهل اليوم الآخر وتخلط المعروف بالمنكر [٢] .

والعجيب أن للصلاة دورها فى تحديد الأولياء من الأعداء . يقول الحق سبحانه : ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[٣] . ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[٤] .

وعن صلاة الجنازة يقول الحق سبحانه لرسول الله ﷺ : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[٥] .

وأما المعلم الثانى وهو صلة الأمة بعضها ببعض ، فقد أقامه ﷺ على الإخاء الكامل الذى تمحى فيه الأثرة وتذوب فيه عصبيات الجاهلية وتسقط فوارق النسب واللون والوطن فلاحمية إلا للإسلام . وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عَقْداً نافذاً وعملاً يرتبط بالدماء والأموال . وقد حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين حتى إن المهاجر لم يكن ينزل على الأنصارى إلا بالقُرْعة . وظل عقد الأخوة مقدمًا على حق القرابة زمنًا [٦] . وأما العلاقة بين المسلمين وغيرهم ففى نصوص « الصحيفة » أو دستور المدينة بيان شاف فلنتأمل معالمها الرئيسية :-

(١) فقه السيرة ، ص ١٣٥ .
(٢) السابق : ١٣٦ .
(٣) التوبة : آية رقم ٥ .
(٤) التوبة : آية رقم ١١ .
(٥) التوبة : آية رقم ٨٤ .
(٦) فقه السيرة ، ص ١٣٨ .

فى بدايتها كما رواها ابن اسحاق فى سيرة ابن هشام[١] :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين» .

والنص هنا يوضح :

(١) أن الرسول ﷺ بحكم النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة صار هو الرئيسَ المسئولَ . باسمه تصدر الوثائق والأوامر والمعاهدات[٢] .

(٢) وأن المسلمين أمة واحدة من دون الناس يرتبطون برابطة العقيدة وليس على أساس الدم أو الجنس أو اللون . دماؤهم واحدة ويجير عليهم أدناهم .

وأنهم مسئولون فى تحمل الديات وفك الأسرى (أنهم لايتركون مُفْرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل) والمفْرحُ : المثقل بالديْن كثير العيال[٣] . وأن ولاءهم واحد ودماءهم متكافئة ولايجوز لمؤمن أن يوالى مولى مؤمن دونه . وأن بقية العشائر من بنى عوف وبنى الحارث ومن إليهم عليه حمايةُ ضعيفهم وفك أسراهم وتحمل دية قتلاهم .

(٣) الأمن مسئولية الجميع : «إن المؤمنين المتقين على من بغى أو ابتغى ظلماً أو عدواناً أو فساداً ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم» فيجب اشتراك الجميع فى صيانة الأمن ومطاردة المفسدين والامتناع عن حماية المجرمين : لايحل لمؤمن أقرَّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (مجرما) أو يؤويه . فمن نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه .

(٤) القضاء والعدالة : تظهر الوثيقة اهتمام الرسول ﷺ بأمر العدالة وتنظيم القضاء وقد نص القرآن الكريم على جعل القضاء بيد الرسول ﷺ . يقول سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٤] .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٤٨ .
(٢) محمد أبو زهرة : خاتم النبيين ، دار الفكر العربى ، ٢٠/ ٣٤ .
(٣) ابن هشام . السابق .
(٤) النساء : آية ٦٥ .

وجاء النص فى الصحيفة على :

١ - إنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

٢ - ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ [(١)] .

والنص السابق يُدْخل اليهود ومن كان على دين الشرك . وإن كان لليهود وضع آخر إلى جانب هذا . فإذا كان الأمر يتعلق بالنظام العام فى حرمة الدماء والأموال وما إليها فإنهم يخضعون لما فى هذه الوثيقة ، وأما ما يتعلق بشئونهم الخاصة فهم أحرار . وللرسول ﷺ إذا احتكموا إليه فى شئونهم الخاصة أن يحكم أو يُعرض .

(٥) حرية العقيدة : وأن جميع قبائل اليهود أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ولليهود النصر والأسوة مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لايوتغ (لايُهلك) إلا نفسه .

(٦) وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . واليهود والمسلمون عليهم ما يأتى :

أ - واجب الدفاع عن الوطن إذا هوجم (وإن بينهم النصر على من دَهمَ يثرب) .

ب - لايجوز إطلاقاً جوار واحدٍ من قريش أو حمايته أو حمايةُ ماله ولايحول دونه على مؤمن .

حـ - لا يجوز الاقتتال بانتهاك حرمة يثرب (فيثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة) .

د - تعاون الجميع على الدفاع عن المظلوم ونصرته ، وأن النصر واجب إذا حورب أهل هذه الصحيفة وأن على اليهود النفقة مع المسلمين ما داموا محاربين .

هـ - لايجوز لأحد من اليهود أن يخرج من المدينة إلا بإذن من رسول الله ﷺ .

هكذا نظمت الصحيفة أول مجتمع خليط من ديانات مختلفة يجمعهم ولاء واحد للوطن وللقائد . ماذا تسمى هذا؟ أليست هذه دولة؟ وأليس رسول الله ﷺ حاكمًا عليه مسئولية تنظيم الأمن والعقيدة والتعاون ونصرة المظلوم وشئون الحرب والسلام والتقاضى؟ وهكذا اختلف الدين واتحد الولاء واتحدت القيادة واتحد العدو . ولذلك فإن الوثيقة نصت على أنه لايصح أن يتعاون اليهود مع أعداء محمد ﷺ وأن عليهم أن ينصروا المسلمين ويشتركوا معهم فى الدفاع عن المدينة وفى الاتفاق أثناء الحرب ، ولايجوز أن يسالموا العدو أو يؤووه . وأخيراً إلى جانب المسئولية الجماعية هناك المسئولية الفردية ، تقول الوثيقة :

---

(١) ابن هشام ٢/٣٥٠ ، صالح العلى ١/١٠٦ .

«لايكسب كاسب إلا على نفسه وإن هذه الصحيفة لاتحمى ظالما أو آثماً . من خرج فهو آمن ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم وأثم» (١) .

عند هذا المدى الزمنى فى بداية الرحلة النبوية المطهرة لإقامة الدولة يتوقف الحديث دون التجول فى دواوينها وشهود جهادها وعظمة رجالها رهبان الليل وفوارس النهار .

ثم نختم بحثنا بملاحظات عن التراتيب للشيخ الكتانى .

ملاحظات على الشيخ الكتانى

أول ما يصافحك من هذا الشيخ الجليل وأنت تصحبه فى رحلته هذا الخلق النبيل : عفّة فى اللسان وعذوبة فى القول ورقةٌ فى القلب وتوقيرًا لأقدار الرجال . لايتحدث عن عالم إلا أضفى عليه من التكريم والثناء ما ينبئ عن طيب العنصر وكرم الأرومة . وربما أعان الشيخ على هذا الخلق الزكى هوًى صوفى تسلل إلى الوجدان . وهو يذكرنا فى ذلك بشيخه أبى حامد محمد بن محمد الغزالى . . ثم رفد هذا الخلق تبحر فى العلم فجمع الله له بين الحسنيين . ولم يقف تبحره على فن واحد بل ضرب فى كل الدروب وأخذ من كل العلوم فكان عالماً محققا فقيها محدثًا . . حتى إذا ما نزع استحالت غربا(٢) فروى وأثْبَتَ . أخلص فى الذود فتفجرت الينابيع .

ولأنه عالم محقق فإن الهفوات عنده سقطات .

أولا : كيف يا شيخنا الجليل وأنت الناقد البصير تحتفى بأثر هالك لايسُيغه عقل ولايجيزه محقق؟

فى ٤٢/٢ تراتيب : « وفى ترجمة سعد بن معاذ الأنصارى من الإصابة روى الخطيب فى المتفق بإسناد واهٍ وأبو موسى فى الذيل بإسناد مجهول عن الحسن عن أنس أن النبى ﷺ لما رجع استقبله سعد بن معاذ الأنصارى فقال : ما هذا الذى أرى بيدك فقال أثر المسحاة أضرب وأنفق على عيالى . فقبَّل النبى ﷺ يده وقال : «هذه يد لا تمسها النار» ٤٢/٢ وبالرجوع إلى الإصابه ٨٦/٣ رأيت العسقلانى يسوق الخبر الهالك فى ترجمة من يسمى سعد بن معاذ الأنصارى آخر . وفيه : رجع من تبوك . وقد سقطت عند الكتانى . وبالرجوع إلى شيوخ التحقيق :

---

(١) ابن هشام ٣٥٠/٢ .

(٢) استحالت غربًا : استشراف بقول الحبيب ﷺ عن خلافة الفاروق : «ثم أخذها عمر - أى أخذ الدلو بعد أبى بكر - فاستحالت غربا (أصبحتْ دلوا عظيمًا) إشارة إلى اتساع الدولة ووفرة الخير . . والمقصود هنا غزارة علم الشيخ وتدفقه . (فتح البارى ٣٣/٧) .

وجدت أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزى يقول : «عن الحسن عن أنس» وذكر النص ثم قال : هذا حديث موضوع وما أجهل واضعه بالتاريخ فإن سعد بن معاذ لم يكن حيًا فى غزاة تبوك لأنه مات بعد غزوة بنى قريظة من السهم الذى رمى به يوم الخندق سنة خمس ، وتبوك سنة تسع ، فلو كان عند الكذاب توفيق ما كذب [١] .

وعند الإمام جلال الدين السيوطى :«عن أنس ـ ذكره ـ» لكنه أضاف زيادة على ما ذكره ابن الجوزى : ذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة أن سعد بن معاذ هذا صحابى آخر غير ذلك المشهور [٢] .

وعند شيخ المحدثين فى العصر الحديث محمد ناصر الدين الألبانى : بعنوان «وهذه يد لا تمسها النار أبداً» قال : «ضعيف» . وبعد أن أورد ما قاله ابن الجوزى والسيوطى . قال : «قال : الشيخ عبد الحى الكتانى فى التراتيب الإدارية ٢ ، ٤٢ ، ٤٣ بعد ما نقل كلام الحافظ : قلت : ـ الكتانى ـ فى هذه القصة عجيبة وهى تقبيل النبى ﷺ يد صحابى لأجل ضرب الأرض بالفأس» قلت ـ الألبانى ـ لكن يقال : أثبت العرش ثم انقش فإن القصة غير ثابتة كما علمت [٣] .

فالقصة كما ترى باطلة وموضوعة ، وما سعد بن معاذ هذا إلا شخصية مختلقة للنجاة من الكذب التاريخى لأن سعدًا الحقيقى توفى بعد الخندق ، وللتخلص من هذا قالوا : سعد ابن معاذ آخر .

أين شيخنا من هذه الهزأة؟

نص على أن الأثر واهٍ وهذا شرط العلماء فى رواية الأكاذيب حتى لا يتعرض الرواى للوعيد النبوى «من كذب على . .الحديث» لكنَّ الشيخ بدل أن يتبرأ من عارها ويدفنها إذا به يقول : « قلت : فى هذه القصة عجيبة وهى تقبيل اليد» ٤٢/٢ كما ذكره الشيخ الألبانى . الأدهى أن الشيخ الكتانى حوَّل الأمثولة إلى أنشودة فعاد إليها مرة أخرى ١٠٢/٢ حيث يقول : « وتقدم أن سعدًا قبَّل المصطفى يده» . عفا الله عنا وعنك فالغفلة عن الآفة مهلكة يا شيخنا .

(١) ابن الجوزى : الموضوعات ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان . المدينة المنورة : المكتبة السلفية ، ٢٥١/٢ .
(٢) جلال الدين السيوطى : اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة .بيروت : دار المعرفة .
(٣) محمد ناصر الدين الألبانى : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، المجلد الأول ، حديث رقم ٣٩١ .

ثانيا : ثم دفعه الهوى الصوفى إلى سقطة أخرى ، ولتنظر ماذا قال عند تحريره لموضوع : «رقص الحبشة فى المسجد النبوى أمامه عليه السلام» ١٤١/٢ « وفى ترجمة أنس من مسند أحمد كانت الحبشة يزفون بين يدى رسول الله ﷺ ويرقصون ويقولون : محمد عبد صالح[١]» فحوّل الشيخُ هذا اللعب والرقص إلى ذكر ، لماذا؟ حتى يحتج به على تمايل الجاهلين فيما يسمى «بحلقات الذكر» . انظر إلى تلاعب الشيخ : «غاية الرقص عند القوم ذكر من قيام ، وهو مشروع بنص القرآن الآية» والقيام يا شيخ هو القيام فى الصلاة وليس الرقص . وقد تولّى تفنيد هذا الزيغ القرطبى المفسر : عند قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢] .

قال القرطبى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الأندلسى (٦٧١هـ) : قال ابن عطية[٣] : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله تعالى : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قلت : وهذا تعلق غير صحيح . هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نَعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوهم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم . وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء .أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة فى هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان . هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء . وقال الإمام أبو بكر الطرطوشى[٤] وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل»[٥] . ثم عاد القرطبى إلى إنكار نفس الزيغ عند تفسير قوله تعالى من سورة طه : ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾[٦] .

---

(١) ابن حنبل : المسند ، ٤٩٢/١٠ حديث رقم ١٢٣٧٩ ، تحقيق : حمزة أحمد الزين . القاهرة ، دار الحديث .
(٢) الكهف : آية ١٤ .
(٣) ابن عطية : عبدالحق بن غالب الغرناطى (٤٨١ - ٥٤٢هـ) أبو محمد مفسر وفقيه أندلسى ومن كتبه : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، الأعلام ٥٣/٤ .
(٤) الطرطوشى ، محمد بن الوليد : أبو بكر الطرطوشى (٤٥١ - ٥٢٠هـ) نسبته إلى طرطوشة بالأندلس . صاحب كتاب سراج الملوك وغيرها ، الأعلام ٣٥٨/٧ .
(٥) تفسير القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ٣٩٨٣/٥ ، طبعة دار الشعب .
(٦) طه : آية ٩٢/ ٩٣ .

قال القرطبى :« وسئل الإمام أبو بكر رحمه الله عن مذهب الصوفية . وأُعْلِم أنه احتج جماعة من رجال يكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ ثم إنهم يوقّعون بالقضيب على شىء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيًا عليه ويُحضرون شيئا يأكلونه . هل الحضور معهم أم لا؟ »

«الجواب : مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة . وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى . وإنما كان يجلس النبى ﷺ مع أصحابه كأن على رءوسهم الطير من الوقار . فينبغى على السلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها . ولايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين[١] .

لولا تلبيس الباطل يا شيخنا ما استدعينا هؤلاء القضاة . فمن قال : إن الرقص عبادة؟

وهل ما فعلته الحبشة فى المسجد ذكر؟

يقول صاحب الفتح : «وأما ما ابتدعته الصوفية فى ذلك ـ الغناء والرقص ـ فمما لا يختلف فى تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب حتى لقد ظهر من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، فرقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقح بقوم منهم أن جعلوها «من باب القرب وصالح الأعمال ، وأن ذلك يثمر سنىّ الأحوال» وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وفعل أهل المخرقة»[٢] .

المصنّف ملىء بهذه الآثار الواهية وبعضها فقد الحياء . حين يصور فرحًا حضره رسول الله ﷺ وقال على الألفة والخير والطائر الميمون دَفِّفُوا (اضربوا بالدف) على رأس صاحبكم . وجاءت الجوارى معهن الأطباق فيها اللوز والسكر فتُنشر عليهم (ويمكن أن تُقرأ نَثَرَ بالبناء للفاعل) وهو يناسب سوء الأدب مع رسول الله . والقصة من سخفها وثقلها تثير الاشمئزاز . ومع أن الشيخ نقل رأى المحققين فيها وأنها أثر هالك ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يجعل

(١) تفسير القرطبى ، ٤٢٧٧/٥ .
(٢) الحافظ ابن حجر : فتح البارى ، ٣٦٨/٢ .

لها عنوانا كما لو كانت حقيقة صحيحة ، فعقد لها هذا العنوان : «نهب اللوز والسكر ونثره فى العرس»[١] .

وهذه سُنة مطردة عن الشيخ يذكر الآثار الواهية ثم يتناسى هذا ويحتفى بها (تقبيل اليد أو الرقص أو النهب» .

ومن الأخطاء ، ولعلها مطبعية :

(١) «وفى الصحيح أن النبى ﷺ لما هاجر استأجر رجلاً يهوديا خريتا» ولعلها هاديًا فقد جاء فى فتح البارى ٣٦٢/٤ كتاب الإجارة : واستأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل هاديا وكان على دين كفار قريش»[٢] .

(٢) «وترجم فى الإصابة لعبد الرحمن بن أبزى فنقل عن ابن السكن[٣] فقال : استعمله النبى ﷺ على خراسان[٤] . فعلاً ذكره ابن حجر فى الإصابة[٥] ٢٨٢/٤ . وهذا خطأ لأن خراسان هذه بدأ فتحها فى خلافة عمر سنة ١٨ هـ . لكنَّ شيخنا على دقة استدراكاته ينقل أحيانا عن الآخرين بغير مراجعة .

(٣) وشبيه بهذا وهو يتكلم عن سك النقود قال :

«كما ألف فى الباب أيضا الحافظ السيوطى رسالة سماها «قطع المجادلة فى تغيير المعاملة» وهى رسالة نفيسة فى نحو كراسة . ذكر فى أولها ان ابن أبى شيبة[٦] أخرج فى مصنفه عن كعب : أن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام»[٧] .

هذه أخبار ينبغى أن تبرأ منها المؤلفات العلمية . . .

هناك أخيراً بعض الأخطاء فى سياق الآيات القرآنية أو فى القواعد النحوية :

---

(١) التراتيب : ١٥٥/٢ .

(٢) التراتيب : ٤٦٠/١ .

(٣) ابن السَّكن ، أبو على سعيد بن عثمان (٢٩٤ - ٣٥٣هـ) من حفاظ الحديث نزل بمصر وتوفى بها ، الأعلام ٢١٧/٦ .

(٤) السابق : ١٤٣/١ .

(٥) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، تحقيق : على محمد البجاوى .

(٦) ابن أبى شيبة (١٥٩ - ٢٣٥هـ) عبد الله بن محمد الكوفى ، أبو بكر . حافظ للحديث له : المسند ، المصنف ، سير أعلام النبلاء للذهبى ١٢٢/١١ .

(٧) التراتيب : ٤٢٥/١ .

الصفحة	الخطأ فى الآية القرآنية	تصويبه
٤١/٢	فأخرجنا منه خضرًا نخرج به حباً متراكبا	﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾[1] .
٤١/٢	والنخل والزرع مختلفه أكله	﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ [2] .
٤١/٢	ومن الأرض قطع متجاورات	«وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ» [3] .
٢٠٠/٢	والصابرين فى السراء والضراء وحين البأس	﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [4] .

ونكتفى بهذا القدر لنشير إلى بعض الأخطاء النحوية ، أما الإملائية فربما دفع إليها الخطأ المطبعى .

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢٣٢/١	يتحدث عن سعد بن أبى وقاص :« رأيت أخى عمرو بن أبى وقاص . . متوارى»	متوارياً
١٩٢/١	« وأول ما استعمل العرب الإبل ثم استبدلوها بالبغال»	ثم استبدلوا بها البغال
١٩٤/٢	«وله ذيول طبعت منه ولاكن الطابعون لم يميزوا بين الأصل والفرع»	ولكن الطابعين

وقد لاحظتُ أن الكتابة الإملائية فى المصنف كانت تثبت ألف المد هذه فى كلمات مثل «لا إلاه إلا الله ـ الرحمان ، لاكن ، طاها وهاكذا» . . . .

عتاب أخير على شيخنا . . وهو أنه حين أخذ فى عرض الموسوعات فى إحصاء العلوم في القرن الرابع ذكر الفارابى أبا نصر محمد بن طرخان (٣٣٩هـ) وكتابه «إحصاء العلوم» .

والخوارزمى أبا عبد الله بن أحمد (٣٨٧هـ) فى كتابه «مفاتيح العلوم» .

(١) الأنعام : آية١٤١ .
(٢) الأنعام : آية ١٤١ .
(٣) الرعد : آية ٤ .
(٤) البقرة : آية ١٧٧

وأبا القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى (٤٦٠هـ) فى كتابه «طبقات الأمم» .

ثم أغفل عمدةَ هؤلاء جميعا أبا الفرج محمد بن إسحاق (ابن النديم) (٣٨٥هـ) فى ذخيرته المشهورة «الفهرست» . مع أنه أشار إليه فى ثنايا كتابه ٢/٢٦٣ ، ٢/٢٧٤ ، ٢/٢٧٥

وبعد :

فمعذرة يا شيخنا الجليل لمكانك ومكانتك ، لكنَّ الحق أحب إلينا ، وجزاك الله خير ما يجزى به العلماء على هذا الإمتاع الذى أنست به زمنًا بصحبة شيخنا الخزاعى وصحبتك فى رحلة علمية مباركة وارفة .

وأعتذر عن هذه القراءة العجلى التى قد يعتورها قصور أو نقصان ، راجيا أن تكون تلك إشارةً متواضعة إلى هذين العملين حتى يقيض الله لهما أحد شيوخ التحقيق وخاصة موسوعة الشيخ عبد الحى الكتانى التى هى من نوادر المؤلفات فى هذا الباب ، والتى تنبئ عن عالم جليل لايعرف قدره إلا القليل ، وأسأله سبحانه العفو والمغفرة .

المصادر والمراجع

١ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب / ابن عبدالبر .

٢ - الإسلام وأصول الحكم/ على عبد الرازق . القاهرة : دار الهلال .

٣ - الإصابة فى تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلانى .

٤ - الأعلام/ خير الدين الزركلى .

٥ - تاريخ الأدب العربى/ بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار . القاهرة : دار المعارف .

٦ - تاريخ الأدب العربى/ جرجى زيدان . القاهرة : دار الهلال .

٧ - تفسير القرطبى . القاهرة : دار الشعب .

٨ - ثلاث معارك فكرية/ مختار التهامى . القاهرة : دار مأمون للطباعة .

٩ - خاتم النبيين/ محمد أبو زهرة . القاهرة : دار الفكر العربى .

١٠ - الخلافة / محمد عمارة . القاهرة : دار الهلال .

١١ - دراسات فى السيرة/ حسين مؤنس . القاهرة : دار المعارف .

١٢ - الدولة فى عهد الرسول ﷺ/ صالح أحمد العلى . بغداد : المجمع العلمى العراقى .

١٣ - الرسالة/ الإمام الشافعى ، تحقيق أحمد شاكر . القاهرة : دار التراث .

١٤ - رفاعة الطهطاوى رائد التنوير/ محمد عمارة . القاهرة : دار الشروق .

١٥ - سلسلة الأحاديث الضعيفة/ محمد ناصر الدين الألبانى . بيروت : المكتب الإسلامى .

١٦ - سنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى . بيروت : دار الكتب العلمية .

١٧ - سير أعلام النبلاء/ الذهبى ، تحقيق شعيب الأرناؤطى . بيروت : مؤسسة الرسالة .

١٨ - سيرة ابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة : مطبعة محمد على صبيح .

١٩ - صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . القاهرة : إحياء الكتب العربية .

٢٠ - فتح البارى/ ابن حجر العسقلانى . بيروت : دار المعرفة .

٢١ - فقه السيرة/ محمد الغزالى . القاهرة : دار الشروق .

٢٢ - اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة/ جلال الدين السيوطى . بيروت :

دار المعرفة .

٢٣ - المجمعيون/ المجمع اللغوى . القاهرة : مجمع اللغة العربية .

٢٤ - المستشرقون/ نجيب العقيقى . القاهرة : دار المعارف .

٢٥ - المسند/ للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق حمزة الزين . القاهرة : دارالحديث .

٢٦ - مشهورون ومنسيون/ فتحى رضوان . القاهرة : كتاب اليوم ، أخبار اليوم .

٢٧ - معجم البلدان/ ياقوت الحموى . دار بيروت .

٢٨ - المعجم الفلسفى/ إشراف إبراهيم مدكور . القاهرة : مجمع اللغة العربية .

٢٩ - مقدمة ابن خلدون .

٣٠ - الموسوعة الثقافية/ إشراف حسين سعيد . القاهرة : دار الشعب .

٣١ - الموضوعات / عبدا لرحمن بن الجوزى . المدينة المنورة : المكتبة السلفية .

٣٢ - النهاية فى غريب الحديث والأثر/ ابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحى . القاهرة : إحياء الكتب العربية .

٣٣ - نيل الأوطار/ محمد بن على الشوكانى . بيروت : دار الكتب العلمية .

نصوص من كتاب أندلسي مفقود

د/ رجب عبد الجواد إبراهيم*

إنَّ محاولة رسم ملامح كتب مفقودة من خلال استنطاق نصوصها المتناثرة فى كتب مطبوعة وصلت إلينا هى جدُّ محاولة مُهمّة فى الكشف عن خبايا تراثنا . واستكمال جوانب النقص فى مكتبتنا العربية ، كما أنَّ هذه المحاولة تُعدُّ جزءاً مُتمِّما لحركة نشر وتحقيق المخطوطات العربية ، ولعلِّى بهذه المحاولة ألفت انتباه الدارسين والمهتمين بقضايا التراث إلى الكشف عن الكتب المفقودة من خلال ما وصل إلينا من نصوصها فى الكتب المطبوعة .

والكتاب المفقود الذى لم يصل إلينا هو كتاب : «النُّضار فى المَسْلاة عن نُضار» للعلامة أبى حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيَّان ، أثير الدين الأندلسى الغرناطى (ت ٧٤٥هـ) نحوىّ عصره ، ولُغويّه ، ومفسِّره ، ومحدِّثه ، ومُقْرئه ، ومؤرِّخه ، وأديبه(١) .

وكتاب «النُّضار» هذا ألَّفه أبو حيان بعد وفاة ابنته نُضار ، وقد تحدَّث فيه - كما يقول السيوطى فى البغية - عن مبدئه واشتغاله بالعلم ، وشيوخه الذين تلقَّى على أيديهم العلم والمشاهير من علماء الأندلس فى اللغة والنحو ، والأسباب التى دفعته إلى أن يترك بلده غرناطة ويرحل إلى المشرق . يقول السيوطى - نقلاً عن «النضار» - : ورأيت فى كتابه النُّضار الذى ألّفه فى ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته أنَّ مما قوّى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضىّ والطبيعىّ قال للسلطان : إنى قد كبرت وأخاف أن أموت ، فأرى أن ترتِّب لى طلبة أعلِّمهم هذه العلوم ؛ لينفعوا السلطان من بعدى . قال أبو حيان : فأُشير إلىّ أن أكون من أولئك ، ويرتِّب لى راتب جيِّد وكُساوٍ حسان فتمنَّعت ورحلت مخافة أن أُكره على ذلك(٢) .

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة حلوان .

(١) حول ترجمته انظر : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٤٣/٣ - ٦٠ ، الكتيبة الكامنة ٨١ ، نفح الطيب ٢٨٠/٣ - ٣٢٨ ، الوافى بالوفيات ٢٦٧/٥ ، نكت الهميان ٢٨٠ ، معجم الأدباء ١٩/ ١٢٣ ، شذرات الذهب ١٨٥/٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣١/٦ - ٤١ ، فوات الوفيات ٥٥٥/٢ - ٥٦٢ ، الدرر الكامنة ٣٠٤/٤ ، العقد الثمين ٤٠٢/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١١١/١ ، بغية الوعاة ٢٨٠/١ - ٢٨٥ ، فهرس الفهارس والأثبات ١٠٨/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٢/١ ، الأعلام للزركلى ١٥٢/٧ ، أبو حيان الأندلسى لخديجة الحديثى .

(٢) بغية الوعاة ٢٨١/١ .

أمّا عن نُضار ابنة أبى حيان فيحدِّثنا عنها المقَّرى فى كتابه «نفح الطيب» قائلاً : كانت نُضار هذه قد حجَّت ، وسمعت بقراءة العَلَم البرزالى على بعض الشيوخ ، وسمعت على جماعة ، وأجازها من المغرب أبو جعفر بن الزُّبير ، وحفظت مقدِّمة فى النحو ، وكان والدها يثنى عليها كثيرًا ، وكانت تكتب وتقرأ ، وتنظم الشعر ، وكان والدها يقول دائمًا : ليت أخاها حيَّان كان مثلها . وتوفيت فى جمادى الآخرة سنة ٧٣٠هـ فى حياة والدها ، فوجد عليها وجْدًا عظيمًا ولم يثبت ، وانقطع عند قبرها ولازمه سنة[1] .

هذا ، وقد نقل السيوطى فى «البغية» خمسة وعشرين نصًّا من كتاب «النضار» ؛ وهى نصوص يترجم فيها لنحويين ولغويين أندلسيين ، وقد اتَّسمت نقول السيوطى بالدقة والأمانة ، فلم يكن ـ رحمه الله ـ يغيِّر فى ألفاظ من ينقل عنهم شيئًا ، وطريقته فى «البغية» واحدة ؛ هى أن يختار نصًّا من الكتاب الذى ينقل عنه دون تغيير أو تبديل ، وقد بلوته فى نصوص كثيرة نقلها من كتب مطبوعة بين أيدينا اليوم .

ومن خلال النصوص الخمسة والعشرين نستطيع أن نرسم ملامح كتاب «النُّضار» ، ونجملها فى الآتى :

١ - الكتاب يترجم لنحاة الأندلس المشهورين فى القرن السابع الهجرى غالبًا .

٢ - يكشف الكتاب عن جوانب خفيَّة فى حياة من يترجم لهم ، لا وجود لها فى كتب أخرى ؛ كأن يقول عن ابن مالك : إنه كان لايحتمل المباحثة ولا يثبت للمناقشة ، ولم يكن له شيخ مشهور يعتمد عليه . ويقول عن ابن حَوْط الله الحارثى (ت٦١٢هـ) : كان يكتب بيده اليسرى لتعذُّر اليمنى ، ولم يكن يخرجها من ثوبه ، ولم يعرف أحد عذرها . ويقول عن المالقى (ت٧٠٢هـ) : كان شديد البَلَه ، طبخ قدرًا فوجدها تعوز الملح ، فوضع فيها ملحًا غير مطحون ، ثم ذاقها قبل أن ينحلّ الملح فزادها حتى صارت زُعاقًا . وقال عن أبى على بن أبى الأحوص القرشى الفهرى (ت٦٧٩هـ) : كان فيه بعض ترفُّع وتعتُّب على الدنيا حيث قُدِّم مَنْ هو دونه .... إلخ .

٣ - يبرز الكتاب بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى عصر أبى حيان ؛ فالأندلسيون كانوا يسمون عبد الله : عبّودًا ، ويسمون محمدًا : حمّودا ، وقد نقل المشارقة عنهم ذلك .

---

(١) نفح الطيب ٣/٢٨٠ - ٣٢٨ .

٤ - يكشف الكتاب عن مدى اهتمام الأندلسيين بكتاب سيبويه فى عصر أبى حيان ؛ فقد كانوا لايعتدّون بالعالم الأندلسى فى اللغة والنحو إذا لم يكن يقرأ «كتاب سيبويه» ؛ يؤكد ذلك حديث أبى حيان عن المالقى أحمد بن عبد النور (ت ٧٠٢هـ) بقوله : كان عالمًا بالنحو ، وكان لايقرأ كتاب سيبويه ، فكان أصحابنا إذا ذُكر يقولون : هل يقرأ «كتاب سيبويه»؟ فيقال : لا ، فيقولون : لا يعرف شيئًا .

٥ - ترجم أبو حيان فى الكتاب لبعض النحويين الذين رحلوا عن الأندلس وقابلهم فى بجاية بتونس أو ببلاد المشرق ، فهو يقول عن سلام الجبجلى : رأيته يُقرئ النحو ببجاية لما دخلتها سنة تسع وسبعين وستمائة ، ويقول عن ابن خروف : مات بحلب ، ويقول عن ابن السمينة : رحل إلى المشرق ومات بها .

٦ - ذكر فيه أبو حيان علماء الأندلس الذين أجازوا له ؛ وهم : ابن الزُّبير (ت ٧٠٨هـ) ، والحسين بن محمد التَّعْمَرى (ت بعد ٦٧٥هـ) ، وعبد الله بن أبى عامر يحيى ابن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى القرطبى (ت ٦٦٦ هـ) ، ويوسف بن إبراهيم ابن يوسف بن سعيد بن أبى ريحانة المالقى أبو الحجاج المعروف بالمربلىّ (ت٦٧٢ هـ) ، إلى جانب ترجمته لهم .

وها هى النصوص الخمسة والعشرون نقلتها من «بغية الوعاة» للسيوطى (ت ٩١١هـ) ، ووثَّقتها فيه ، وهؤلاء هم النحويون الذين تُرجَم لهم فى البغية نقلاً عن أبى حيان .

(١) محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك ، العلامة ، جمال الدين أبو عبدالله الطائى الجيّانىّ الشافعىّ النحوىّ (ت ٦٧٢هـ)[١] .

قال أبو حيّان : بحثت عن شيوخه فلم أجد له شيخا مشهورًا يعتمد عليه ، ويُرجع فى حلّ المشكلات إليه ، إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال : قرأت على ثابت بن حيّان بجيّان ، وجلست فى حلقة أبى على الشَّلَوْبين نحوًا من ثلاثة عشر يومًا ؛ ولم يكن ثابت بن حيّان من الأئمة النحويين ، وإنما كان من أئمة المقرئين .

قال : وكان ابن مالك لايحتمل المباحثة ، ولا يثبت للمناقشة ؛ لأنه إنما أخذ هذا العلم بالنظر فيه بخاصة نفسه ، هذا مع كثرة ما اجتناه من ثمرة غرسه . انتهى .

(١) بغية الوعاة ١/١٣٠ - ١٣١ رقم ٢٢٤ .

(٢) محمد بن عبدالله بن مصالة الفازارى الركلاوىّ ، أبو عبدالله[١] .

ويعرف بابن عَبُّود . قال أبو حيّان فى «النّضار» : وهم يسمّون عبد الله عبّودًا ، ومحمدًا حمّودًا .

وهو من مكناسة الزّيتون ، كان نحويًا مفسرًا لغويًا ، روى عن أبى إسحاق الكمال وأبى جعفر بن فرتون الحافظَيْن ، وأجاز لأبى الحسين اليَسر بن عبد الله الغرناطىّ .

(٣) محمد بن علىّ بن يحيى ، أبو عبدالله قاضى الجماعة[٢] .

المعروف بالشريف ، شهرة لانسبًا . قال أبو حيّان فى «النُّضار» : كان بمُرَّاكش فى زمن ابن أبى الرَّبيع يدرس «كتاب سيبويه» والفقه والحديث ، ويميل إلى الاجتهاد ، وله مشاركَة فى الأصول والكلام والمنطق والحساب ، ويغلب عليه البحثُ لا الحفظ . روى عن الحافظ أبى الحسن بن القطّان وغيره ، وأخذ النّحو عن يحيى بن راجل شارح «الجزُوليّة» ، وقرأ عليه جماعة ، أجلُّهم أبو عبد الله الصِّنْهاجى وأبو إسحاق العطّار شارح «الجزُوليّة» .

ومات بمراكش عام اثنين وثمانين وستمائة .

(٤) محمد بن موسى السلوىّ النحوىّ الأديب (ت ٦٨٥ هـ)[٣]

قال أبو حَيّان : قرأ «كتاب سيبويه» على ابن أبى الربيع ، وبرع فيه ، وأقرأ النّحو بفاس ، وكان فاضلاً نزِهًا وقورًا مهيبًا .

مات سنة خمس وثمانين وستمائة وسنّه نحو من خمس وعشرين سنة .

(٥) أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير بن محمد بن إبراهيم بن الزُّبير بن الحسن ابن الحسين الثقفىّ العاصمى[٤]

الجيّانىّ المولد ، الغَرناطىّ المنشأ ، الأستاذ أبو جعفر . قال تلميذه أبو حيّان فى «النُّضار» : كان محدِّثًا جليلاً ، ناقدًا ، نحويًا ، أصوليًا ، أديبًا ، فصيحًا ، مفوّهًا ، حسن الخطّ ، مقرئًا مفسرًا مؤرخًا . أقرأ القرآن والنّحو والحديث بمالقة وغَرْناطة وغيرهما ؛ وكان كثير الإنصاف ، ناصحًا فى الإقراء ، خرج من مالَقة ومِنْ طلبته أربعة يقرأون «كتاب سيبويه» ؛ ثم عرض له أنّ السلطان تغيّر عليه فجعل سجنه دارَه ، وأذِن له فى حضور الجمعة ، فلما مات شيوخ غَرْناطة ، وشَغَر البلد عن عالمٍ رضى عليه ، وقعد بالجامع يفيد الناس .

(١) بغية الوعاة ١٤٧/١ رقم ٢٤٢ .
(٢) بغية الوعاة ١٩٣/١ - ١٩٤ رقم ٣٢٨ .
(٣) بغية الوعاة ٢٥٣/١ رقم ٤٦٨ .
(٤) بغية الوعاة ٢٩١/١ - ٢٩٢ رقم ٥٣٢ .

وولىَ الخطابة والإمامة بالجامع الكبير، وقضاء الأنكحة، وتخرّج عليه جماعة، وبه أبقى الله ما بأيدى الطّلبة من العربيّة وغيرها.

وكان محدّث الأندلس بل المغرب فى زمانه، خيِّرًا، صالحًا، كثير الصدقة، معظّمًا عند الخاصّة والعامّة، متحريًا، أمّارًا بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، لاينقل قدمَه إلى أحد، جرت له فى ذلك أمور مع الملوك صَبَر فيها، ونطق بالحقّ بحيث أدّى إلى التضييق عليه وحبسه.

وروى عن أبى الخطاب بن خليل، وعبد الرحمن بن الفرس، وابن فرتون، وأجاز له من المشرق أبو اليُمْن بن عساكر وغيره.

صنّف تعليقًا على «كتاب» سيبويه، و«الذّيل على صلة ابن بشكوال».

ولد سنة سبع وعشرين وستمائة، ومات يوم الثلاثاء ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعمائة.

ومن شعره:

مــالِى وللتَّســآلِ لا أمَّ لى   إنْ سَلْتُ مَن يُعـزَل أو مَنْ يَلِى
حَسْـبِى ذُنُوبِى أثقلَتْ كـاهِلِى   مـا إن أرى غَمّـاءَها تَنْجَلِى

(٦) أحمد بن إبراهيم بن سهل الأنصاريّ، الأستاذ النحوى[١]

روى عن أبى سعد بن غنائم الحمويّ الضرير، وعن أبى إسحاق الغرناطيّ «الأربعين» له، رواها عنه أبو عبد الله بن يخلف.

قاله أبو حيّان.

(٧) أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد، أبو جعفر المالَقيّ النحويّ (ت٧٠٢هـ)[٢]

قال فى «النُّضار»: كان عالمًا بالنّحو، وكان لايقرأ «كتاب» سيبويه، فكان أصحابنا إذا ذُكر يقولون: هلْ يقرأ «كتاب» سيبويه؟ فيقال: لا، فيقولون: لا يعرف شيئًا.

(١) بغية الوعاة ١/٢٩٣ رقم ٥٣٤.
(٢) بغية الوعاة ١/٣٣١ - ٣٣٢ رقم ٦٢٧.

وكان ضيّق الحال فدخل المَرِيّة ، فوجدها صِفْرًا ممْن يشتغل بالنحو ، فأقام بها يشغل الناس فيه ، فحسُنت حاله ، وأنجب عليه أبو الحسن بن أبى العَيْش ، وكان قرأ النّحو على أبى المفرّج المالقى ، وتلا على أبى الحجّاج بن ريحانة ، وكان شديد البَلَه ، طبخ قِدْرًا فوجدها تعوزُ الملح ، فوضع فيها مِلحًا غير مطحون ، ثم ذاقها قبل أن ينحلّ الملح ، فزادها حتى صارت زُعاقًا .

صنّف «شرح الجزُولية» ، وشرح «مقرّب» ابن هشام الفِهْرِىّ ، وصل فيه إلى باب همزة الوصل ، و«رصف المبانى فى حروف المعانى» من أعظم ما صُنّف . ويدلّ على تقدّمه فى العربية ، وله تقييد على «الجُمل» وغير ذلك .

مات يوم الثلاثاء سابع عشرين ربيع الآخر سنة ثنتين وسبعمائة .

(٨) أبو بكر بن الصّائغ(١)

ويُعرف أيضًا بابن باجة ، ذكره أبو حَيّان فى «النُّضَار» ، فقال : كان عالمًا بالأدب والنّحو ، ونظر في كلام الحكماء فكان يشبَّه بابن سينا ، ذكره الفتح بن خاقان فى «القلائد» ، ونسبه إلى الزّندقة .

(٩) حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصارى القرطبىّ النّحوى ، أبو الحسن هنىء الدين (ت ٦٨٤ هـ)(٢)

شيخ البلاغة والأدب ، قال أبو حيّان : هو أوحد زمانه فى النَّظْم والنثر والنّحو واللّغة والعَروض وعلم البيان ؛ روى عن جماعة يقاربون ألفًا ، وروى عنه أبو حيّان ، وابن رُشيد وذكره فى رحلته فقال : حَبْر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدًا ممن لقيناه جمع من علْم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم ؛ من منقول ومبتدع ، وأمّا البلاغة فهو بحرها العذْب ، والمتفرّد بحمل رايتها ، أميرًا فى الشّرْق والغَرْب .

وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حمّاد راويتها ، وحمّال أوقارها ، يجمع إلى ذلك جوْدةَ التصنيف وبراعة الخَطّ ، ويضرب بسهم فى العقليّات ، والدّراية عليه أغلب من الرّواية .

(١) بغية الوعاة ١/٤٧٥ رقم ٩٧٧ .

(٢) بغية الوعاة ١/٤٩١ - ٤٩٢ رقم ١٠١٨ .

صنّف : «سراج البلغاء» فى البلاغة ، وكتابا فى القوافى ، وقصيدة فى النحو على حرف الميم .

مولده سنة ثمانٍ وستمائة ، ومات ليلة السبت رابع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة .

ومن شعره :

مَنْ قال حَسْبِى مِنَ الورى بَشَرٌ ... فحسبىَ الله حَسْبِى الله
كم آيةٍ للإله شاهدةٍ ... بأنّه لا إله إلا هُو !

(١٠) الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن محمد ، الإمام أبو علىّ ابن أبى الأحوص القرشى الفهرىّ (ت ٦٧٩ هـ)[١] .

الغرناطىّ الموطن ، البلنسىّ الأصل ، الجيانىّ المولد . ويعرف أيضًا بابن النّاظر ، الحافظ النحوىّ .

قال أبو حيّان فى «النّضار» : كان فيه بعض ترفّع وتعتّب على الدّنيا حيث قُدّم مَنْ هو دونه ، وكان لا يحكم برأى ابن القاسم بل بما يرى أنّه صواب .

وله «شرح المستصفى» ، و«شرح الجمل» .

ومن شعره :

رَغِبتُ عن الدُّنيا لعلمِى أنها ... محلّ حَياةِ المرءِ فيه بَلاغُ
وقد لاحَ فى فَوْدَىَّ شَيْبٌ على الرَّدَى ... دليلٌ وفيه ما أردتُ بَلاغُ
وأمَّلتُ من مَولاى نظرةَ رَحْمَةٍ ... يكونُ بها مِنِّى إليه بَلاغُ
فأحظَى إذا الأبرارُ قيلَ لهمْ غَدًا ... هَلُمُّوا إلى دارِ النَّعيم فَراغُوا
رأيتُ بَنِيها مَا رَمَتْهُم سِهامُها ... فطاشَتْ ولا حُمَّ الحِمامُ فَراغُوا
فعُجْتُ إلى دارِ البَقاءِ بهمَّتِى ... فعِنْدِى عنها راحةٌ وفَراغُ

(١١) الحسين بن محمد التّعمَرىّ ، أبو علىّ (ت بعد ٥٦٤ هـ)[٢] .

وتَعْمَر ، بفتح المثنّاة من فوق وسكون المهملة وفتح الميم ، قبيلة من البربر .

---

(١) بغية الوعاة ١/٥٣٥ - ٥٣٦ رقم ١١١١ .

(٢) بغية الوعاة ١/٤٥٠ رقم ١١٨٨ .

قال أبو حيّان فى «النضار» : نحوىٌّ أديب مفتن ، إمام ، ويعرف بالخمّاش ، أخذ العربية والأدب عن أبى عبد الله محمد بن علىّ المحلىّ ، وحدث عن الحافظ أبى العباس العَزفىّ وغيره ، أجاز لى سنة خمس وسبعين وستمائة . انتهى .

(١٢) حسّان بن محمد الجُبيبىّ الإشبيلىّ ، أبو جعفر (ت نحو ٧٠٠ هـ)[١]

قال أبو حيّان فى «النُّضَار» : كان لغويًّا أديبًا مجيدًا ، حسَن الخطّ ، رأيته بغَرْناطة ، وبها تُوُفِّىَ قبل خروجى منها ، وكان فى كَنَف ملكها ابن الأحمر ، ورحل قديمًا إلى تونس ، ومدح ملكها . انتهى .

(١٣) رضوان بن عبدالله البلنسىّ ، أبو المجد[٢]

قال أبو حيّان : كانت له اليد الطُّولَى فى النّحو واللّغة والأدب .

(١٤) سلام الجِبْجَلى (ت نحو ٧٠٠ هـ)[٣]

بكسر الجيم الأولى وفتح الثانية بينهما باء موحدة ساكنة ، قال فى «النُّضار» : رأيتُه يقرئ النّحو ببِجاية لمّا دخلتها سنة تسع وسبعين وستمائة .

(١٥) عبد الله بن سُليمان بن داود بنَ عبد الرحمن بن سُليمان بن عمر ابن حَوْط الله الحارثىّ (ت ٦١٢ هـ)[٤]

قال فى «النُّضَار» : كان عبد الله هذا فقيهًا جليلاً نحويا أديبًا شاعرًا كاتبًا ، ورعًا ، ديّنًا ، حافظا ثَبْتًا ، مشهورًا بالفضل والعقل ، معظّما عند الملوك ، بارع الخطّ ، يكتب بيده اليسرى لتعذّر اليمنَى ؛ ولم يكن يخرجها من ثوبه ، ولم يعرف أحد عذرها ، يميل إلى الاجتهاد ويغلب عليه طريقة الظاهر . تردد فى أقطار الأندلس هو وأخوه سليمان ، وسمعا فى عدّة بلاد ، وحَصّلا من السماع ما لا يحصل لأحد من أهل المغرب . وولى عبد الله قضاء إشبيلية وقُرطبة ومُرسيَة وغيرها ، فتظاهر بالعَدْل وصنف .

مولده بأُنْدَة يوم الأربعاء فى رجب سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ومات بغرناطة يوم الخميس ثانى ربيع الأوّل سنة ثنتى عشرة وستمائة .

---

(١) بغية الوعاة ١/٥٤٥ رقم ١١٣٧ .
(٢) بغية الوعاة ١/٥٦٧ رقم ١١٧٨ .
(٣) بغية الوعاة ١/٥٩٤ رقم ١٢٥٧ .
(٤) بغية الوعاة ٢/٤٤ رقم ١٣٨٧ .

(١٦) عبد الله عامر يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى القرطبى ، أبو القاسم (ت ٦٦٦ هـ)[١]

قال أبو حيّان فى «النُّضار» : ومن شيوخه أبو بكر بن طلحة النحوىّ ، والحافظ أبو بكر ابن خَلفون ، وأبو ذَر مصعب بن محمد بن مسعود الخشنىّ ، وقد أجاز لى فى عميم إجازته لأهل غَرْناطة .

(١٧) عبد الواحد بن محمد بن علىّ بن أبى السّداد الأموىّ المالَقى ، أبو محمد (ت ٧٠٥ هـ)[٢]

ذكره أبو حيّان فى «النّضار» ، فقال : صاحبنا الأستاذ المقرئ النحوىّ .

(١٨) علىّ بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم الخشنىّ الأبذىّ ، أبو الحسن (ت ٦٨٠ هـ)[٣]

قال أبو حيّان فى «النّضار» : كان أحفَظ مَنْ رأيناه بعلم العربيّة ، وكان يقرئ «كتاب» سيبويه فما دونَه ، وكان فى غاية الفقر على إمامته فى العِلْم ، ولِىَ إمامة جامع القَيساريّة ، فارتفق بمعلومه . قلت يومًا للفقيه أبى إسحاق إبراهيم بن زهير - والأبْذىّ حاضر - : ما حدّ النّحو؟ فقال : هذا الشيّخ هو حدٌّ للنّحو .

مات فى رجب سنة ثمانين وستمائة .

(١٩) علىّ بن محمد بن علىّ بن محمد نظام الدين أبو الحسن ابن خَروف ، الأندلسىّ ، النّحوىّ (ت ٦٠٩ هـ)[٤]

قال الشيخ أثير الدين أبو حيّان : مات بحَلب ، وأنشد له فى الكأس :

أنا جِسْمٌ للحُمَيَّا والحُمَيَّا لى رُوحُ
بين أهلِ الظَّرْف أَغدُو كلَّ يومٍ وأَرُوحُ

وله فى نيل مصر :

ما أعجَبَ النِّيلَ ما أَحْلى شَمائِلَه فى ضِفّتَيْهِ من الأشجار أَرْواحُ

(١) بغية الوعاة ٢/٦٦ رقم ١٤٥٣ .
(٢) بغية الوعادة ٢/١٢١ - ١٢٢ رقم ١٥٩٥ .
(٣) بغية الوعاة ١/١٩٩ رقم ١٧٨٣ .
(٤) بغية الوعاة ١/٢٠٣ - ٢٠٤ رقم ١٧٩٣ .

من جنّة الخُلْد فَيّاض على تُرَع — تَهُبّ فيها هُبوبَ الرِّيح أرْواح
ليستْ زيادتهُ ماءً كما زَعَموا — وإنّما هى أرْزاق وأرْواحُ

(٢٠) علىّ بن محمد بن علىّ بن يوسف الكتّامىّ الإشبيلىّ ، أبو الحسن المعروف بابن الضائع (ت ٦٨٠ هـ)[١] .

بالضّاد المعجمة والعين المهملة .

قال فى «النّضار» : له «شرح الجمل» ، و«شرح كتاب سيبويه» ؛ جمع فيه بين شرحَى السِّيرافِىّ وابن خروف باختصار حسن .

مات فى خمس وعشرين من ربيع الآخر سنة ثمانين وستمائة ، وقد قارب السبعين .

(٢١) لُبْنَى كاتبة الخليفة المستنصر بالله الأموىّ (ت ٣٧٤ هـ)[٢]

قال فى «النّضار» : جارية الخليفة الحكَم بن عبد الرحمن ؛ كانت تكتب الخطّ الجيِّد ، نحويّة شاعرة عروضيّة ، بصيرة بالحساب ، مشاركة فى العلم ، لم يكن فى قصرهم أنبل منها .

ماتت سنة أربع وسبعين وثلثمائة .

(٢٢) مالك بن عبد الرحمن بن علِىّ بن عبد الرحمن بن الفرج ، أبو الحكم ابن المرحّل المالَقىّ النّحوىّ الأديب (ت ٥٩٩ هـ)[٣] .

له نظم فصيح فى ثعلب وغيره . ووقع بينه وبين ابن أبى الربيع فى مسألة «كان ماذا» ، فنظم مالك :

عابَ قومٌ كان ماذَا — ليتَ شِعْرِى لِمَ هذَا
وإذا عابُوه جَهْلاً — دُونَ عِلم كان مَاذَا

وجهّله ابن أبى الرّبيع ؛ وصنّف فى المنع مصنفًا .

قال أبو حيّان : وألسنة الشعّراء حداد ؛ وإلا فلا نسبةَ بين ابن أبى الرّبيع وابن المرحّل ، فإنّ ابن أبى الرّبيع ملأ الأرض نَحْوًا .

مات مالك سنة تسع وتسعين وستمائة .

---

(١) بغية الوعاة ٢/٢٠٤ رقم ١٧٩٤ .
(٢) بغية الوعاة ٢/٢٧٩ رقم ١٩٥٧ .
(٣) بغية الوعاة ٢/٢٧١ رقم ١٩٦٠ .

ومن شعره :

مَـذْهَبى تَقْـبِـيلُ خَـدٍّ مُـذهَبٍ   سيِّدى مـاذا تَرَى فى مَـذْهَبى !
لاتُخَـــالِف مــــالِكًا فى رَأْيِهِ   فـبِـه يَأخُـذُ أهلُ المَـغْــرِبِ

(٢٣) منصوُر بن أحمد بن عبدالحق المشدالىّ ، أبو عليّ[(١)]

قال فى «النّصار» : كان يشتغل ببجاية فى النّحو والفقه والأصول ، رحل إلى القاهرة ولازم العزّ بن عبد السلام ، وسمع من إبراهيم بن مُضر وأبى عبد الله بن أبى الفضل المرسىّ .

(٢٤) يحيى بن يحيى القرطبىّ الأديب المعتزلى المتكلم المعروف بابن السّمينة (ت ٣١٥ هـ)[(٢)]

قال فى «النّصار» : كان متصرّفًا فى العلوم بصيرًا بالحساب والنّجوم والطبّ ، بارعًا في النّحو واللغة والعروض ومعانى الشعر والحديث والفقه والأخبار والجدَل ، رحل إلى المشرق ومات بها سنة خمس عشرة وثلثمائة .

(٢٥) يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن سعيد بن أبى رَيْحانة الأنصارى النّحوىّ المالقىّ ، أبو الحجّاج (ت ٦٧٢ هـ)[(٣)]

ويُعرف بالمربلىّ . قال فى «النّصار» : أخذ القراءات والعربيّة عن الرُّندى ولازمه ، وقرأ عليه الكثير تَفَهُّمًا ؛ ككتاب سيبويه ، والجُمل ، والكامل ، والإصلاح ، وأدب الكاتب ، والغريب المصنّف ، والحماسة ، وغير ذلك .

وسمع الحديث منه ومن أبى الحجّاج يوسف بن محمد الفهرىّ ، وأبى إسحاق الخَوْلانىّ ، وأجاز له أبو القاسم الغافقىّ وأبو الخطاب بن واجب وأبو بكر بن طلحة وجماعة ، وأقرأ ببلده القرآن والعربيّة ، ثم رجع عن الإقراء ، وآثر الخمول والانزواء ، ثم ولى الخطبة والصّلاة بجامع مالَقة ، وكان من أهل الفَضْل والدِّين والخير .

مات فى آخر سنة ثنتين وسبعين وستمائة .

قال أبو حَيّان : وكتب لى بالإجازة من مالَقة .

(١) بغية الوعاة ٣٠١/٢ رقم ٢٠٢٥ .
(٢) بغية الوعاة ٣٤٥/٢ رقم ٢١٤٩ .
(٣) بغية الوعاة ٣٥٣/٢ رقم ٢١٦٨ .

إرشاد الخل لتحقيق الساعة بربع الشعاع والظل

لـ

عبد السلام بن محمد بن أحمد الحسني العلمي

{١٢٤٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٣٠ - ١٩٠٥م}

انتقاه وقدم له : أحمد عبد الباسط*

صاحب هذا النص طبيبٌ عربيٌّ مسلمٌ ، وعالمٌ بالميقات ، تخرّج فى مدرسة الطب بالقاهرة ، ثم أنشأ مصحّةً صغيرةً ببلده « فاس» . ما إن انفتحت حدقته لتنظر إلى هذا الفلك الغريب حتى وجد إرثًا زاخرًا خلّفه له أجداده من علماء الحضارة الإسلامية . فأجداده هم الذين عرفوا هيئة الأفلاك والمجموعات النجمية ، وهم الذين ابتكروا آلة ذات أوتار لتحديد الزمن فى العروض المختلفة ، وهم الذين اهتدوا إلى المزاول الشمسية المتنوعة لمعرفة أوقات الصلاة وساعات الليل والنهار ، وهم الذين طوروا آلة الإسطرلاب ، واخترعوا التلسكوب ، وهم أيضًا الذين صححوا أخطاء بطليموس الفلكية فى كتابه «المجسطى» ، وهم أول من توصلوا إلى قاعدة الانحراف القمرى الثالث .

أولَئكَ آبائى فَجِئنى بِمِثلِهِم إذا جَمَعَتنا يا جَريرُ المَجامِعُ

أجل ؛ من ذا الذى ينسى بنى موسى ، وأبا الريحان البيروني ، وأبا الوفا البوزجانى ، وعبد الرحمن الصوفى ، والخجندى ، وابن يونس ، ومسلمة المجريطى ، وعمر الخيام ، والبتانى ، ونصير الدين الطوسى . . . . . وغيرهم كثير ؟!!

وبعدُ ؛ فها نحن نقدّم إليك أيها الغيورُ على تراثه ــ جهدًا أدلى به صاحبه ضمن دلاء من سبقوه فى هذا المضمار ؛ نظرَ إلى ذلك الميراث الذى سُلبناه فى غفوةِ الليل ، وغَلس الظلام ، فحاول أن ينزع عنه شرك العوائق ، وغبرة الزمان ، فأخذ يسير على هديهم ، ويتّبع طريقتهم المثلى .

فها هو يقدّم لنا آلة شعاعية طالما تنافس فى اختراعها «جَميعُ الحُكَماءِ ، وحَضّ عَلى النَّظَرِ فى العُلومِ المُوَصّلة لِذلكَ كُلُّ العُلماءِ ، ومَا زَالَتْ أَفْكارُ العُلماءِ تَسْتَخْرِجُ دُرَر

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

العُلومِ ، ويُحَقِّقُ المتَأخِّرُ مِنْهُم مَا لم يَحُمْ حَوْلَ تَحْقِيقِه المُتَقَدِّمُ الفُهُومُ» .

أقول : صنع واستنبط صاحبنا هذه الآلة ـ التى نقدّم لها ، ونُرفق معها نصّها ـ ليجمع بها أكثر من وظيفة ؛ فمن خلالها يمكن :

أ – معرفة عرض البلد من غاية الارتفاع .

ب – معرفة الميل .

ج – معرفة أوقات الصلاة ، وساعات الليل من النهار .

د – معرفة الجهات الأربعة .

وهذه هى الأبواب الأربعة للنص الذى نرفقه مع تلكم الآلة البديعة ، وكيفية العمل بها ، بالإضافة إلى مقدمة فى تسمية أجزائها ورسومها .

والجدير بالذكر أن هذه الآلة موجودة ـ بحالة جيّدة ـ بقسم المخطوطات بدار الكتب والوثائق القومية ، ويمكن لأهل الاختصاص الإفادة منها بعد التعرّف على تركيبها ، وغنيٌ عن البيان ما لهذا العمل من فوائد تعليمية جمّة لطلاب المدارس والجامعات ، ولرواد المتاحف وأندية العلوم ـ إذا ما وُجدَ من يتعهّده بالرعاية والاهتمام .

وختامًا : لا يفوتنى أن أشكر كل من ساعد فى إخراج هذا العمل ؛ وأخُصّ بالشكر أستاذى الدكتور أحمد فؤاد باشا ، وقسم المخطوطات بالدار الموقرة : مديرًا ورئيسًا وموظفين . والحمد لله وحده .

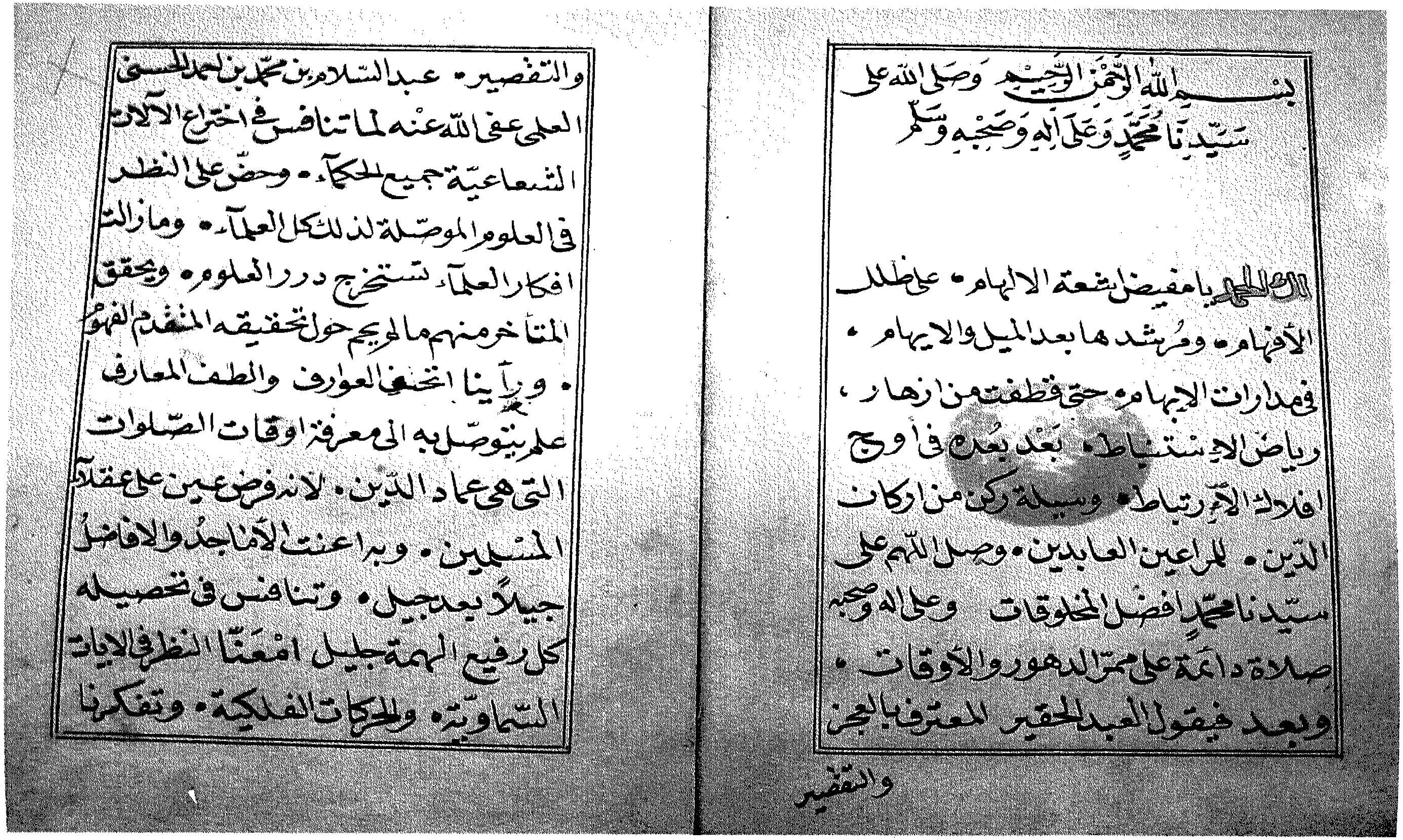

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله يا مفيض أشعة الالهام • على ظلل
الأفهام • ومرشدها بعد الميل والايهام •
في مدارات الابهام • حتى قطفت من ازهار •
رياض الاستنباط • بعد بعدها في أوج
أفلاك الارتباط • وسيلة ركن من أركان
الدين • لمراعين العابدين • وصل اللهم على
سيدنا محمد أفضل المخلوقات وعلى آله وصحبه
صلاة دائمة على ممر الدهور والأوقات •
وبعد فيقول العبد الحقير المعترف بالعجز
والتقصير

والتقصير • عبد السلام بن محمد بن أحمد الحسني
العلمي عفى الله عنه لما تنافس في اختراع الآلات
الشعاعية جميع الحكماء • وحض على النظر
في العلوم الموصلة لذلك كل العلماء • وما زالت
أفكار العلماء تستخرج درر العلوم • ويحقق
المتأخر منهم ما لم يحم حول تحقيقه المتقدم الفهوم
• ورأينا اختفى العوارف ولطف المعارف
علم يتوصل به الى معرفة أوقات الصلوات
التي هي عماد الدين • لأنه فرض عين على عقلاء
المسلمين • وبرعت الأماجد والأفاضل
جيلاً بعد جيل • وتنافس في تحصيله
كل رفيع الهمة جليل أمعنا النظر في الآيات
السماوية والحركات الفلكية • وتفكرنا

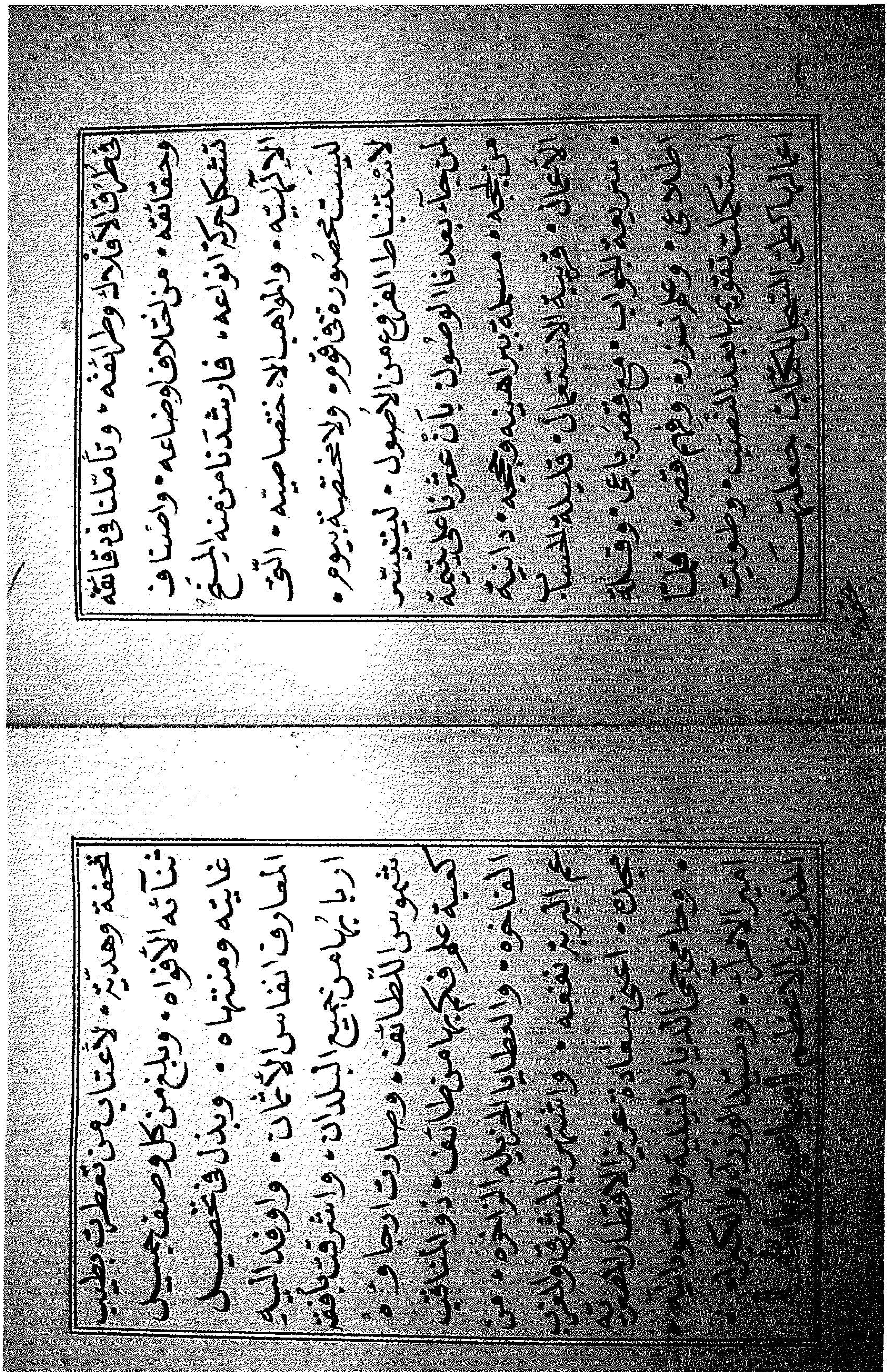

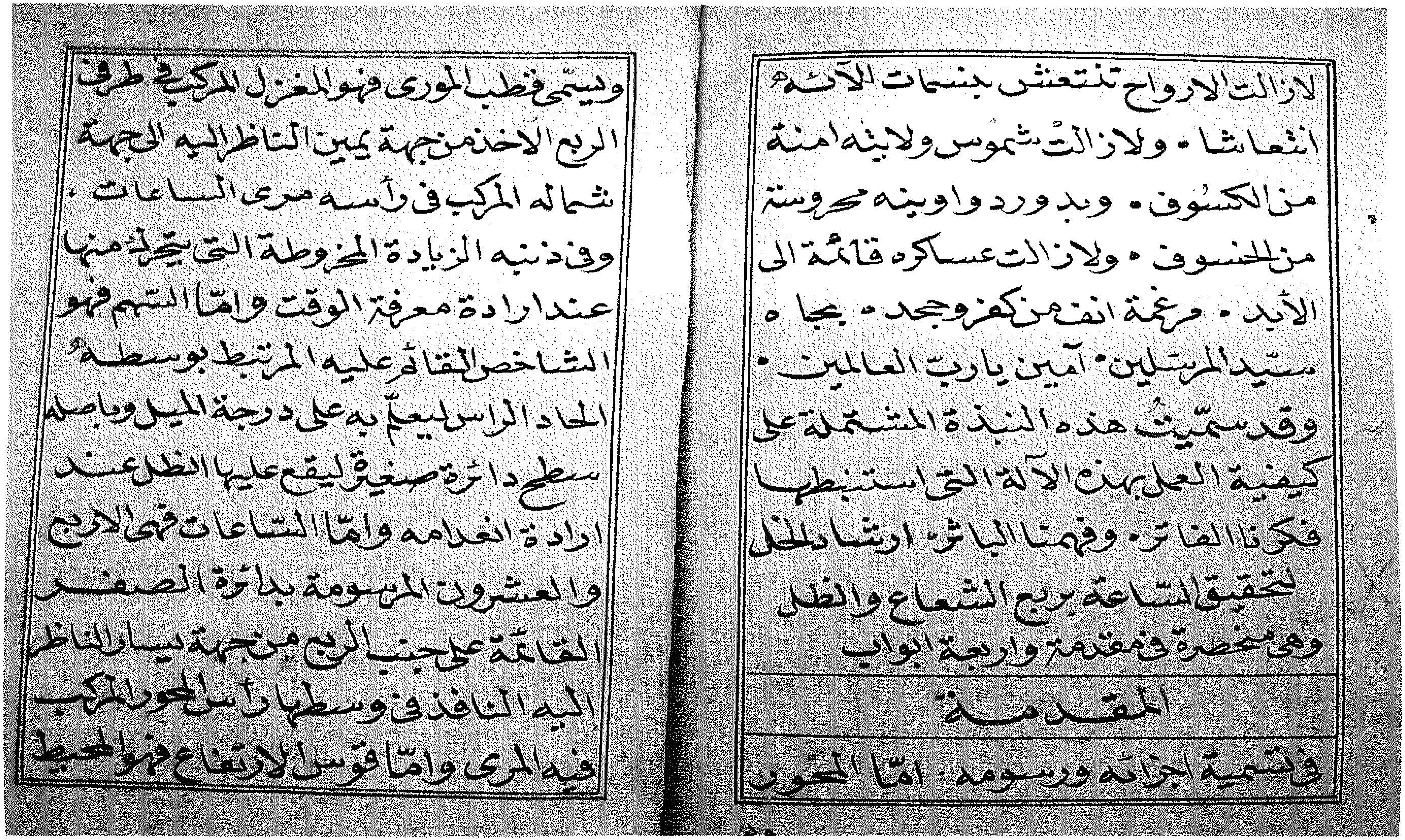

لازالت الارواح تنتعش بنسمات الآئه
انتعاشا • ولازالت شموس ولايته امنة
من الكسوف • وبدور دواوينه محروسة
من الخسوف • ولازالت عساكره قائمة الى
الأبد • ورغمة انف من كفر وجحد • بجاه
سيد المرسلين • آمين يارب العالمين •
وقد سميت هذه النبذة المشتملة على
كيفية العمل بهذه الآلة التي استنبطها
فكرنا الفاتر • وفهمنا الباتر • ارشاد الحلل
لتحقيق الساعة بربع الشعاع والظل
وهي منحصرة في مقدمة واربعة ابواب

المقدمة

في تسمية اجزائه ورسومه • اما المحور

ويسمى قطب الموري فهو المغزل المركب في طرف
الربع الآخذ من جهة يمين الناظر اليه الى الجهة
شماله المركب في رأسه مري الساعات •
وفي ذنبه الزيادة المخروطة التي يخرج منها
عند ارادة معرفة الوقت واما السهم فهو
الشاخص القائم عليه المرتبط بوسطه
الحاد الراس ليعلم به على درجة الميل وباصله
سطح دائرة صغيرة ليقع عليها الظل عند
ارادة انعدامه واما الساعات فهي الاربع
والعشرون المرسومة بدائرة الصفر
القائمة على جنب الربع من جهة يسار الناظر
اليه النافذ في وسطها رأس المحور المركب
فيه المري واما قوس الارتفاع فهو المحيط

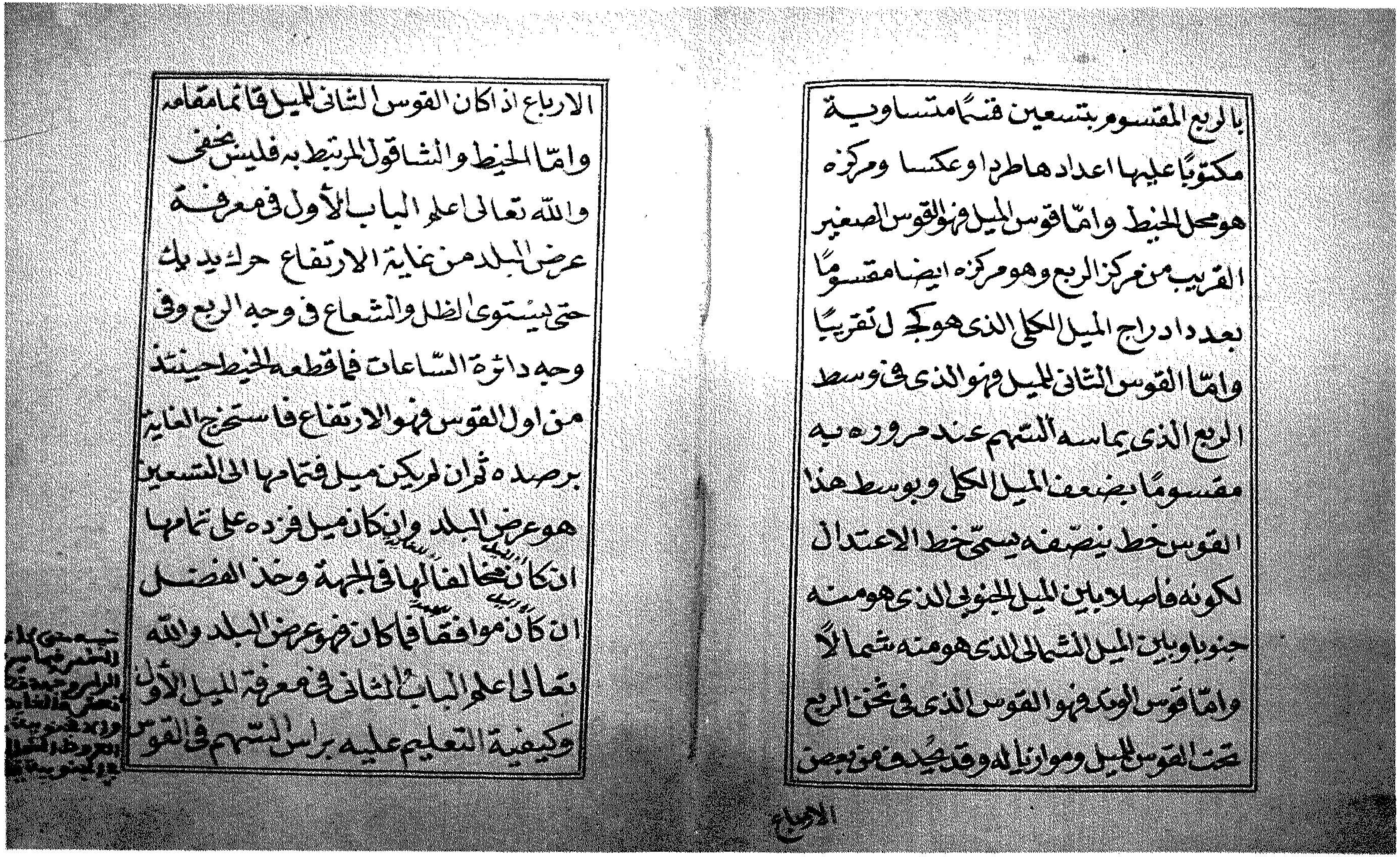
بالربع المقسوم بتسعين قسما متساوية
مكتوبا عليها اعدادها طردا وعكسا ومركزه
هو محل الخيط واما قوس الميل فهو القوس الصغير
القريب من مركز الربع وهو مركزه ايضا مقسوما
بعدد ادراج الميل الكلي الذي هو كج ل تقريبا
واما القوس الثاني للميل فهو الذي في وسط
الربع الذي يماسه السهم عند مروره به
مقسوما بضعف الميل الكلي وبوسط هذا
القوس خط بنصفه يسمى خط الاعتدال
لكونه فاصلا بين الميل الجنوبي الذي هو منه
جنوبا وبين الميل الشمالي الذي هو منه شمالا
واما قوس الوكد فهو القوس الذي في ثخن الربع
تحت القوس الميل وموازيا له وقد يحذف من بعض
الارباع

الارباع اذا كان القوس الثاني للميل قائما مقامه
واما الخيط والشاقول المرتبط به فليس يخفى
والله تعالى اعلم الباب الاول في معرفة
عرض البلد من غاية الارتفاع حرك يديك
حتى يستوي الظل والشعاع في وجه الربع وفي
وجه دائرة الساعات فما قطعه الخيط حينئذ
من اول القوس فهو الارتفاع فاستخرج الغاية
برصده ثم ان لم يكن ميل فتمامها الى التسعين
هو عرض البلد وان كان ميل فزده على تمامها
ان كانا متخالفين في الجهة وخذ الفضل
ان كانا موافقين فما كان فهو عرض البلد والله
تعالى اعلم الباب الثاني في معرفة الميل الاول
وكيفية التعليم عليه براس السهم في القوس

الثانى للميل أفقى قوس الارتفاع مقام منطقة
فلك البروج طردا وعكسا واجعل اول القوس
هو اول الحمل فيكون اول الحمل والميزان من اول
القوس واول الجدى والسرطان من اخره
ثم ضع الخيط على درجة الشمس من قوس
الارتفاع فما قطعه الخيط من قوس الميل
فهو ميل الشمس وهو شمالى ان كانت الشمس
فى سنة الحمل وجنوبى ان كانت فى سنة الميزان
فابعد بقدره عن خط الاعتدال فى جهته
من القوس الثانى للميل وعلم على ذلك البعد
برأس السهم فيكون مسامتا لمدار الشمس
فى ذلك اليوم والله اعلم وهو الملهم الباب
الثالث فى معرفة اى ساعة انت من ساعات

النهار

ويسمى هذا الميل الثانى جهة خطوط الناظر الى الربع وجهة الميل الاول جهة خطوط الناظر الى الربع

النهار وكم مضى منها ضع رأس السهم على قوس
الوتد وليكن مسامتا للدرجة ميل الشمس
فى جهته من جنوب وشمال ثم علم بالمورى
الساعة الثانية عشر المستعلى وهى اولى
من غير ان تحرك المحور ويكون رأس المورى
مرتفعا عن صفيحة الساعات عند دورانه
عليها لئلا يماسها فيخل بالعمل ثم امسك الربع
بيديك وعلق فى خيطه شاقولا وحرك
بيديك حتى يقطع الخيط من اخر قوس الارتفاع
عرض البلد الذى انت فيه ويكون الخيط
لا داخلا فى الربع ولا خارجا عنه ثم حرك المحور
من ذنبه المخروط ذاهبا برأس السهم الى
جهة المشرق والاولى ان تكون مواجها للشمس

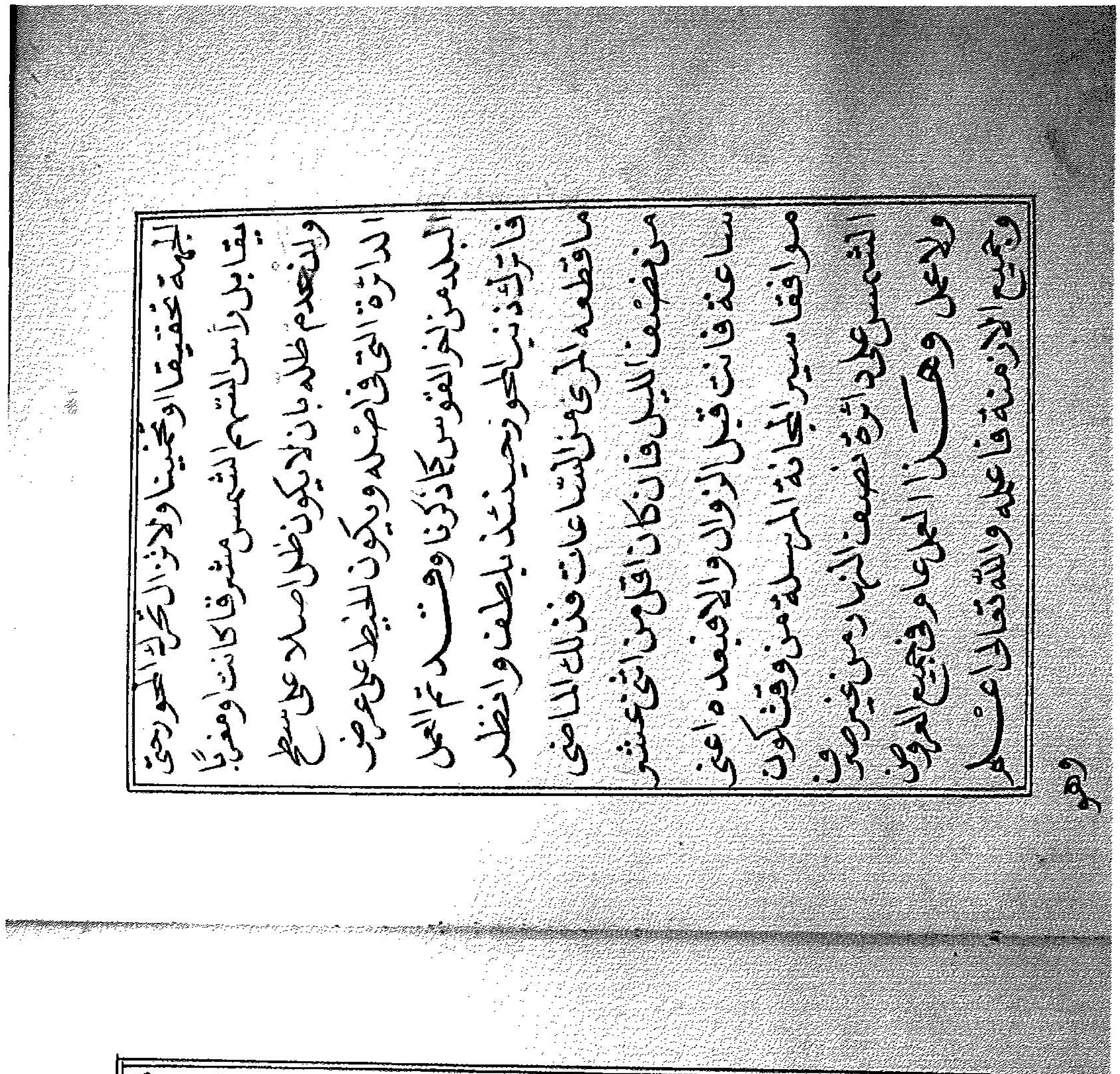
الجهة تحقيقا او تخمينا ولا تزال تحرك المحور حتى
يقابل رأس السهم الشمس مشرقا كانت او مغربا
وان عدم ظله بان لا يكون ظل اصلا على سطح
الدائرة التي في اصله ويكون الخيط على عرض
البلد من اخر القوس كما ذكرنا وقد تم العمل
فاترك ذنب المحور حينئذ بلطف وانظر
ما قطعه المري من الساعات فذلك الماضي
من نصف الليل فان كان اقل من اثني عشر
ساعة فانت قبل الزوال والا فبعده اعني
موافقا سير الجانة المرسلة من وقت كون
الشمس على دائرة نصف النهار من غير صرف
ولا عمل وهذا العمل عام في جميع العروض
وجميع الازمنة فاعلمه والله تعالى اعلم
وهو

وهو الملهم لا رب غيره تنبيه لا بد من
ان يكون وجه الربع مظللا قبل الزوال ونيرا
بعده ويعرف قبله وبعده من قبل زيادة
الارتفاع ونقصانه بعمل الباب الاول تنبيه
آخر قد يكون في ظهر بعض الارباع قوس
مثل قوس الارتفاع يعتبر من اوله العرض
ان كان الوقت قبل الزوال فيكون العمل به
اسهل الباب الرابع في معرفة الجهات الاربع
اعلم ان سطح الربع عندما ظل الشاخص
بعمل الباب الثالث يكون قطعة من سطح
دائرة نصف النهار فعليه اذا
خططت في الارض خطا موازيا لسطح
الربع وهو على تلك الحالة كان هو خط الزوال

ورأسه الموالي الجهة آخر القوس هو عين
الشمال فاقم عليه خطا على زوايا قائمة
يكون هو خط المشرق والمغرب وقد
تحددت الجهات الاربع فابعد عن عين
المشرق او المغرب بقدر سمت قبلة بلدك
في ربعه يحصل سمت القبلة والله تعالى
اعلم

تم بحمد الله وعونه
وحسن
توفيقه
م

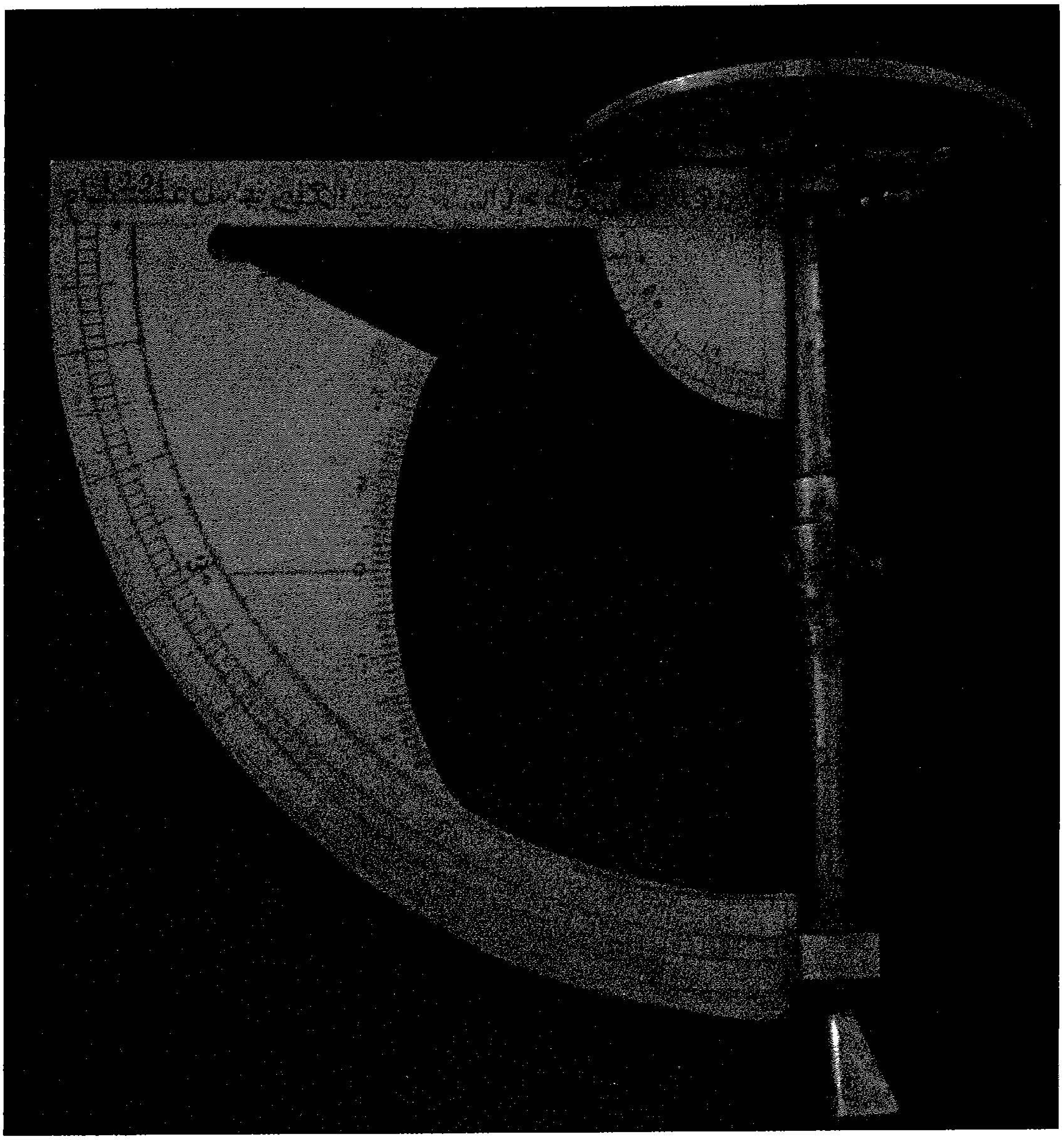

صورة مجملة وفيها يظهر بوضوح قوس الارتفاع والميل والوتد

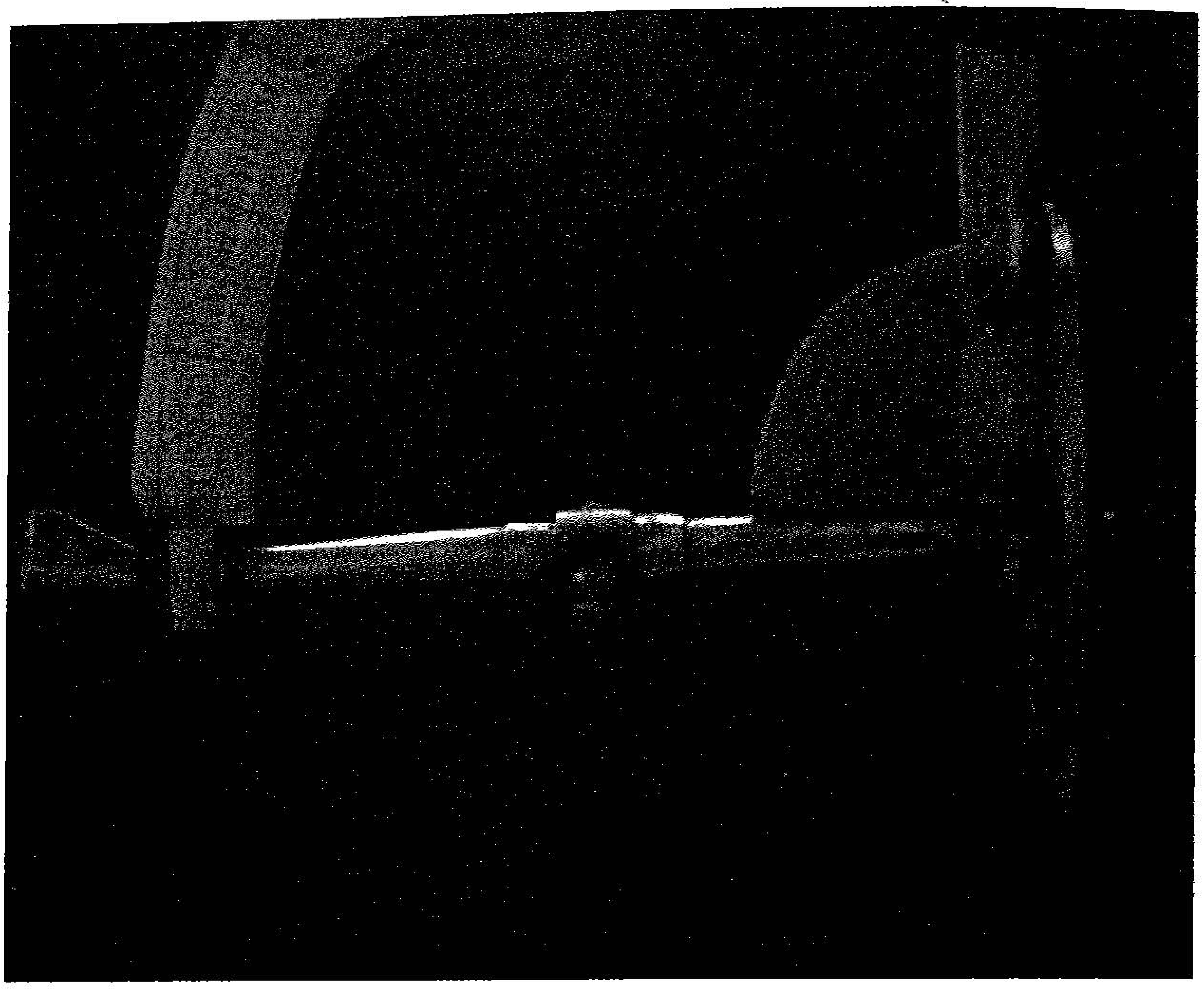

محور الآلة (قطب المزوّى)

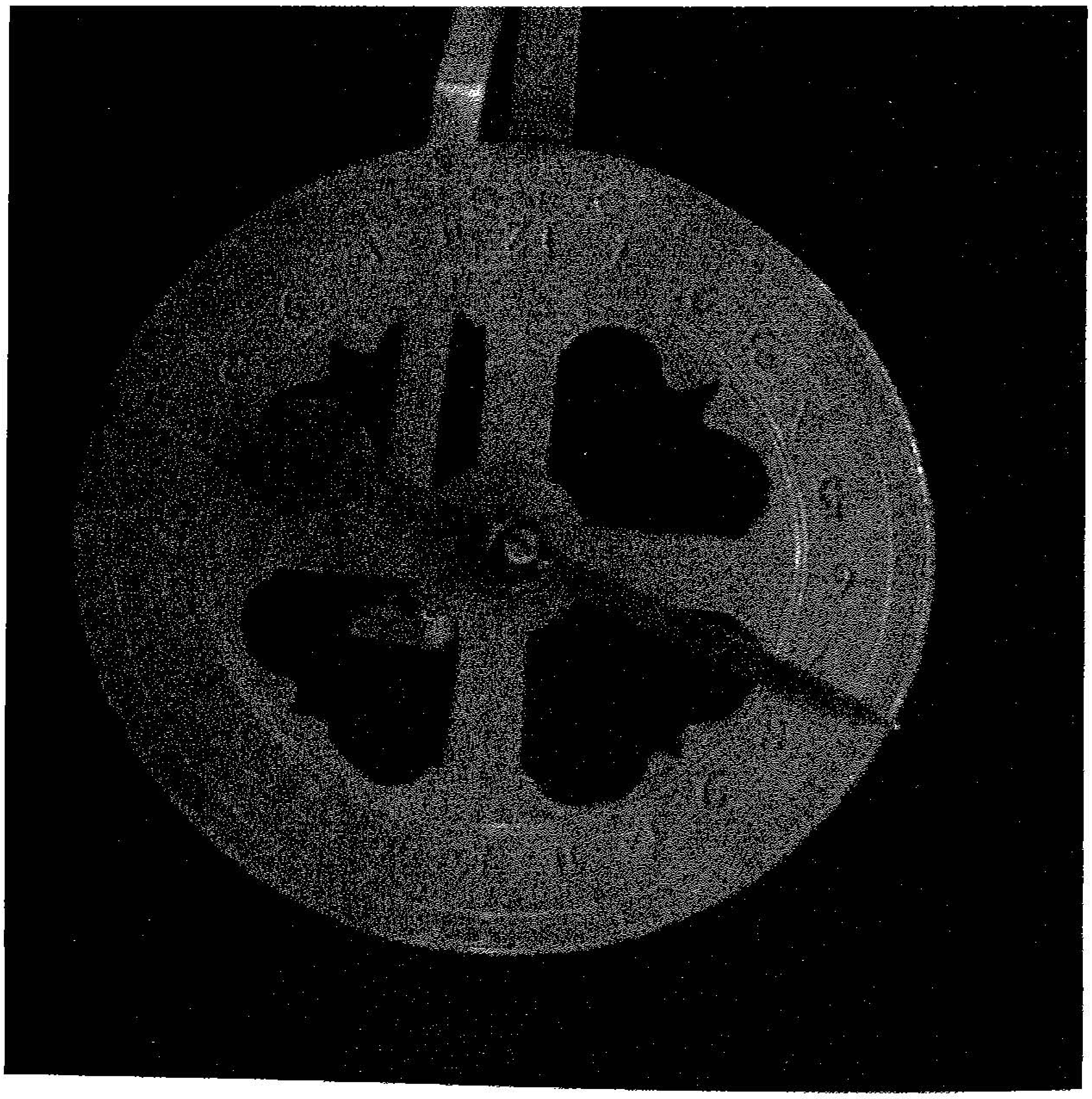

مري الساعات وفي وسطها سهم قائم

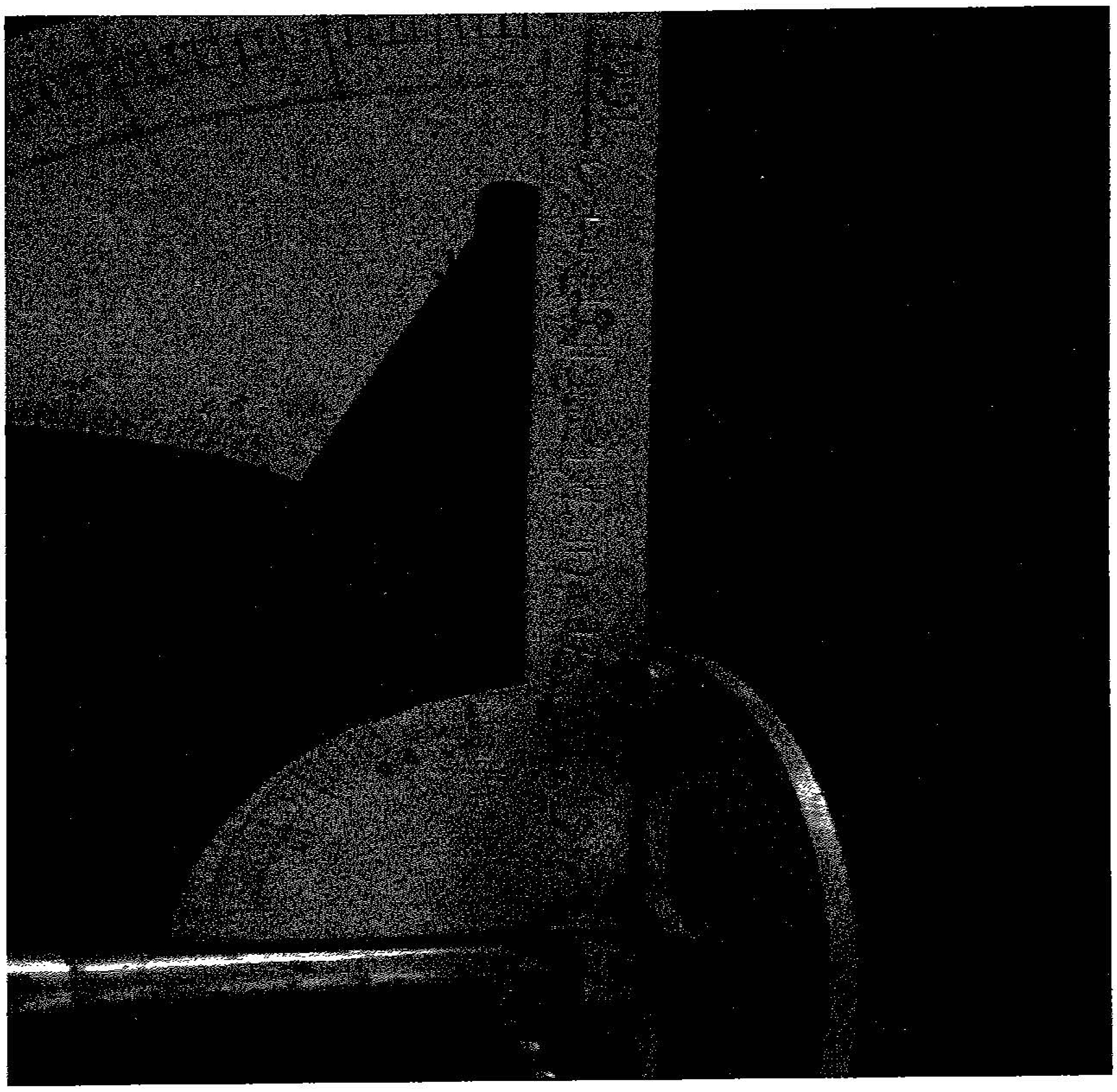

الجزء العلوي من قوس الارتفاع، وقد حفر عليه ما نصه :
(صنعه مستنبطه عبدالسلام الحسني العلمي بفاس عام ١٢٩١ هـ)

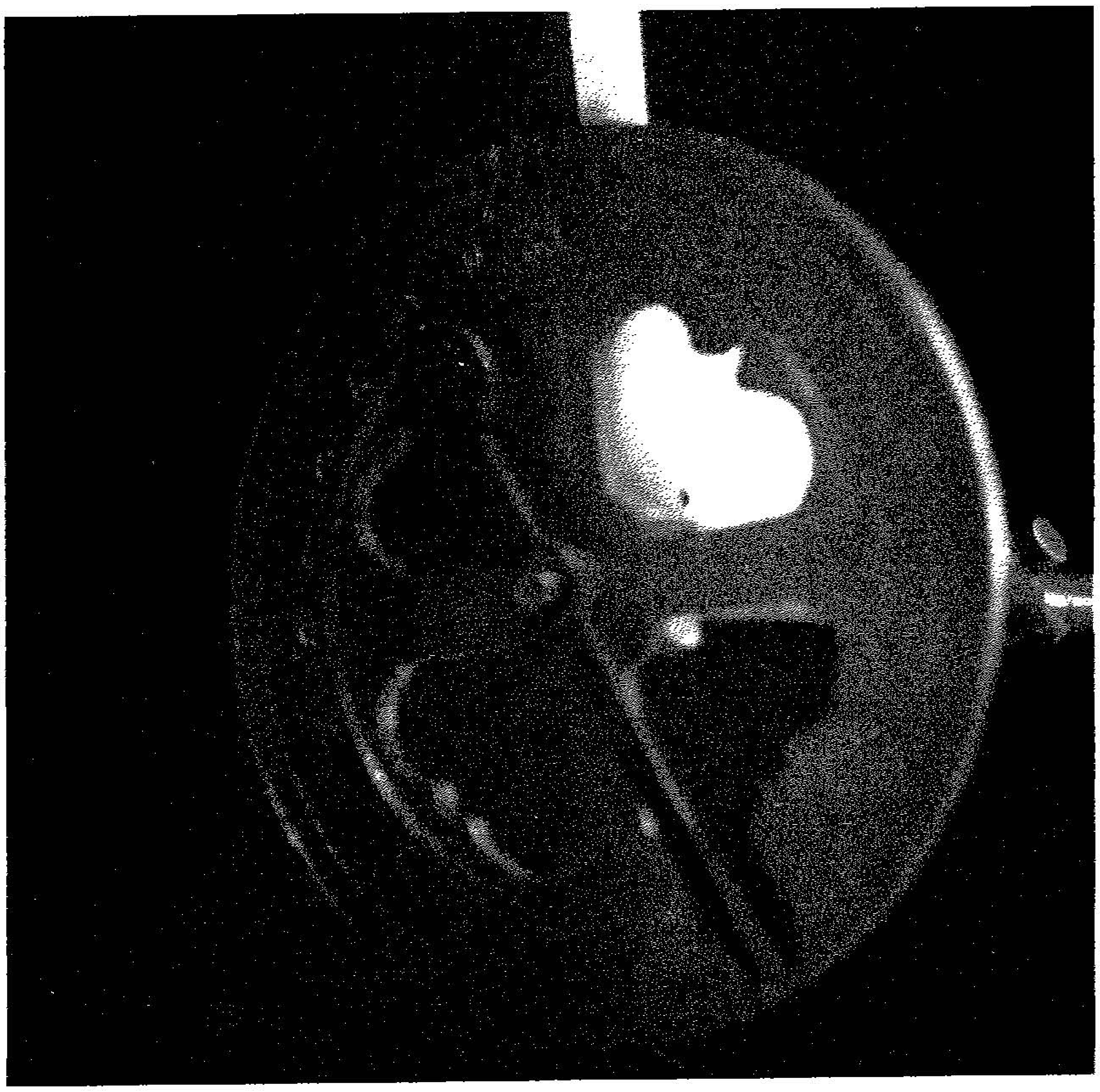

صورة أخرى من مرى الساعات، وقد قُسمت فيها الساعات إلى أربع وعشرين ساعة

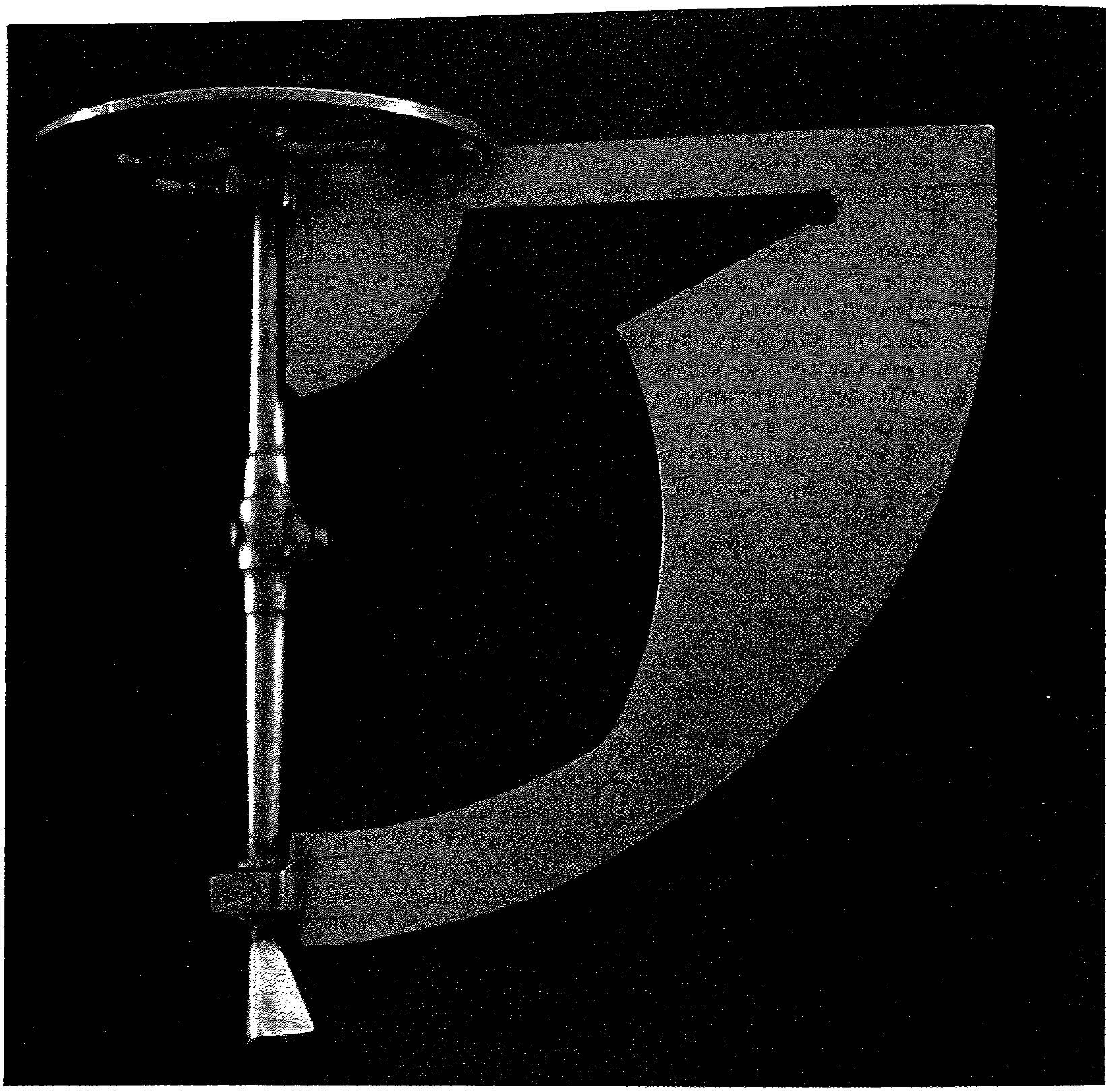

صورة خلفية للآلة

تاريخ خزائن الكتب بالمغرب
قراءة في كتاب د. بنبين

د. فيصل الحفيان*

لست أدرى هل ما سأكتبه قراءةٌ لكتابٍ ، أم استبطانٌ لما فى عقلِ مؤلّفه ، أم أشياءُ من هذا وأشياء من ذاك . ولستُ أدرى إذا ما كان هذا الخليط ، كِفّةُ أيهما ستكونُ أرجح ؟ كما أنى لا أجزمُ : هل هو قراءةٌ موضوعيةٌ لكتابٍ بعينه ، أم قراءةٌ ذاتيةٌ تتكئ على كتاب ، ثم تتجاوزه إلى هموم التراث وقضاياه عامة .

أتركُ ذلك الآن ، لكنى متأكدٌ تمامًا أنّ الأمر أيًا ما كان فإنه لن يخرجَ عن حديثٍ فى «همّ التراث العربى الإسلامى فى المغرب» ، وهو همٌّ يعدُّ صدى لِهمٍّ توأمه فى المشرق . وكأن شجون الحديث المغربى هى - فى الوقت نفسه - شجون الحديث المشرقي . كلنا فى الهمِّ - إذن - شرق أو غرب ، لا فرق .

وفاتحة الحديث أنه ما كان لتراثيٍّ أو معنيٍّ بالتراث أن يقع فى يده كتاب يحمل عنوان «تاريخ خزائن الكتب فى المغرب» حتى يقرأه . فإذا ما أُضيف إلى ذلك أن صاحبَ الكتاب هو د . أحمد شوقى بنبين ، أصبح وارداً أن يحدث انتقالٌ من فعل القراءة ، قراءةِ الكتاب ، إلى فعل الكتابة ، الكتابة عن الكتاب . وإنما يحدث هذا الانتقال لأن كتابًا بهذا الموضوع - وبخاصة لنا نحن المشارقة - لمؤلَّف مثل د . بنبين ، لن تقنع منه بالقراءة التى قد تغرى بالسرعة ، وستجد نفسك - دون تردّدٍ - ميّالاً إلى التلبُّث عنده طويلاً ، فتشرعُ ببناء علاقاتٍ لا تلبث أن تتفاعلَ ، فتحرّكَ مياهًا راكدةً ، وتستثير فكرًا ، وتكون النتيجةُ أن تفرضَ الكتابةُ نفسَها فرضًا لا تُجدى معه مقاومةٌ .

* * *

الكتاب - كما نعرف - وعاءٌ يلخّص رحلةَ العقلِ الإنسانيِّ مع المعرفةِ ، وما تعنيه من حضارةٍ وتقدم . وهو - فى الوقتِ نفسه - يدفع العقلَ فى علاقةٍ جدليةٍ إلى رِحلات أخرى ، وعوالم جديدةٍ . وعليه فإن التأريخ له هو تأريخ للعقل البشرى ، ذلك السر الإلهيّ الذى استودعه الله الإنسان ، الإنسان وحده ؛ ليعمِّر الأرض ، ويجعل منه خليفةً فيها . كأنّ التأريخ للكتاب هو تأريخ لأسمى ما يملكه الإنسان ، وما يميّزه من المخلوقات .

(*) باحث فى قضايا التراث والعربية ، ومنسّق برامج معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) .

ود . بنبين واحد من نفر قليل مهموم بالكتاب ، مشغول به ، وخاصة ذلك الكتاب «القديم» الذي عُرف بعد ظهور الطباعة بـ «المخطوط» في العربية ، وبـ « manuscript» في الإنجليزية ، وبـ « manuscrit» في الفرنسية ، تمييزًا له من الكتاب الآخر الذي عرفناه بعد ظهور المطبعة .

ويمكن أن ننعت المخطوط محطّ عناية د . بنبين بـ «العربي الإسلامي» . ويمكن أن نضيف نعتًا آخر «المغربي» ، وذلك أنه دَرَس دراسة أكاديمية معمَّقة هموم هذا الكتاب «المخطوط» عامة ، ومنعوتًا بنعوته آنفة الذكر خاصة ، بوصفه وعاء للمعرفة ، وهي دراسة وصلت إلى مرحلة متقدمة في الغرب ، في حين لا تزال تحبو عندنا . على أن دراسته هذه لا تعني عدم تمكُّنه مما يحتويه هذا الوعاء من معرفة لغوية وأدبية وإخبارية ودينية ، فالرجل مثلاً على صلة وثيقة بابن الفارض ، وحقق ديوان شاعر الحمراء ، إنه باختصار منفتح على التراث بمختلف فروعه المعرفية ، لكن تميزه الأساس في ما يُسمَّى بـ «علم المخطوط العربي» أو «الكوديكولوجيا العربية» هذا اللون من الدراسة الذي لا يزال - على الرغم من خطره - نقطة مجهولة أو تكاد على خريطة المعرفة العربية اليوم .

والحق أن قراءة كتاب د . بنبين والجولة في عقل الرجل أشبه بمغامرة على خشبة ألقيت في بحر هائج في يوم عاصف ؛ إذ الرجل كما نعتُّ لك . أما الكتاب فليس كتاب تاريخ ، ولا كتاب ثقافة ، ولا كتاب علم بعينه ، بل هو كتاب يجمع هذا كله وزيادة ، فالتاريخ فيه تاريخ الفرد ؛ الخليفة والأمير والوزير والعالم والفقيه والأديب ، وتاريخ الدولة ؛ الإدريسية والسعدية والوطاسية والمرينية والعلوية ، وتاريخ الكتاب ؛ الذي نعرف عنوانه ومؤلفه ولم نره ، أو نعرف عنوانه ونجهل من ألَّفه ، والمؤسسة (الخزانة أو المكتبة) التي أنشأها ملك ، أو خليفة ، أو أمير ، أو امرأة ، أو رجل من عامة الناس . والثقافة فيه ثقافة قديمة وحديثة ، تعرِّفك بالرجال وآثارهم وعلاقاتهم وحركاتهم وهواياتهم واتجاهاتهم ، كما تكشف لك عالم الكتاب ؛ القديم والحديث ، الذي كتبته يد الإنسان ، والذي طبعته المطبعة ، خطوطه وأنواعها ، وصناعته وطرقها ، وأحباره ووسائلها ، ومواد كتابته وتطورها ، وأمورًا أخرى كثيرة . وفي ثنايا ذلك قضايا علم المخطوط العربي : الوراقة ، والفهرسة ، والوقف ، والترميم ، والمخطوطات النادرة ، والفريدة ، والمنتسخة بأقلام مؤلفيها ، والخزائنية ، والملكية ، بل حتى تلك المترجمة من اليونانية واللاتينية إلى العربية . وإلى جانب ذلك ثمة قضايا لا تقل أهمية تتصل بتنظيم المؤسسات العلمية عبر العصور ، ووظائف القائمين عليها ، وعلاقاتها مع الجمهور ، والإجراءات القانونية لحركة الكتب فيها .

عوالم من المعرفة المتشابكة المعقدة ، لكنها ممتعة ؛ لأنها تأخذك إلى عالم الإنسان وعقله فى رحلة مثيرة ، وإن كانت متعبة .

إن قراءة كتاب «تاريخ خزائن الكتب بالمغرب» مغامرة ، ليس فى ذلك مبالغة ولا تهويل ، ولذلك كان لابد أن أضع فى الطريق صُوى تهدينى حتى لا تتحطم تلك الخشبة الضعيفة ، والمغامر لمَّا يبعد بعد عن الشاطئ .

أولى هذه الصوى أن أقدِّمَ الكتابَ ببليوغرافيًا بتركيز شديد ، تحت عنوان «قبل الولوج» .

وثانيتها أن أدخل عقل مؤلفه من خلال مقدمة كتابه .

وثالثتها أن أعرض محتواه .

ولكن كيف يتأتَّى لى ذلك فى ظل هذا التشابك الذى أشرت إليه آنفًا ؟ وبرق فى ذهنى بعد طول تفكير أن أدخل إلى الكتاب من أبواب عدة ، بابٍ أدلف منه إلى المادة التاريخية ، وبابٍ ألج عبره إلى ما يتصل بالخزائن ، وثالثٍ أمور تتصل بالجغرافيا .

وما دمت قد فتحت تلك الأبواب على المادة ، فلا بأس إذن من فتح نوافذ ألقى عبرها نظرات نقدية . وبعد تطوافى ذلك تأتى الخاتمة .

هذه إذن قراءة سريعة للكتاب ، تحاول أن تلج إلى عوالم مادته من أبواب مختلفة ، وتنظر إليها من زوايا محددة ، بغية اللَّفت إلى ما فيها ، دون أن يعنى ذلك أن هذه الإشارات تغنى عن العبارات .

ويحسن التنبيه هنا إلى أن طبيعة هذه القراءة التى أعربت فى مطلع كلامى عن حيرتى تجاه كونها قراءة لكتاب أم استبطانًا لما فى عقل صاحبه ، قراءة موضوعية أم ذاتية . . خَلَطَتْ بين كلامى وكلام الكتاب ، وجعلت منهما نسيجًا واحدًا ، يعكس همًّا مشتركًا .

- ١ -

قبل الولوج

هذا كتاب صدر مؤخرًا (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) عن الخزانة الحسنية بالرباط (المملكة المغربية) لمؤلفه د . أحمد شوقى بنبين محافظ الخزانة . وقد قام بنقله د . مصطفى طوبى (تلميذ د . بنبين) من الفرنسية ، بعد أن ظل أسير هذه اللغة نحوًا من سبع عشرة سنة ، بعيدًا عن عيون المثقفين العرب والمسلمين .

والكتاب فى الأصل هو الرسالة الأكاديمية التى حصل بها د .بنبين على درجة دكتوراه الدولة فى الأدب من جامعة بوردو الثالثة (فرنسا) عام ١٩٨٦ ، تحت إشراف الأستاذين : روجى أرنالدز (Roger Arnaldez) ومارك برجى (Marc Berger) ، وكانت تحت عنوان[١] : Histoire des bibliotheques au Maroc والترجمة العربية التى قام بها طوبى (موضوع هذا البحث) هى أيضًا رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه ، تحت إشراف د . بنبين .

وقع الكتاب (النسخة العربية) فى (٣١١) صفحة من القطع المتوسط ، مصدَّرًا بتقديم د .بنبين نفسه ، ثم مقدمة المترجم ، ثم تقديم للأستاذ المشرف روجى أرنالدز ، ثم مقدمة للدكتور بنبين مرة أخرى ، وهذه الأخيرة هى مقدمة أطروحته بالفرنسية ، وقد قام المترجم بترجمتها إلى العربية .

وجاءت المادة فى بابين كبيرين : أولهما تحت عنوان «خزائن الكتب فى التاريخ الثقافى للمغرب» . وثانيهما تحت عنوان «بنية خزانات الكتب بالمغرب» . وقد شغل الباب الأول الصفحات من ٢١ حتى ١٧٢ ، والثانى من ١٧٥ حتى ٢٨٢ . ثم جاءت الخاتمة فى صفحتين (٢٨٣ ، ٢٨٤) . وأعقبتْها ببليوغرافيا بالمراجع العربية ، والمقالات ، والفهارس والقوائم الببليوغرافية ، ثم مراجع باللغات الأجنبية ، فمقالات من مجلات أو دوريات ، وفهارس وقوائم ببليوغرافية باللغات الأجنبية أيضًا ، وأخيرًا جاء فهرس المحتويات .

نعود إلى الباب الأول ، فنجده موزعًا فى أربعة فصول : الأول لبدايات خزانات الكتب فى المغرب ، والثانى لنموِّ خزانة الكتب المغربية وتطورها ، والثالث لازدهار خزانات الكتب فى المغرب ، والرابع تحت عنوان «من المكتبة التقليدية إلى المكتبة العصرية» .

أما الباب الثانى ففيه أيضًا أربعة فصول : محنة المكتبة المغربية ، وَقْف الكتب فى المغرب ، الوِراقة وخزانات الكتب ، مخطوطات المكتبات المغربية .

باختصار شديد يمكن القول إن الكتاب يعرض لنقطتين رئيستين : أولاهما تاريخية صِرْفة . وثانيتهما موضوعية صِرْفة . ولعل فى كلمة «صِرْفة» بعض التجاوز ، ففى ثنايا التاريخ مسائل موضوعية ، وفى ثنايا الموضوعية أحيانًا تاريخ ، لكن السِّمة المنهجية الغالبة هى أن يظلَّ التاريخ على حِدة ، والموضوع على حدة . وما هذا فى ذاك ، وذاك فى هذا إلا من قبيل التداخل الطبيعى اللازم فى سياق توضيح الفكرة ، ومدّ أبعادها ، وتحقيق الاكتمال لها .

---

(١) طبعت فى الرباط ، عام ١٩٩٢م .

- ٢ -

داخل عقل المؤلف

كتب د . بنبين لكتابه مقدمتين : الأولى - وإن جاءت تالية - هى التى كتبها بالفرنسية فى العام ٨٥ عندما قدَّم رسالته . والثانية - وجاءت أولى - هى التى صدَّر بها الطبعة العربية . وثمة خيط لا تخطئه عين فى الاثنتين معًا ، يتمثل فى مقدار الجهد الذى بذله فى سبيل بحثه . فما قام به كان «مهمة صعبة» أو «مخاطرة كبرى» على حدِّ تعبيره ؛ وذلك لأن تاريخ خزائن الكتب ليس بابًا خاصًا فى تراثنا الحضاري . وهذا يعنى أنه لا يتمتع بمصادر مستقلة يمكن استقراؤها والرجوع إليها ،لكنه داخل فى نسيج المعرفة التراثية بصنوفها وألوانها المتعددة ، وبخاصة تلك المعرفة التى تتصل بما يعرف بكتب التراجم والأثبات والمشيخات والمعاجم والرحلات ، على أن ما هو مبثوث فى ثنايا هذه المصادر ، لا يبلُّ صدى ، ولا يشفى غُلّة ، كما يقولون .

مَنْ المسؤول عن هذا الإشكال ؟

يرى د . بنبين أنه «التاريخ الذى أخفى عنا جزءًا كبيرًا من أمجادها (أى المكتبة) وتغيراتها . والإشكال كما عبرتُ عنه هو - فى رأيه - نوع من التدليس . وهو ميزة حضارة لم تتكلم بما فيه الكفاية عن منشآتها المادية ومؤسساتها»[1] ، كأن المتهم هو التاريخ أو الحضارة . وهذا حقٌّ ، فالتاريخ - كما نعلم - ليس رجلاً كريمًا دائمًا ، فهو يضنُّ ، وربما يُخفى كثيرًا مما يعرف . وليست سمة البخل هذه قاصرة على التاريخ العجوز (القديم) ، فالتاريخ الفتيُّ أو الشاب الذى نعيشه أو نعيش فيه يخفى أيضًا تحت إهابه الكثير ، ولا يبوح إلا لمن يملك النظر والصبر والقدرة على الاستقراء والموازنة والغوص فى ما وراء السطور والأحداث وما فوقها وما تحتها .

لكن ما ذهب إليه د . بنبين ، وما وافقتُه عليه ، فيه تجاوز . فالتاريخ أو الحضارة ليس سوى شخصية هلامية ، أو بالأحرى هو ليس شخصية حتى تفعل ، الذى يفعل حقًا هو الإنسان ، يخلط الأوراق ، ويزيفها ، ويزورها ، ويضيِّعها ، ويخفيها ، وربما يحرقها ، عن حسن نية حينًا ، وعن سوء نيةٍ غالبًا .

---

(١) ص ١٧ .

ويبدو أن المؤلف كان مدركًا لهذا التجاوز ، ولهذا فإنه فى غير موطن من صلب الكتاب[١] يحمّل المسؤولية صراحة للإنسان المغربى ، والمقصود به هنا : الإنسان العالم تحديدًا ، فهو لم يهتمّ بتاريخه إلا لمامًا . وليس د . بنبين بِدْعًا فى ذلك ، فهو يتابع فى هذا الكثيرَ من الكتّاب المغاربة المتأخرين ، ومنهم أحمد بابا ، والمقَّرى ، ومحمد العربى الفاسى ، واليوسى ، والكتانى .

وإذا كان المؤرخون المغاربة قد اتهموا من سبقهم بصورة مباشرة باللامبالاة إزاء تاريخ بلادهم وثقافتها ومؤسساتها العلمية ، فإن هناك متهمًا أو متهمِين آخرين ، هم أولئك الذين ضيَّعوا ما كتبه العلماء والمؤرخون ، فثمة مخطوطات كثيرة فُقِدت ، لأسباب كثيرة ، ليس هذا موطنَ تفصيل القول فيها ، لكن المؤكد أن وراء هذه الأسباب غالبًا «الإنسان» مرة أخرى ، قد يكون مغربيًا ، وقد لا يكون ، لكنه الإنسان .

وما قلناه آنفًا بشأن التراث المغربى ، والمؤرخين المغاربة ، والتاريخ ، والإنسان عامة ، هو ما يمكن أن يقال عن التراث فى المشرق ، والمؤرخين المشارقة ، والتاريخ ، والإنسان عامة ، لا فرق كبيرًا بين الحالين .

نعود إلى مقدمتَيْ الرجل ، فنقول إن من يقرأهما سيجدد عددًا من المقولات «الشوقيَّة» (نسبة إلى المؤلف) التى صدر عنها فى أطروحته ، ولها امتدادات فى كلامه الآتى جميعًا .

وقد قمت باستخراجها نظرًا لأهميتها ، فهى - إلى ما سلف من خطرها فى الكتاب - ترتبط بقضايا تراثية عامة ، ويمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

- غنى تراث المغرب .
- تكامله مع تراث المشرق .
- تقديس المغاربة للكتاب .
- تقصيرهم تجاه تراثهم .

وإنما استخرجت هذه المقولات ؛ لأن د . بنبين فى كتابه كان أقرب إلى الوصف منه إلى التحليل ، وقد اعترف بذلك فقال : «إن بحثنا لم يصل إلى المكانة التى يطمح إليها . . وتهيمن على البحث الذى نقدمه المعرفةُ الواصفة ؛ لأننا اعتبرنا أن الابتداء بالتحليل أمر غير مناسب ، فالتحليل - فى نظرنا - ما زال سابقًا لأوانه . . ونحن نذهب إلى أنه

(١) انظر مثلاً : ص٣٧ ، ٨٧ .

حتى المظهر الوصفى ما زال بعد لم يستنفد (كذا) . . وإنما كان ذلك كذلك بسبب غياب «الكتالوجات» والفهارس والببليوغرافيات . . إلخ»[١] .

وهذا حقٌ ، فالتراث فى المغرب (موضوع بحث د . بنبين) ، بل التراث العربى فى المشرق والمغرب على حدٍّ سواء ، بحاجة إلى جهود كثيرة حتى تتضح معالم خريطته وتضاريسها . وعليه فإن الوقت مبكر فيما يتعلق باستخراج النتائج وإطلاق الأحكام ، والانتقال من مرحلة الوصف إلى مرحلة التحليل .

المقولات التى استخرجناها إذن مهمة ؛ لأنها تكشف لنا عن رؤية د . بنبين للتراث وقضاياه وما يتصل به فى بحث وصفيّ ، لم تمكِّنه المصادر من أن يحقق غاياته ، ويصل إلى أبعد مدى فى ما يطمح .

٢ - ١ : غنى تراث المغرب

يؤمن د . بنبين بغنى التراث العربى الإسلامى فى المغرب ، وهو إيمان حق ، يشاركه فيه الكثيرون ، والشواهد عليه كثيرة ، فى صدارتها ما يحتفظ به المغرب حتى اليوم من مخطوطات فى خزائنه الملكية ، والخاصة ، والعامة ، ومساجده ، وزواياه ، وهذا - كما يقول - دليل مفحم على اندماج الأقطار البربرية فى الحضارة العربية الإسلامية على مستوى التأليف منذ القرون الأولى للهجرة[٢] .

إن «تراث المغرب» غنىٌّ على أصعدة مختلفة ، وفى مستويات متعددة . وقد لمس د . بنبين معظم هذه الأصعدة والمستويات . وأنا فى تناولى لنقطة الغنى هذه لا أرمى إلى مناقشته ، ولكن إلى جمع ما تناثر من إشاراته ، والإضافة إليها .

اشتهر المغرب - كما يقول - بكونه «أول دولة إسلامية تحتفظ بالمخطوطات التى لا توجد فى أماكن أخرى ، وعرفت مكتباته بالتعدُّد والتنوع والثراء»[٣] . ولعل الفصل الرابع ضمن الباب الثانى قد جاء خالصًا لخدمة هذه المقولة ، فمن خلاله عرض لمحتويات الخزائن المغربية فى الماضى ، وفى الحاضر ، متوقفًا عند أهم الأجناس والأوعية التأليفية : الفهرسة ، والكُنّاشات ، والمجاميع ، بالإضافة إلى تلك المخطوطات ذات القيمة العالية ،

---

(١) ص ١٩ .
(٢) ص١٦ .
(٣) ص٢٤٩ .

على وَفْق أسس مختلفة : القدسية (القرآن الكريم والكتب المقدسة) ، والأصالة (بخطوط مؤلفيها) وما يلحق بها ، والنُّدرة ، والنفاسة ، وتحت كل أساس تفصيلات يطول الكلام فيها .

وأودُّ أن أدخلَ إلى هذا الغنى من مُدْخَل آخر ، يضيف بعدًا جديدًا ، أو زاوية مختلفة ، قد لا يُتَنَبَّهُ إليها فى كلام د . بنبين ، أعنى تركيز ألوان غنى تراث المغرب فى :

غِنَى الكمّ

ووراء هذا النوع من الغنى أسباب عديدة ، وله مظاهر مختلفة . ففى الأسباب ثمة سبب رئيس ، عنه تفرَّعت الأسباب الأخرى ، ويتمثل فى تقديس المغاربة للكتاب ، وولعهم به ولعًا شديدًا . وهذه نقطة أتوقف عندها لاحقًا فى سياق آخر .

إن الحديث عن غنى الكم فى التراث المغربى (شأنه شأن الحديث عن التراث العربى الإسلامى فى عمومه) حديث مُرْسل ، على الرغم من أنه حقيقة تاريخية ، وحقيقة حاضرة ، فالإشارات التاريخية مبثوثة فى المصادر المختلفة ، ولا تزال آثار هذه الإشارات ودلائلها باقية حية فى الخزائن المغربية . وهذا ما يحزُّ فى نفس كل عاشق للتراث . ولعله هو الذى دفع د . بنبين إلى المطالبة باستنفار الجهود من أجل وضع أساس «مونوغرافى» ، يوفر لنا الفهارس والكشافات والببليوغرافيات و «الكتالوجات»[(١)] .

نحن لا نملك حتى اليوم رقمًا محدَّدًا للمخطوطات فى المغرب ، لا رقمًا تاريخيًا ، أيا كان التاريخ الذى يرصده ، ولا رقمًا حاضرًا ، لكنه - بلا شك - رقم كبير . وهذه بعض مؤشرات ذلك . فى مدينة سبتة وحدها - كما يقول الأنصارى (ت ٨٥٤هـ) صاحب «اختصار الأخبار» - كانت توجد (٦٢) خزانة ، منها (٤٥) ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ! وما أكثر الخزائن المغربية التى نعتها المؤرخون بأنها «تحتوى على عدد هائل من الكتب أو أنها «مكتبة ضخمة» .

وفى العصر الحديث ، ومع التنبُّه إلى التراث ، وتصاعد الاهتمام به ، وظهور بعض الباحثين الذين زاروا عددًا كبيرًا من المكتبات فى البلاد العربية والإسلامية ، والأجنبية ، عرفنا أرقامًا جزافية أطلقها هؤلاء ، فمِنْ قائل بأن عدد المخطوطات العربية مليون ، ومن

---

(١) ص١٩ .

قائل بأنها ثلاثة ملايين ، ومن قائل بأنها خمسة ملايين . وظل الرقم الحقيقى «أُحجية» لا تزال تبحث عن حل حتى اليوم ؛ لأن هذه الأرقام جميعًا لم تعتمد على أساس علمى ، ولم تقم على رصد حقيقى .

الغنى حقيقة ، لكنها حقيقة ضبابية لم تتضح بعدُ أبعادها وحدودها . أليس طبعيًا إذ أن يكتفى د . بنبين بالوصف ، وينأى عن التحليل ؟ .

غنى التنوع والخصوصية

يتميز التراث العربى فى المغرب بالتنوع اللافت ، وهو تنوع على أكثر من مستوى ، مستوى المصادر ، ومستوى الموضوعات .

أما المصادر فالحكاية تبدأ من أن هذا التراث ليس ثمرة لتلك المنطقة الجغرافية ، أعنى أنه ليس نتاج عقول أبناء تلك المنطقة أو المقيمين فيها فحسب ، ولكنه أيضًا قادم أو مجلوب من الخارج ، فقد كان المغاربة شديدى الحرص على الكتب وشرائها بأى ثمن . فالخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف ـ مثلاً ـ لم يكن يتردد فى دفع أى ثمن مقابل الكتب التى يريدها ، وفى سبيل ذلك خصَّص أموالاً طائلة . ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل إنه كثيرًا ما لجأ – فى إجراء يمكن لنا أن نصفه بالأثرة والظلم – إلى مصادرة الكتب التى يرغب فيها . وثمة شواهد تاريخية على ذلك[١] .

وإذا كانت إشارتنا إلى المصادرة من قبيل الاستطراد فى هذا السياق ، فإننا نعود ـ على عجل – إلى نقطتنا الأساس (تنوع المصادر) فنلحظ أن د . بنبين أشار إلى أن المرينيين أقاموا علاقات تبادل مع ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى . فأبو الحسن المرينى كان يتبادل الكتب مع الناصر محمد بن قلاوون (مصر) . والوطاسيون كذلك ، وإن كان التاريخ لم يَبُح بالكثير عنهم . وثمة إشارة إلى أن كتابًا من القاهرة أُهدى إلى الخليفة أبى العباس أحمد الوطاسي ، كما ذكر ابن عسكر صاحب «دوحة الناشر»[٢] . أما المنصور الذهبى (السعدى) فكان يرسل إلى كل الأقطار الإسلامية (القاهرة ، مكة ، إستا نبول) تجارًا أمناء ، محمَّلين بمبالغ كبيرة ، ويطلب منهم أن يشتروا له الكتب[٣] .كان الرجل شغوفًا بالكتب ، لا يأبه لشيء فى سبيلها . وفى هذا السياق ينقل د . بنبين من إحدى الرسائل السعدية

(١) ص٥٣ .
(٢) ص٨٩ ، ٩٠ .
(٣) ص٩١ .

(نشرها عبد الله كنون) أن موظفى القصر السعدى كانوا يسافرون ويفرغون الأكياس المليئة بالذهب ؛ ليعودوا بالكتب من كل مكان[١] .

ولابد من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة ، هى حركة النِّساخة الواسعة فى المغرب ، وهذه الحركة لم تكن قاصرة على الكتب المغربية ، بل شملت تلك الواردة من الخارج ، فقد كان الخلفاء يكلفون النُّساخ بكتابة نسخ عديدة برسم المكتبات المغربية العامة والخاصة[٢] .

خلاصة القول : إن روافد غنية وعديدة أسهمت فى إغناء التراث فى المغرب : التبادل مع البلاد الأجنبية والعربية ، والسفر إلى الخارج ، والمراسلات ، والمواسم الدينية كالحج .

يضاف إلى ذلك كله رافد مهم هو «الترجمة» ، فقد أشار د . بنبين إلى أن الترجمة التى توقفت فى المشرق فقد قرون من النشاط ، استمرت فى المغرب ، وبخاصة فى عهدى السعديين والعلويين ، فقد ترجمت عيون الآثار العلمية الغربية فى بلاطاتهم ، وكان الخلفاء يقومون بأنفسهم بذلك ، فالملك العلوى محمد بن عبد الرحمن (١٨٧٣م) ترجم أو أشار بترجمة كتاب نيوتن حول علم الفلك[٣] . وثمة كتب ذكرها د . بنبين ترجمت من الإسبانية والبرتغالية والعبرية .

أما تنوع الموضوعات فقضية لا تقلُّ عن سابقتها خطورة . إن الدول التى حكمت المغرب ، واختلفت نظرتها إلى العلوم اختلافًا وصل إلى حد التناقض ، قد أسهمت ـ وهى لا تدرى ـ فى تنوُّع موضوعات التراث من ناحية ، وفى تركزها من ناحية ثانية ، وفى خصوصيتها من ناحية ثالثة . فإذا كانت الدولة المرابطة مالكية خالصة ، حتى إنها منعت تدريس المذاهب الفقهية الأخرى ، ونظرت إلى الكتب العَقَدية (أصول الدين) والفلسفة على أنها بدع بل كفر[٤] ، فإنها بلا شك قد أثّرت المذهب المالكى ، وأعطت لتلك الحقبة التاريخية مذاقًا علميا خاصا . فى حين سارت الدولة الموحدية فى الاتجاه المعاكس لسابقتها ، بل للدول السابقة ، حتى وُصفت بأنها دولة محبَّة للفلسفة ، ففى أيامها ازدهت دراسة الفلسفة والتصوف والتاريخ والجغرافيا والفلك والنحو والتنجيم والطب .

وإذا كانت السياسة قد قامت بدور مزدوج بالصورة التى سلفت ، فإن ثمة مظهرًا من مظاهر الخصوصية للتراث فى المغرب لا علاقة للسياسة به بتلك الصورة المباشرة ، وأعنى

(١) ص ٩١ .
(٢) ص ٧٩ .
(٣) ص ٨٠ .
(٤) ص ٤٦ .

به (أى المظهر) انفراد هذا التراث بألوان معينة من التأليف . والانفراد هنا ليس بمعنى عدم وجود هذه الألوان فى تراث المشرق مثلاً ، ولكن بمعنى أنه أوضح كثيرًا فيه من توأمه (المشرقي) .

ومن ذلك موضوع «الرحلة» ، فلا شك أن التأليف فى هذا الجنس المعرفيّ أكثر حضورًا فى المغرب منه فى المشرق ، سواء على مستوى الكم ، أو النوع ، أو التنوع . إن الذاكرة تستدعى فى هذا السياق على الفور : ابن بطوطة ، والعبدرى ، وابن رُشَيْد ، وغيرهم كثير . وقد أشار إلى ذلك د .بنبين ، وعدَّ الرحلة عنصرًا هامًا على المستوى التاريخى فى المغرب[1] . وأحسب أن وراء ذلك عوامل عديدة ، يمكن الإلماح إليها بأن المشرق كان أسبق علميا ، وكان بذلك مقصد المغاربة لاغتراف العلم . كما لا يخفى دور الحج ، تلك الفريضة الإسلامية التى تجذب المسلمين من كل مكان ، والطريق من المغرب إلى مكة المكرمة طويلة ، وتحفل بالمشاهدات واللقاءات ، وتفتح آفاق الفكر ، ومن ثَم التأليف .

وهكذا اكتمل عِقد التراث العربى فى المغرب ، مصادر ، وتنوعًا ، وخصوصية ، وعوضت كل دولة- برعايتها الزائدة - ما قصَّرت به الأخرى ، وكان الكاسب فى النهاية هو التراث نفسه .

ولا ينفى ذلك أننا خسرنا ثروات لا تقدَّر بثمن من الكتب نتيجة التعصب ، لكنه شأن الحياة ، لا تعطى إلا لتأخذ . ويبقى أن نستفيد من الدروس ، ولا ننتسخ الأخطاء .

٢ - ٢ : تكامله مع تراث المشرق

لا شك أن حركة العلم عمومًا ، والتأليف خصوصًا ، قد بدأت فى المشرق ؛ لأسباب تاريخية معروفة ، لكن المغرب (والأندلس) لم يتأخر كثيرًا عن توأمه ، صحيح أنه اعتمد عليه فى البداية ، بل إنه قلَّده حتى قيل فى أحد الكتب الأندلسية (العقد الفريد لابن عبد ربه) عندما وصل إلى المشرق «هذه بضاعتنا ردت علينا » . لكن المشارقة والمغاربة كانا فرسى رهان ، ليس بالمعنى السلبى للمنافسة ، ولكن بالمعنى الإيجابى . معنى حب العلم والرغبة فيه . وإذا كانت البداية مشرقية ، فإن زمام المبادرة أصبحت مغربية فى مرحلة لاحقة ، ليس فى كل الميادين العلمية ، ولكن فى بعضها على الأقل .

(١) ص ٧٩ .

ومن هذه الميادين ميدان الترجمة . وهذا ما لمسه د. بنبين ، عندما أشار إلى أن حركة الترجمة فى المشرق «قد توقفت فى العصر الذى سمى بعصر الانحطاط ، وبقيت مستمرة فى المغرب بفضل تشجيعات الخلفاء ، وخاصة السعديين والعلويين ، «وكان الخلفاء يترجمون فى بعض الأحيان هم بأنفسهم الكتب إلى العربية . .» وضرب أمثلة عديدة على الكتب التى ترجمت من اللاتينية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية والعبرية(١) .

يمكن أن نقول إذن : إنّ الراية انتقلت إلى المغرب ليكمل المهمة ، تلك التى بدأها فى المشرق حنين ومدرسته . هو التكامل الذى ألمحنا إليه ، والذى صبّ فى النهاية فى إغناء التراث العربى الإسلامى (وهو تراث واحد مشرقًا ومغربًا) وإعطائه قيمته وخصوصيته .

٢-٣ : تقديس المغاربة للكتاب

يبدو لى أن النقطة السابقة التى توقّفنا عندها (غنى التراث فى المغرب) هى ثمرة نقطتنا الحالية ، فالمغاربة عُنوا بالكتاب أيما عناية ؛ بل إنهم وصلوا به إلى مستوى التقديس ، وقد رصد د. بنبين مظاهر هذا التقديس فى غير موطن من كتابه ، وساق له الشواهد و الوقائع التاريخية التى تدلّ عليه وتؤكّده :

فى الباب الأول (التاريخى) عرض لألوان حرص المغاربة على الكتاب ، وهو يتحدث عن نشأة الخزائن المغربية ونموها وازدهارها .

و فى الباب الثانى (الموضوعى الفنى) توقّف عند نقطة خاصة بمحاولات إرجاع المخطوطات ، وهو ما يعكس مسألة الحرص و التقديس من زاوية أخرى .

إن هذا التقديس له أساس تاريخى ، فقد بدأ فى صورة ولَع ، استشهد له د. بنبين بطارق بن زياد (القائد المغربى المسلم) الذى فتح إسبانيا ، إذ كان لدى الرجل خزانة خاصة ، وكان معنيًا بجمع الكتب من البلاد المفتوحة ، وأهدى مجموعة من اثنين وعشرين كتابًا إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق(٢) .

وله أيضًا أساس نفسى (سيكولوجى) ، فقد كان المغاربة يحبون الآداب ، وحب الآداب يُفضى دائمًا إلى حب الكتاب ، كما قال كاترمير . وهذا الحب لم يكن حِكْرًا على فئة أو طبقة ، بل كان ظاهرة عامة لدى الخلفاء والأمراء والأعيان والعلماء والناس عامة .

---

(١) ص ٨١ ، ٨٢ .
(٢) ص ٢٩ .

وعلى أية حال فإن تقديس المغاربة للكتاب يتجلى فى :

أ - الحفاظ عليه من الوقوع فى أيدى غير المسلمين ، أو على حد التعبير الوارد فى الكتاب : «فى أيدى الكفار» .

ب - الاستئثار به ، بمعنى منع إفادة الآخرين منه .

جـ - محاولة استرداد ما فُقد منه ، مهما غلا المقابل ، وارتفع الثمن .

د - السعى للحصول عليه بأية طريقة كانت .

وثمة شواهد وحكايات كثيرة تدل على حرص المغاربة على أن لا تقع كتبهم فى أيدى اليهود و المسيحيين ، فقد حكى د .بنبين حكاية نيكولا كلينار الذى مكث خمسة عشر شهرًا فى فاس ، وأذن له الملك المغربى أحمد الوطاسى بحمل بعض المخطوطات ، لكن أحد مسلمى الأندلس منعه . وهذا ما دفعه (أى كلينار) إلى أن يقول : « يمكن للمسيحيين أن يدخلوا إلى مكان المزاد ، إلا أنهم يتجشمون خطر الموت رجمًا ، طالما أنهم يثيرون الشكوك فى أن المخطوطات قد تركت لأياد أجنبية عن الإسلام»(١) .

وإذا كانت هذه الحكاية قديمة (على عهد الدولة الوطاسية) مما قد يوحى بأن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة تاريخية ، فإن الأمر لم يتغير فى مطلع القرن العشرين ، فالمستشرق الفرنسى ل . مرسيى واجه كثيرًا من الصعوبات فى الحصول على الكتب بسبب كونه مسيحيا(٢) .

وقد أفاض د . بنبين فى التوقف عند مظاهر تقديس المغاربة للكتاب ، فى سياقات عدة ، فأشار إلى دفن الكتب والتعصب ضدها وإحراقها ، وأيضا إلى الحرص عليها وشرائها بأى ثمن(٣) .

٢-٤ : تقصيرهم تجاه تراثهم

فى مقابل «التقديس» يبرز التقصير ، مما يجعل من التراث فى المغرب إشكالية حقيقية عصيّة على الفهم ، أو القبول ، أيًا كانت المسوّغات أو الزوايا التى يمكن أن يُنظر من خلالها إلى الأمر . وتتجاوز المسألة التقصير إلى التدمير ، مما يدفع بهذه الإشكالية إلى أبعد مدى .

---

(١) ص ٨٣ .

(٢) الموضع السابق .

(٣) انظر مثلاً : ص ٤٦ ، ٥٣ ، ١٥٠ .

وأظن أن هذين الأمرين (التقصير والتدمير) خرجا من عَيْبَة ما أسماه د . بنبين بـ «اللامبالاة إزاء التاريخ»[1] . وقد توقف غير مرة عند هذه الظاهرة التى لفتت انتباه كثير من الكتاب المغاربة المتأخرين ، أمثال الكتانى (صاحب سلوة الأنفاس) واليوسى (صاحب المحاضرات) ومحمد العربى الفاسى ، وأحمد بابا ، والمقّري[2] ، وكانت وراء ضياع كثير من المخطوطات المهمة والأساسية فى جلاء صورة العطاء المغربى للحضارة العربية الإسلامية ، والإنسانية .

ويبدو لى أنهم (المغاربة) ليسوا بِدْعًا ، فالمشارقة أيضا قصَّروا ودمَّروا ، وأصحاب الحضارات الأخرى على امتداد التاريخ البشرى فعلوا مثل ذلك . إنه طبع الإنسان الذى كثيرًا ما يخطئ ، ويخضع لنزواته ، وينساق وراء أهوائه ، فلا يميز بين الضارِّ و النافع ، ويخلط بين الصواب والخطأ ، وربما جعل أحدهما مكان الآخر ، عمدًا أو جهلاً .

ولذلك فإن إنجازات الإنسان كثيرًا ما كانت ضحيته ، فالمرابطون مثلا أحرقوا مؤلفات الغزالى ، لأنها مثل كتب الفلسفة عمومًا «بدعة مشبوهة وحداثة دخيلة إلى الدين»[3] ، والموحدون أحرقوا كتب المذهب المالكي ، وانقلبوا على ابن رشد فأحرقوا أيضًا كتبه ، كما ألَّبوا عليه غيرهم[4] . وبالإضافة إلى السياسة ، شاركت الطبيعة فى تدمير الكتب والمكتبات ، فكان لجنودها من الحشرات والقوارض دور يذك ، ساعد عليه ، وأسهم فيه إهمال الإنسان .

لقد عقد د . بنبين فصلاً خاصا أسماه : محنة المكتبة المغربية ، رصد فيه تأثير عوامل الطبيعة ، وفتن السياسة ، وجرائم السرقة والنهب . و الفتن والجرائم خالصة للإنسان طبعًا ، أما الطبيعة فالإنسان فيها شريك .

وثمة ظاهرة بشرية مذمومة وقبيحة ، هى الاستئثار بالكتب ، أو «غلو الكتب» . ومما يؤسف له أن العلماء هم أبطالها ، فكثيرًا ما كانوا يقومون بذلك ، وقد ضرب د . بنبين نماذج على ذلك ، ورأى فى هذه الظاهرة سببًا مهمًا فى ضياع الكثير من المخطوطات النادرة .

ولا يمكن أن ننسى جرحًا آخر غائرًا ، ذلك الذى كانت وراءه الحروب الداخلية ،

---

(١) ص٣٧ ، ٣٨ .
(٢) ص٣٧ ، ٣٨ .
(٣) ص٥٢ . وانظر أيضًا : ص ١٧٩ .
(٤) ص ١٨٠ .

والغزوات الأجنبية ، والاضطرابات السياسية . هذه المناخات هى التى أدَّت إلى نهب الكتب وسرقتها ، وهكذا آلت مثلاً خزانة الملوك السعديين إلى الإسكوريال بإسبانيا ، وأُبيدت الخزانة الملكية الموحدية ، وشُرع فى نهب المخطوطات على أيدى البرتغاليين والإسبانيين . . . إلخ .

- ٣ -

الأبواب

(مداخل للقراءة)

٣-١ : باب التاريخ

أول كلمة فى عنوان الكتاب «تاريخ » ، والباب الأول فى الكتاب - وهو نَصيف الكتاب كله - عنوانه «خزائن الكتب فى (التاريخ) الثقافى للمغرب» وهذا الباب عموده الفقرى التاريخ ، فهو مقسوم إلى أربعة فصول ، فى أولها يحكى قصة الخزائن (من القرن الأول الهجرى إلى الخامس) ، وفى ثانيها (من الخامس إلى السابع) ، وفى ثالثها (من السابع إلى الثالث عشر) ، وفى رابعها (من الثالث عشر حتى اليوم) كأن الكتاب يقوم بالتاريخ ويتحرك فيه . ولا شك أن د . بنبين قد بذل جهدًا كبيرًا فى تتبُّع النشاط الثقافى على امتداد هذه المساحة الزمنية الطويلة .

كان د . بنبين واعيًا بذلك ، فاستهلَّ مقدمته بالإشارة صراحة إلى ارتباط البحث فى تاريخ المكتبات بميدان أوسع هو تاريخ الثقافة . وإذا كان التاريخ الثقافى للمغرب قد وجد بعض العناية والاهتمام ، فإن تاريخ المؤسسات الثقافية (خزانات الكتب) لم يحظ بمثل ذلك[1] .

كما تنبَّه د . بنبين إلى أن كتب التاريخ والمصادر التراثية العامة لا تكفى للوصول إلى بعض الملامح الخاصة بصورة الخزائن المغربية ، فلجأ إلى ما أسماه ضروبًا أخرى من «المؤلفات البيليوغرافية شبه التاريخية والأدبية مثل مؤلفات النوازل والفتاوى والفهارس وعقود التحبيس وكتب المناقب وغيرها»[2] .

(١) ص ٥ ، ١٥ .
(٢) ص ١٧ ، ١٨ .

واعترف صراحة بأن القرون الهجرية الخمسة الأولى «مظلمة» فى ما يتصل بتاريخ الخزانة المغربية[١] ، فمن يتحمل المسؤولية ؟ الأمر - فيما يبدو - يرجع إلى انشغال الأمويين فى المغرب بالفتوحات ، ونشر الإسلام فى تلك الأصقاع البعيدة من أرض الله .

والقرون الخمسة هذه مساحة زمنية قامت على امتدادها فى المغرب عدة دول : الإدريسية ، والزناتية ، والمرابطية ، والموحدية ، بعضها متعاقبة ، وبعضها متجاورة ، أو متزامنة ، وبعضها كان تابعًا للأمويين فى الأندلس ، وبعضها كان بعيدًا عنهم ، يتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، وبين هذه الدول نفسها أحيانًا فترات زمنية ، هى تلك الفترات التى تقع بين أُفول نجم دولة ، وسطوع دولة أخرى واستقرارها .

هذه الفترات المعلقة فى فضاء الزمن ، تقع فيها بالتأكيد انتكاسات فى الحركة الثقافية ، وتوقُّف فى نشاط رجالها ومؤسساتها ، إذ إن أولى الأمر يكونون فى حال من الصراع تشغل عما تحتاجه الثقافة من استقرار وتشجيع ومساندة مادية ومعنوية .

وعلى كل حال فإن الخزائن المغربية لم تتجاوز - فى رأى د . بنبين - فى هذه القرون مرحلة «النشأة » والمعلومات المتوافرة عنها قليلة نادرة ، فهى فترة مظلمة تمامًا قبل الدولة الإدريسية ، وشبه مظلمة فى الإدريسية ، وشبه مظلمة أيضًا - ولكن بدرجة أقل - فى الزناتية . قبل الإدريسية لم يتمكن د . بنبين من أن يشير إلى أكثر من احتمال أن تكون فى المساجد حجرات أو زوايا تضم نسخًا من القرآن وبعض مصنفات الحديث[٢] . وليست صورة الخزانة المغربية فى الدولة الإدريسية بأحسن حالاً ، فالأمر لا يعدو الاعتقاد بوجود خزانة خاصة لأحد خلفائها .

أما فى عهد الزناتيين فثمة نقطة مفصلية ، هى اشتهار أمر جامعيْ القرويين والأندلس ، وتزويد خزانتيهما بالعديد من الكتب[٣] . وبين الزناتيين و المرابطين فترة تمتد قرابة قرن ونصف القرن ، وعلى الرغم من الصراعات التى شهدتها فإن المصادر تشير إلى (٦٢) خزانة فى مدينة سبتة وحدها بشمالى المغرب .

ومع المرابطين والموحدين صار من الممكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الخزائن :

---

(١) ص ٢٨ .
(٢) ص ٢٩ .
(٣) ص ٣٣ .

الملكية ، والشخصية أو الخاصة ، والعمومية . وعرف التاريخ خزانة الخليفة المرابطى يوسف بن تاشفين ، والخليفة الموحدى عبد المؤمن ، كما عرف خزائن مجموعة من العلماء والأعيان ، وخزائن عامة أو عمومية .

ومع المرينيين ومن جاء بعدهم من الوطاسيِّين و السعديين والعلويين أصبحت الخزائن مؤسسات رسمية ، تحظى برعاية الدولة واهتمامها ، كما ظهرت خزائن المدارس والزوايا ، واستمرت فى الوقت نفسه الخزائن الملكية ، وزاد عدد الخزائن الخاصة التى تنتمى إلى مختلف فئات المجتمع وشرائحه .

ويبدو أن هذا الانتشار كان واضحًا لدرجة أن د . بنبين قرّر أنه يتعذّر حصرها . أما الخزائن العمومية فقد انتشرت انتشارًا كبيرًا حتى كان كل مسجد كبير يحوى خزانة كبيرة .

وهنا وِقفة مهمة ، فالدكتور بنبين يرى أن القرن الثامن الهجرى شهد ظهور أعيان العلماء وفحولهم ، ففيه اغتنت الخزانة المغربية بالمصادر الرئيسة لتاريخ المغرب . وهذا القرن ـ على حد تعبيره ـ هو قرن ابن أبى زَرْع صاحب «روض القرطاس» ، وابن خلدون صاحب «المقدمة والعبر» ، وابن البناء المراكشى الفلكى العبقرى . وفيه ازدهر جنس الرحلة ، وظهر ابن بطوطة والعبدرى وابن رشد(١) .

وعلى العكس منه (أى القرن الثامن) كان تاليه (التاسع) ، فقد تراجع التأليف بسبب الركود والأزمات السياسية الخطيرة ، ولم نعد نجد مشهورين ؛ لا فى الأدب ولا فى التاريخ ولا فى الرحلة ولا فى الترجمة وكتابة المناقب . كذا نقل بنبين عن د . محمد حجى ، الذى استثنى بعض المتصوفة و الفقهاء(٢) . ويبزغ القرن العاشر ليصبح امتدادًا للثامن ، ثم تعود دورة الركود مع غروب هذا القرن وأفول نجم السعديين ، ثم مرة أخرى ترجع الحياة إلى الخزائن المغربية مع ظهور العلويين .

ثم بدأت أوضاع هذه الخزانات تتدهور ، حتى وصلت مع مطالع القرن العشرين وغداة الحماية الفرنسية الإسبانية (١٩١٢م) إلى حالة يرثى لها ، غير أن ما أنجزته القوتان ـ على حد تعبير د . بنبين ـ فى ميدان الثقافة كان ذا أهمية لا نظير لها ، فقد قاموا بإعادة تنظيم الخزانات الموحدية ، وأعدوا لها القوائم و الفهارس ، وأسسوا خزانات جديدة ، وظهر ما

(١) ص ٧٧ .
(٢) الموضع السابق .

عرف بالمكتبات العامة ، والمكتبات البلدية . وهذه الفترة فترة الحماية وما بعدها (المغرب المستقل) هى التى نقلت الخزانة المغربية من وضعها التقليدى إلى الوضع الحديث .

٣-٢ : باب الخزائن

ولدت الخزانة المغربية (شأنها فى ذلك شأن شقيقتها المكتبة المشرقية) فى حضن المسجد ؛ ففيه كانت تقام حجرات أو زوايا تضم نسخًا من القرآن الكريم ، وبعض مصنفات الحديث . ولعل طارق بن زياد هو أول مغربى مسلم امتلك خزانة خاصة ، كان قد اكتشفها فى بلد الوليد التى فتحها ٧١١م ، ثم أهداها إلى الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك[١] . ولعل الخليفة الإدريسى يحيى الرابع هو أول من امتلك خزانة كتب كبيرة خاصة[٢] ، ولا شك أن جامِعَيْ القرويين (أسس ٢٤٥هـ) والأندلس ، شهدا خزانتى كتب على نحو ما ، فقد كانا موطن حركة علمية وتعليمية نشطة ، وهو ما أشار إليه د . بنبين نقلاً عن صاحب «زهرة الآس» الذى وصف حالة التعليم فيهما . ومعلوم أن التعليم لابد أن يترافق مع خزائن المكتبات .

وإلى جانب ذلك فإن الأمير الزناتى المثقف هامان بن المعز كانت له ـ على حسب اعتقاد بنبين ـ خزانات كتب[٣] . وانتشرت الخزائن فى المغرب حتى بلغت العشرات ، وكان أصحابها من الأغنياء و الأعيان والعلماء ، ومن أشهرهم العالم ابن العجوز الذى أسس خزانة كتب كبيرة [٤] .

وقد عرف المغرب ثلاثة أنواع من الخزانات : الملكية ، الشخصية أو الخاصة ، العمومية . فعلى صعيد الملكية أشرنا آنفًا إلى خزانة الإدريسى يحيى الرابع ، ثم ظهرت خزانة المرابطى ابن تاشفين التى تشتتت فى مدينة سبتة بشمالى المغرب ، ثم بُعثت من جديد على يد الموحِّدى عبد المؤمن ، وازدهرت أيما ازدهار بوصول ابنه أبى يعقوب يوسف إلى الحكم .

ولا نعرف كثيرًا عن الخزائن الملكية فى العصر المرينى ، لكن الذى لا شك فيه أن هذا النوع من الخزائن بلغ أوجه فى عهد الخليفة أبى عنان ، الذى كانت له مكتبتان ؛

---

(١) ص ٢٩ .
(٢) ص ٣٣ .
(٣) ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٤) ص ٣٦ .

إحداهما فى القصر الملكى فى فاس ، و الأخرى هى مكتبته المتنقلة ، إنها نوع من المكتبات السيارة التى كان الخليفة يصحبها معه فى تنقلاته[١] .

وتصبح الصورة أكثر وضوحًا عند السعديين ، فخزانة الشرفاء السعديين أسسها مؤسس الدولة محمد القيم ، وكانت نواتها كتب الخزانة الملكية الوطاسية . على أن الوقفة الطويلة ينبغى أن تكون عند الخزانة السعدية فى عهد المنصور الذهبي[٢] .

أما الخزانة العلوية فتعود أيضًا إلى مؤسس الدولة العلوية الشريف مولاى رشيد ، ونواتها أيضًا من خزائن الدول السابقة والزوايا .

وأشهر الخزانات المغربية الخاصة خزانة ابن الصقر (ت ٥٦٩هـ) . وثمة خزانات أخرى عديدة ذكرتها كتب التاريخ[٣] .

أما الخزانات العامة فإن أولها خزانة أبى الحسن الشارى (خزانة كتب العلوم)[٤] ، ثم تلك التى أسسها الموحدون فى مراكش ، ولم تكن عامة بالمعنى الذى نعرفه اليوم ؛ بل كانت عامة بمعنى أنها للأمراء والأطفال من العائلة المالكة[٥] .

٣-٣ : باب الجغرافيا

التاريخ والجغرافيا توأمان ، فالتاريخ لا يتحرك إلا فى حضن الجغرافيا ، والجغرافيا بدون حركة التاريخ مساحة ساكنة من الموت . و كتاب د . بنبين كتاب تاريخ . وهذا صحيح ؛ لكنه تاريخ بقعة جغرافية بعينها ، هى المغرب . وإذا كان التاريخ قد بخل أو عمّى علينا ما رغب د . بنبين فى صيده من حياة الثقافة عمومًا ، وحياة مؤسساتها على وجه الخصوص ، فإنه بخل أو عمّى بالدرجة نفسها المعلومات التى تتصل بالأرض والمدن ، لكن الرجل استطاع عبر عمليات تطواف واسعة وشاقة فى المصادر باختلاف أنواعها أن يرصد جغرافيًا أن الخزانة المغربية قد تكون بدأت بمجموعة كتب وردت عبر قنوات متعددة من إسبانيا (الأندلس) ولعل بعضها جاء من «بلد الوليد ، ومن قرطبة ، وأيضا من تهارت (الجزائر) والقيروان (تونس) ، واستقرت فى فاس وأصيلا والبصرة وطنجة ، وخاصة

---

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ٧٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٣) ص ٦٠- ٦٤ .

(٤) ص ٦٩ .

(٥) ص ٦٨ .

سبتة ، هذه الأخيرة التى بلغ عدد المكتبات فيها - كما سبق - فى وقت مبكر (٦٢) مكتبة .

ويمر وقت ليس قصيرًا حتى تأخذ مراكش عاصمة المرابطين والموحدين مكانتها عاصمة سياسية وثقافية ، لتلتقى فى خزانتها الملكية مجموعات من كتب مختلف أقاليم إسبانيا (الأندلس) ، وتكتب لها خاصة ، وتُهدى إليها الكتب من أعلام العصر . وتشير المصادر إلى أن خزانة قاضى مراكش الكبير ابن الصقر (ت ٥٦٩هـ) قد تكوّنت مما حمله معه من المدينة الأندلسية بلنسية ، وقدّروه - بلغة القدماء - بخمسة أحمال من الكتب .

ولم تكن الخزائن حكرًا على مدن الشمال ، فثمة خزانات فى مدن الجنوب فى سوس ، وإليغ .

كما تشير المصادر إلى أن كتبًا كانت تُشترى من القاهرة ومكة وإستانبول ، وتحمل إلى عاصمة السعديين ، بناء على تكليف مباشر من الخليفة المنصور الذهبي ، أو بسعى منه شخصيًا عبر اتصالاته مع حكام وأمراء وعلماء فى تلك البلدان . وأكثر من ذلك فإن بعض الكتب الطبية والأناجيل و المصورات الجغرافية وردت إليه من هولندا وإيرلندا[١] .

وفى عهد الدولة العلوية تجمّعت الكتب فى مكناس التى أصبحت العاصمة السياسية للملك إسماعيل ، وبلغ عدد مخطوطاتها (١٢) ألفًا . ولم تتوقف حركة الكتب ، فظل الملوك يأتون بها أو يؤتى بها إليهم من مصر و العراق وإستانبول وشبه الجزيرة العربية وليبيا .

ولا ننسى الرباط التى نُقلت إليها الخزانة الملكية من مراكش فى بداية العَقد الثانى من القرن العشرين ، بعد أن أصبحت عاصمة المغرب ، كما لا ننسى السودان الغربى (مالى وتشاد) الذى فتحه السعديون فى النصف الثانى من القرن السادس عشر . وهنا لابد من ذكر مدن تنبكت و تمكروت ودرعة وآسفى وطنجة ووزان وتطوان وسلا[٢] . وكما بدأت الخزائن المغربية بكتب من إسبانيا - كما ذكرت - فإن خزانة القرويين المستقلة التى أسسها أبو عنان سنة ٧٥٠هـ ، زودت فى عهده بثلاثة عشر حِملاً من الكتب أُرسلت من إسبانيا .

---

(١) ص ٩٤ .

(٢) انظر ص : ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

- ٤ -

النوافذ

(نظرات نقدية)

هذه مجموعة نظرات نقدية . وليس النقد هنا بمعنى التوقُّف عند الهَنات وتَعداد المثالب ، ولكنه بمعناه السويِّ ، وهو وضع اليد على مواطن الإحسان والإساءة ، وما حالف المؤلف فيه التوفيق ، وما تخلّى عنه فيه .

٤-١ : نظرة فى المنهج

والحق أن مادة الكتاب ثرية ومتشابكة تشابكًا معقّدًا . وقد أشرت إلى ذلك من قبل . وعلى الرغم من ذلك فإن د . بنبين تمكن من التعامل مع هذه المادة واستطاع أن ينظمها فى عِقْد متناسق لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا . وأول ملمح فى هذا العقد التوازن الشكلى والعلمى وما يرتبط به من قسمة عقلية منطقية صارمة .

صبَّ المؤلف مادته فى بابين رئيسين : أولهما : تاريخى ، وثانيهما : موضوعى فنى ، منسجمًا تمامًا مع عنوان الكتاب «تاريخ خزائن الكتب فى المغرب» . وقد تحقَّق التوازن المحمود بين البابين ، فلم يطغ أحدهما على الآخر ، فقد وقع الأول فى ١٤٩ صفحة (٢٣ - ١٥٢) والثانى فى ١٣٣ صفحة (١٧٣ - ٢٨٢) . والبابان وقع كل منهما أيضًا فى أربعة فصول . قسمة هندسية تكشف عما وراءها من عقل منظم ومنطق محكم .

هذا التوافق الشكلى وازاه توافقٌ فى المادة نفسها ، فالأول تناول الخزانة من وجهة نظر تاريخية : النشأة ، والنمو ، والازدهار ، والانتقال من التقليدية إلى العصرية . والثانى عرض للخزائن أيضًا ، ولكن فى بنيتها و ما يتصل بها ، فكان الحديث عن المحنة التى تعرضت لها والمنحة التى رفدَتها (الوقف) والأدوات التى ساعدت على ذلك (الوراقة والمطبعة) ، وأخيرًا محتوياتها من مخطوطات نادرة ومنتسخة بخطوط مؤلفيها ، أو عن أصول نادرة وفريدة ، ومخطوطات المؤلفين اليونانيين واللاتين .

٤-٢ : نظرة فى المصادر

ذيَّل د . بنبين كتابه «ببليوغرافيا» بالمصادر والمراجع التى اعتمدها أو أفاد منها ، وقد جعلها فى قسمين رئيسين : قسم باللغة العربية ، وآخر باللغات الأجنبية ، وكل من القسمين مقسوم إلى ثلاثة أقسام : مراجع (أى كتب) ، ومقالات ، وفهارس وقوائم ببليوغرافية . وهنا نعود إلى ذلك العنصر البارز فى منهج الكتاب الذى هو ثمرة عقل صاحبه .

وتكشف ببليوغرافيا المصادر والمراجع عن سعة معرفة د. بنبين وانفتاحه على التراث العربى، وعلى الكتابات العربية الحديثة فى ميدان تخصصه، وعلى الثقافة العربية قديمها وحديثها. وهى مصادر ومراجع متنوعة تنوعًا شديدًا: مخطوطات ومطبوعات وموسوعات وتاريخًا وتراجم وجغرافية وخططًا وصناعة مخطوطات واجتماعًا وأدبًا وفهارس وببليوغرافيات.

٤-٣ : نظرة فى لغة الكتاب

هذه نظرة غير منصفة، وذلك لأنها تتناول الكتاب فى ترجمته العربية، والترجمة لم يقم بها صاحب الكتاب نفسه، بل قام بها تلميذه (مصطفى طوبى). نعم تمت تحت إشراف د. بنبين، لكنها ليست بقلمه. وعلى أية حال فإن لغة الكتاب أو صياغته هى نقطة الضعف الرئيسة فيه، إذ لا شك أنها لم تتساوق مع المادة ومستواها العلم؛ غزارةً ومعالجة. وقد تنوعت لتشمل ارتباكاتٍ فى الصياغة اللغوية تُحس معها بقلق العبارة وتكسُّرها، وأخطاء لغوية متنوعة، وأخرى فى الرسم، وخللاً فى استخدام حروف الجر. ولديَّ شواهد كثيرة على ذلك كله، لكننى أكتفى هنا بإشارات، توخيًا لعدم الإطالة.

ارتباك الصياغة

شكَّل هذا الارتباك ظاهرة لا تخفى، وكان السبب فى ضياع إشراقة العبارة وفقدانها رونقها، حتى لتشعر كأنك تقرأ كلامًا غير عربى بحروف عربية، أو كأنك تطالع عبارات ساذجة كتلك التى يركِّبها أجنبى عن اللسان العربي، أو مبتدئ فى تعلُّم اللغة العربية. ومن الصعب تصنيف هذا الارتباك أو ضبطه، ولذلك سأورد منه نماذج، ثم أعيد صياغتها لجلاء الفرق، أو أعلِّق عليها :

ص ٣٥ : إن العلماء والأدباء كانوا يحفُّون بزعماء بعض هاته الإمارات .. هدفًا فى خلق مجالس علمية رائعة، وهى مثلاً حالة هامان بن المعز ...

التعليق : كلمة «هدفًا» هنا لا معنى لها، وكذلك «هي» لا ندرى على ماذا تعود ؟ ولو كانت العبارة : إن العلماء .. حُفُّوا بزعماء .. فشهدنا مجالس .. ومن الأمثلة مجلس هامان .. إلخ، لكانت أبْين .

ص ٣٨ : إن هذا الكتاب الضافى اليوم كان سيكون المصدر الهام لكل ... والعبارة بإشراقتها : لقد فقدنا بهذا الكتاب مصدرًا هامًا من مصادر ...

ص ٧١ : وبعد هذا فنحن نلاحظ . .تشابهًا . .فقد كانت تضم هاته المجموعات جميعها كتب التفسير و مجاميع الحديث . . فقد كانت المكتبات المغربية تحظى بأهمية خاصة ، فالكل كان يسهم فى تزويدها بالكتب .

التعليق : انظر إلى توالى «فقد كانت» ، ثم إلى توالى الفاءات . وكأن العربية لا تملك سوى «الفاء» . .

ص ٨٥ : ونذكر أيضًا كُتْبيًا كبيرا من القرن ١٨م . . ويتعلّق الأمر بأبى عبد الله محمد ابن عبد القادر الفاسى . .

التعليق : لا معنى لـــ « ويتعلق الأمر » . كان يغنى : وهو أبو عبد الله . .

ص ٨٥ أيضًا : إن ما سيبذله المرابطون وخاصة الموحدون . . ولا داعى للتعليق !

ص ١٤٦ : فالمغاربة ، وبوجه خاص الملوك ، كانوا يجدون نخوة فى أن يتوفروا على مخطوطات قيمة ، فلم يكونوا يتراجعون أمام أى محنة للحصول على مؤلَّف . . .

التعليق : لا معنى لكلمة «نخوة» فى السياق ، ويمكن أن نضع مكانها «متعة » كما أنَّ «يتوفروا» قلقة ، ويمكن أن نستعيض عنها بـــ «يجمعوا » ، وكذلك الأمر فى «يتراجعون» إذ الأنسب للسياق : يترددون فى دفع أى ثمن . وخير من «محنة» صعوبة أو عوائق مثلاً .

أخطاء لغوية ونحوية

انتشرت كلمة «يذخروا »فى غير موطن ، والمقصود «يدخروا» من الادخار ، والأُولى من الذُّخر ، وفرقٌ كبير بين الدلالتين[١] .

ومثلها «حذا[٢] » والمراد : حدا بمعنى دفع . والأُولى بمعنى اتبع ، يقال حذا حذوه ، فهل تفى بمعنى : دفع به ؟ ! .

ومثلها : « عثراء[٣] » نعتًا لـ «حَجَرة» ، ومعلوم أن المراد : حجر عثرة .

ومن الأخطاء النحوية : انقسم المغرب إلى ثلاثة دول ، والصواب : ثلاث دول ، للمخالفة بين العدد والمعدود .

(١) ص ٣١ ، ٤٥ ، ٧١ .
(٢) ص ٣٣ .
(٣) ص ٣٥ .

ومنها : وبقى فيها ثمان سنوات[١] . . والصواب ثمانى . .

ومنها : ولم يكن لهاته المكتبة فى ما يبدو طابعا عموميًا[٢] . . وصحتها : طابع عمومي .

ومن التجاوزات اللغوية : وتتمظهر هاته الحركة[٣] . . ولا أحسب «تتمظهر» هذه كلمة فصيحة .

ومنها : إلى اثنى عشرة ألف مخطوط[٤] . . والصواب : عشر ، بدون التاء .

ومنها : وتعهد الحاميون الفرنسيون[٥] . . والصحيح : الحامون ، كما نقول فى جمع القاضى : القاضون ، ولا نقول : القاضيون .

ومنها : إن ما أنجزته هاتان القوتان ذا أهمية[٦] . والصواب : ذو . .

استخدام حروف الجر

هذه نقطة تدخل فى باب الأخطاء اللغوية ، لكنى أفردتها لفشوِّها فى الكتاب . ومن نماذجها تعدية « ترتَّب » بــ «عن»[٧] ، وحقه أن يعدّى بــ «على» ، ففى المعجم الوسيط «يترتب عليه كذا : يستقرُّ وينبنى . .

وتعدية «نقف» بالباء[٨] ، وحقه التعدية بـ «على» أيضًا ، فلا نقول : «غالبًا ما نقف بلفظه خزانة فى مصادر . . بل : نقف على لفظة . . .

الرسم :

ومن المفارقات أن يرد « الخط المنصوب» [٩] ، وهو بداهة : الخط المنسوب .

(١) ص ٦٨ ، ٩١ .
(٢) ص ٦٨ .
(٣) ص ٧٥ .
(٤) ص ٩٥ .
(٥) ص ١٤٧ .
(٦) ص ١٥٢ .
(٧) ص ٢٣ ، ٣٢ .
(٨) ص ٢٨ ، ٣٧ .
(٩) ص ٢٦٢ .

٤-٤ : نظرات أخرى

سأكتفى بالتوقف عند نقطتين أدتا فى تقديرى إلى خلل منهجى ، وإزعاج للقارئ .

أ - التعبيرات والمصطلحات

من الغريب أن يعبّر عن منطقة ما بين النهرين وسورية ومصر بـ «الشرق الأوسط» وعن تونس كذلك[١] وبخاصة أنه ورد فى سياق تاريخى عن المكتبات التى تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، لأن (الشرق الأوسط) مصطلح حديث .

وأكثر من ذلك أن يوصف الفتح الإسلامى لإسبانيا بأنه «الاحتلال العربي»[٢]!

وكذلك التردد فى استخدام كلمة الأندلس مرة ، وإسبانيا مرة أخرى . وأحيانا يكون الاستخدام فى السياق نفسه[٣] !

ب - التواريخ

لم يجر ذكر التواريخ على سُنَّة واحدة ، فمرة يُذْكر الهجرى مفردًا ، وأخرى الميلادى مفردًا ، وثالثة يُقْرَن بينهما[٤] . مما يعد خللاً منهجيا ، وإرباكًا لا مسوغ له للقارئ .

وبعد ، فهذه نماذج ، مجرد نماذج . أما التتبع فتلك قضية أخرى .

* * *

كانت هذه رحلة فى عقل د . بنبين وجولة فى كتابه ، ولا أحسب أن الرحلة و الجولة إلا ومضات أضاءت ، لكن النور الذى خلَّفتْه محكوم مساحة وزمنًا .

أما الخير فلا يزال فى ضرع تلك السحابات المليئة بالماء والخضرة ، وما على الظمآن المشتاق إلا أن يسعى إلى الكتاب نفسه ، ويمنحه وقتًا وصبرًا .

---

(١) ص ٢٣ ، ٣٠ ، ١١١ .
(٢) ص ٣٠ .
(٣) ص ٤٠ .
(٤) ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ١٠٦ .

أما قبل

بقلم: أ. د. عبد الستار الحلوجي*

عهدى بالدكتور حسين نصار يرجع إلى ما يقرب من نصف قرن من الزمان . كنت يومها تلميذا صغيرا حصل على الثانوية العامة من شعبة العلوم ،ولكننى كنت أهوى اللغة والأدب وكنت مبهورا بكتابات طه حسين وأحاديثه الإذاعية ، ففكرت فى أن ألتحق بكلية الآداب ، ولم تكن الكلية وقتها تسمح لطلاب الشعبة العلمية بالقبول إلا فى أقسام ثلاثة هى : اللغة العربية والصحافة والمكتبات . ورفضت أن أدخل قسم الصحافة أو قسم المكتبات ودخلت قسم اللغة العربية . وفى أول فصل دراسى درست الأدب الجاهلى على يد أستاذين جليلين لم أكن قد سمعت بهما من قبل هما الدكتور شوقى ضيف والدكتور حسين نصار . كان الدكتور شوقى يدرِّس لنا الأدب وكان الدكتور نصار يدرس النصوص .

واستمرت تلمذتى للعالمين الجليلين خلال سنوات الدراسة الأربع ، فتلقيت عنهما تاريخ الأدب العربى ، ودرست على يديهما النحو فى كتابى : «شذور الذهب» و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» . وأذكر أن الدكتور نصار كان أول من درس لنا النحو ، ودراسة النحو فى كتب ابن هشام كانت شيئا عسيرا بالنسبة لأى طالب لم يسبق له الدراسة فى المعاهد الأزهرية .

ولكننى أشهد أن الدكتور نصار استطاع ببراعة فائقة أن يقرِّب النحو إلى عقولنا وإلى نفوسنا أيضًا ، فلم يكن يكتفى بأن يوصِّل لنا المعلومات ، وأن يشرح لنا القواعد ، وإنما كان يمضى إلى ما هو أبعد من ذلك . كان يحاول جاهدا أن يزيل من نفوسنا الخوف من ذلك الشبح الرهيب الذى يسمى «النحو» ، وأن يجعلنا نقترب منه ونتعامل معه على أنه رياضة عقلية ، وعلى أنه ضرورة لاغنى عنها لفهم معنى أى نص من النصوص . وعلى يد الدكتور نصار بدأنا نألف النحو ونرى فيه عِلما قابلا للاستئناس إن صح هذا التعبير .

كان ذلك فى منتصف خمسينيات القرن الماضى ، وكان قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وقتها يزخر بمجموعة من العمالقة : طه حسين وشوقى ضيف ومصطفى السقا وخليل نامى وسهير القلماوى ومحمد كامل حسين وشكرى عياد وعبد الحميد يونس وحسين نصار ويوسف خليف وغيرهم .

(*) أستاذ المكتبات بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وعلى أيدى هذه السلسلة الذهبية تعلم الجيل الذى أنتمى إليه ، واقتحم مجالات معرفية شتى أبلى فيها بلاء حسنا . وما زالت أسماء بعض طلاب تلك المرحلة تتألق فى سماء الإعلام والصحافة والتربية ، فضلا عن مجالات اللغة والأدب والنقد .

كنا طلاب علم بمعنى الكلمة ، وكنا ننظر إلى أساتذتنا باحترام شديد يكاد يبلغ درجة التقديس . وكان لكل منهم أسلوبه ومذاقه الخاص ، وكنا نلمح فى الدكتور شوقى ضيف والدكتور حسين نصار قدرا كبيرا من التشابه . فكلاهما كان بسيطا ومتواضعا وهادئا ورقيقا وخفيض الصوت ، مع عمق فى الفكر وأصالة فى الرأى . وكلاهما كان يبتعد عن الأضواء ، وعن وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، ويعيش راهبًا متبتلا فى محراب العلم . تسمعه فى المحاضرة فتشعر أنك أمام أستاذ عادى لايختلف عن كثير من الأساتذة ، فهو لايتحدث إليك من برج عالٍ وإنما يقترب منك حتى ليخيل إليك أنه يتحدث إلى نفسه . وهو لا يشعرك بأنه يقول شيئا جديدا أو مهما ، وإنما يقول كلاما عاديا يمكن أن يقوله غيره كثيرون . ولكنك حين تقرأ له تدرك أنه يفجِّر قضايا فكرية فى غاية الأهمية ، ويعرضها بسلاسة منقطعة النظير ، وتتعلم منه - فى هدوء - كيف تفكر وكيف تكتب .

حينما نشَرت الدكتورة بنت الشاطئ - رحمها الله - «رسالة الغفران» لأبى العلاء أهدتها إلى من علَّمها كيف تقرأ ، وأنا بالأصالة عن نفسى ونيابة عن جيلى كله أحيِّى أستاذى الجليل الدكتور حسين نصار الذى تعلمت منه الأدب بكل معانيه ، وتعلمت منه كيف أحب النحو ، وهو علم من أصعب علوم العربية ، فجزاه الله عنى وعن طلابه وعارفى فضله خير الجزاء .

وإذا كانت جائزة الملك فيصل العالمية هى نوبل العرب ، فإن حصول الدكتور حسين نصار عليها هذا العام يأتى تتويجًا لعطاء علمى ثرى استمر أكثر من خمسين عاما ، ويؤكد فى الوقت نفسه أن العمل العلمى الأصيل لابد أن يأتى يومٌ يحظى فيه بالتقدير مهما بَعُد هذا اليوم . وذلك درس ينبغى أن يستوعبه الباحثون الذين يتعجلون الشهرة ويلهثون وراء بريق الإعلام ، والذين يدفعون إلى المطابع أعمالا كثيرة كغثاء السيل لا أصالة فيها ولا إبداع .

ولعل خير ما يمكن أن أختم به هذه التقدمة هو قول الحق سبحانه :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ .

أ. د. حسين نصار

سيرة ذاتية

- الميلاد : أسيوط ١٩٢٥م .
- ليسانس من كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٤٧م .
- دكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٣م .
- مدرس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٤م .
- أستاذ مساعد فى ١٩٦١م .
- أستاذ فى ١٩٦٩م .
- رئيس قسم اللغة العربية ١٩٧١/١٠/٢٤م و١٠/١٨/ ١٩٨٤م .
- وكيل كلية الآداب للدراسات العليا ١٩٧٥/٩/٢٨م .
- عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٧٩/٩/١٥م .
- رئيس أكاديمية الفنون من ١٩٨٠/٨/٩ إلى ١٩٨٢/٣/٣٠م .
- عضو ورئيس الجمعية اللغوية المصرية .
- عضو ورئيس الجمعية الأدبية المصرية .
- عضو الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية .
- عضو المجلس الأعلى للصحافة (سابقًا) .

عضو لجنة الدراسات الأدبية واللغوية فى المجلس الأعلى للثقافة .

- عضو مراسل فى مجمعى بغداد ودمشق .
- مقرر المجلس القومى للثقافة والآداب والفنون والإعلام .
- جائزة الدولة التقديرية ١٩٨٦م .
- جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب واللغة سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م .

الكتب المؤلفة :

- نشأة التدوين التاريخى عند العرب - مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣م .
- معجم آيات القرآن - مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٥٤م .
- نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٦م .
- المعجم العربى : نشأته وتطوره ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٨م .
- مصر العربية ، دار الثقافة العربية بمصر ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٨٠م .
- المختار من كتاب الكامل للمبرد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ١٩٦٠م .
- الشعر الشعبى العربى ، ١٩٦٢ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٢م .

- الطبيعة والشاعر العربى ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢م .
- الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية ، دار الكاتب العربى ، ١٩٧٣م .
- ظافر الحداد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥م .
- دراسات حول طه حسين ، ١٩٧٦م ، ١٩٨١ .
- القافية فى العروض والأدب ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٠م ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
- المعجم العربى ، وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ، ١٩٨٠م .
- دراسات لغوية ، دار الرائد العربى بلبنان ، ١٩٨١م .
- معاجم على الموضوعات ، وزارة الإعلام بالكويت ، ١٩٨٥م .
- يونس بن حبيب ، دار الكاتب العربى بمصر ، ١٩٨٦م .
- أدب الرحلة ، لونجمان ، ١٩٩١م .
- صفحات من القضاء الإسلامى ، مطابع المنار العربى بمصر ، ١٩٩٢م .
- الإنباء بالغيب فى الإعجاز القرآنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م .
- أمين الخولى ، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ، ١٩٩٦م .
- الفواصل ، إعجاز القرآن ، مكتبة مصر ، ١٩٩٩م .
- إعجاز القرآن (التحدى - العجز - الإعجاز) ، مكتبة مصر ، ١٩٩٩م .
- إعجاز القرآن (الصرفة والإنباء بالغيب) ، مكتب مصر ، ٢٠٠٠م .
- الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، دار الهلال ، ٢٠٠٠م .
- فى النثر العربى ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م .
- القَسَم فى القرآن الكريم ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
- فى الشعر العربى ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١م .
- فى الأدب المصرى ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١م .

الكتب المحققة :

- ديوان سراقة البارقى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٧م ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١م .
- ديوان ابن وكيع التنِّيسى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٣م .
- ديوان عبيد بن الأبرص ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٥٧م .
- ديوان جميل ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٧٩م .
- المحكم لابن سيده ، الجزء الأول بالاشتراك ، ١٩٥٨م .

- ولاة مصر للكندى ، دار صادر وبيروت بلبنان ، ١٩٦٠م .
- قيس ولبنى «ديوان قيس بن ذريح» ، مكتبة مصر ، ١٩٦٠ ، ١٩٧٩م .
- مختار الأغانى لابن منظور ، الجزء الثامن ، ١٩٦٦م .
- الوقف على كلا وبلى فى القرآن ، لمكى القيسى ، ١٩٦٧م .
- ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان ، دارالكتب المصرية ، ١٩٦٩م .
- ديوان ظافر الحداد ، مكتبة مصر ، ١٩٦٩م .
- تاج العروس للزبيدى ، الجزآن السادس والثالث عشر ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٤م .
- النجوم الزهرة فى حلى حضرة القاهرة لابن سيدة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م .
- معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية ، ستة أجزاء ، ١٩٧١ ، ١٩٧٨ ، ١٩٩٣ ، ٢٠٠٢م .
- ديوان ابن الرومى ، ستة أجزاء من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٤م .
- العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى ، ١٩٨١م .
- ديوان أبى الصوفى سعيد بن مسلم العمانى ، ١٩٨٢م .
- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م .
- أخبار مصر للمسبحى ، ج ٤٠ ، المعهد العلمي الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٨٤م .
- رحلة ابن جبير ، مكتبة مصر ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٥م .
- المختار من الموشحات لمصطفى السقا ، ١٩٩٧م .

الكتب المترجمة :

- المغازى الأولى ومؤلفوها لهوروفتس ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٩م ، مكتبة الخانجى ، ٢٠٠٠م .
- الموسيقى والغناء فى ألف ليلة وليلة لفارمر ، ١٩٥٠ ، ١٩٨٠م .
- الديمقراطية لرلس وعمر جزلن ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٥٣ .
- النظرية البلشفية لهانس كلسن ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٥٤م .
- تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦ ، ١٩٩٩م .
- مصادر الموسيقى العربية لفارمر ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧م .
- أرض السحرة لبرنارد لويس ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨م .
- دراسات عن المؤرخين العرب لمرغوليوث ، لبنان ، ١٩٦٠م .
- ابن الرومى لجست ، ١٩٦١م .

الكتب المشتركة :

- حركة التجديد فى الأدب العربى ، دار الثقافة بمصر ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦م .
- الأدب والنصوص للصف الثالث الثانوى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨م .
- دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبى فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، مطبعة المدنى بمصر ، ١٩٨٢م .
- الأدب العربى : تعبيره عن الوحدة والتنوع ، مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ، ١٩٨٧م .

البحوث والمقالات :

نُشر له كثير من البحوث والمقالات فى المجلات العلمية والثقافية التى تصدر فى مصر والعالم العربى وهى :

فى مصر : مجلات : الثقافة ، والإذاعة ، والرسالة ، والرسالة الجديدة ، والكتاب ، والكتاب العربى ، وتراث الإنسانية ، والمجلة ، والشهر ، والقصة ، والهلال ، والبوليس ، والمصور ، ومنبر الإسلام ، وفصول ، والأهرام ، ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

فى تونس : مجلة الفكر .

فى المغرب : مجلة تنسيق التعريب بالرباط ، واللسان العربى .

فى لبنان : مجلة الأديب ، ومجلة الفكر العربى .

فى سورية : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

فى العراق : مجلة مجمع اللغة العربية ببغداد ، ومجلات الأقلام ، والأستاذ ، وبغداد ، والتراث الشعبى ، ومجلة كلية الشريعة ، ومجلة كلية الآداب .

فى الكويت : مجلة العربى .

فى السعودية : مجلات : العرب ، والمنهل ، والدارة ، والحرس الوطنى ، والمعرفة ، والفيصل ، ومجلة البحث العلمى بمكة المكرمة ، ومجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .

فى قطر : الراية .

فى الإمارات : مجلة المنتدى ، ومجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية .

تكريم الدكتور حسين نصار
أسلوب يحتذى

د. ماهر شفيق فريد*

بمبادرة تعرف أقدار الرجال أقام الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم ، والعاملون معه وعلى رأسهم الروائى الشاعر الدكتور أحمد درة حفلا حضرته نخبة من المثقفين والمفكرين تكريما للأستاذ الدكتور حسين نصار ـ أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ـ وذلك بمناسبة فوزه بجائزة الملك فيصل للأدب العربى .

حصل حسين نصار على درجاته الجامعية الثلاث من قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة : الليسانس الممتازة عام ١٩٤٧ ، الماجستير بدرجة جيد جدا عام ١٩٤٩ برسالة موضوعها «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» ، الدكتوراه بتقدير ممتاز عام ١٩٥٣ برسالة عنوانها «المعجم العربى : نشأته وتطوره» .

وعلى امتداد مسيرته العلمية أخرج حسين نصار حصاداً علميا وفيرا تتوافر فيه شرائط البحث الأكاديمى والثقافى العام من أصالة وأمانة ودقة وإحاطة . إن له من الكتب المترجمة «المغازى الأولى ومؤلفوها» لهوروفتس (١٩٥٠) «تاريخ الموسيقى العربية» (١٩٥٦) «مصادر الموسيقى العربية» (١٩٥٧) «أرض السحرة» للويس (١٩٥٧) .

ومن الكتب التى حققها مع أبحاث : «ديوان سراقة البارقى» (١٩٤٧) «ديوان ابن وكيع التنيسى» (١٩٤٥) «رحلة ابن جبير» (١٩٥٥) «ديوان عبيد بن الأبرص» (١٩٥٧) «ديوان جميل» (١٩٥٨) «المحكم فى اللغة» لابن سيده (١٩٥٨ ، الجزء الأول بالمشاركة مع الأستاذ مصطفى السقا) ، «معجم آيات القرآن» (١٩٥٤) كما صدرت أطروحتاه للماجستير والدكتوراه فى كتب تحمل عنوانى «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» (١٩٤٥) و«المعجم العربى» (١٩٥٦) على التوالى .

لن أتوقف عند هذه الأسفار الجليلة التى يعرفها المتخصصون وأقران نصار وتلاميذه من أساتذة الجامعات وباحثيها وطلاب الدراسات العليا فيها . وثمة غيرها لم أذكرها فما إلى الاستقصاء أردت ، وإنما هى أمثلة أضربها . سأتوقف وقفة قصيرة عند ثلاثة أعمال له أقرب متناولا وأدنى إلى فهم غير المتخصص مثلى ومثل كثيرين غيرى هى كتاب «مصر العربية» وكتاب «الشعر الشعبى العربى» ومختاراته من كتاب «الكامل» للمبرد .

(*) أستاذ الأدب الإنجليزى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

«مصر العربية» طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ، دار الثقافة العربية نوفمبر ١٩٦١ (وكانت الطبعة الأولى قد صدرت فى فبراير ١٩٦٠) مجموعة أبحاث تلم بأطراف من حالات مصر الأدبية والثقافية ، سعى فيها المؤلف ـ كما يقول فى مقدمة الطبعة الأولى ـ إلى أن يقدم نتائج علمية جديدة وحقائق أدبية وصفحات غير معروفة من أدب مصر وتاريخها فيضع مصر في وضعها الحق بين أخواتها العربيات .

تحمل فصول الكتاب العنوانات الآتية :

«دولة مهملة : أو دولة السرويين ، وهى إمارة مصرية قامت فى العصر العباسى الأول ، وخلافة بغداد فى أوج مجدها ، وكانت على قسط من الاستقلال الذاتى .

مملكة الساحل : أو إمارة الجرويين ، وهى مملكة كانت تمتد على ساحل مصر على بحر الروم (البحر المتوسط) فى زمن النزاع بين الأمين والمأمون ، ودامت حوالى اثنتى عشرة سنة (١٩٩هـ - ٢١٠هـ) .

الخلافة المصرية الأولى : (وهى خلافة أموية مروانية أقامها مصرى خالص المصرية ، وذلك حين نصب مروان بن الحكم ، بعد دخوله مصر أيام النزاع بينه وبين الزبيريين ، ابنه عبد العزيز بن مروان واليا عليها وجعله الخليفة بعد عبد الملك بن مروان .

المقاومة القولية : ويقصد بها مقاومة المصريين ، شعرا ونثرا ، لمن لم يرضوا عنه من خلفاء وأمراء .

بنو هذيل : وهم قبيلة عربية كبيرة من مُضر كانت تعيش فى المنطقة الممتدة بين المدينة ومكة والطائف نبغ منها شعراء .

آل العاص : وأهمهم عمرو بن العاص فاتح مصر الذى كان ـ بالإضافة إلى قدراته العسكرية ودهائه ـ شاعرا مُحسنا مجيدا وخطيبا مصقعا ، وأكبر أبنائه عبد الله ، وزوجة عمرو عاتكة بنت زيد .

الأكدر بن محمام اللخمى : وهو شاعر عاش فى مصر ، وكان هواه مع العلويين .

أبو أيوب الأنصارى : وهو صحابى له مقطوعة فى وقعة صفين .

شاعر الحياد العربى : وهو أيمن بن خزيم الأسدى ، وقد اتخذ موقف الحياد من الفتن التى أغرقت العالم الإسلامى فى المنازعات والخصومات والقتال ، واعتزل عليا ومعاوية وإن كان هواه أقرب إلى الأول .

أبو تمام فى مصر فى الفترة ما بين (٢١١ - ٢١٤هـ) وقد اختلفت الآراء فى تاريخ نزوله بها ، وناقش نصار آراء لمرجوليوث وشوقى ضيف ونجيب البهبيتى فى هذا الصدد ، مرجحا أنه نزل بها فى زمن مبكر ودرس الأدب فيها ، وأول شعر شدا به كان فيها .

البحترى ومصر : حيث أوضح صلاته ، قوة وضعفا ، بمصر وخاصة فى عهد الدولة الطولونية .

والمحطة الثانية التي أتوقف عندها هى كتيب حسين نصار «الشعر الشعبى العربى» (سلسلة المكتبة الثقافية ، أول مايو ١٩٦٢) وفيه يبين أثر الظروف الاجتماعية فى شعر العصور الجاهلية والأموية والعباسية . ويعرِّف المؤلف الأدب الشعبى بأنه «الأدب الذى يصدره الشعب فيعبر عن وجدانه ، ويمثل تفكيره ، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية ، ويوجه اهتماما خاصا إلى الرجز ، وأغانى الأفراح ، وأغانى الطفولة أو ترقيص الصبيان ، وأغانى الآبار ، وأغانى البناء ، والحداء ، وأناشيد الحروب والنواح ، وأدعية المتسولين ، واللغة العامية والزجل والمواليا .

ويتكامل هذا الكتيب وكتاب شوقى ضيف «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور» كما يتكامل وجهود دارسى الأدب الشعبى من مختلف الأجيال مثل أحمد تيمور وأحمد أمين وأحمد رشدى صالح وعبد الحميد يونس ، و أحمد مرسى ، وشمس الدين الحجاجى ، وسعد الخارم وفاروق خورشيد ومحمد إبراهيم أبو سنة وصفوت كمال وغيرهم .

وآخذ على هذين الكتابين ـ إن كان لى أن أفعل ـ أنهما يخلوان من الهوامش التى تشرح المفردات العربية الصعبة أو غير المأنوسة . وقد يحتج المؤلف بأن ثانى الكتابين على الأقل ، لم يتسع لمثل هذا مراعاة لاعتبارات الحيز وطبيعة السلسلة الثقافية المبسطة التى صدر فيها . ولكن أى جدوى من إيراد أبيات شعر أو قطع نثر غير مشكولة لا يفهم القارئ معناها أو لا يفهمها إلا جزئيا ، وقد يكون العلم الناقص ، فى بعض الحالات ، أسوأ مغبة من الجهل الصريح .

والكتاب الثالث هو «المختار من كتاب الكامل» للمبرد المتوفى فى القرن الثالث الهجرى ، مع مقدمة ، والكتاب صادر بمراجعة الأستاذ مصطفى السقا عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ولا يحمل تاريخا وإن كانت مقدمة الدكتور نصار مؤرخة فى منتصف يناير ١٩٦٠ . كان المبرد عالما غزير التواليف ، ألف فى النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب وغيرها ، وكتابه «الكامل» يلقى أضواء غامرة على تاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وفى حياتهم السياسية والثقافية والأدبية ، أو على حد قول المبرد : «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، مع تفسير الكلام ومستغلق المعانى ، وشرح ما يعرض من الإعراب شرحًا وافيا» . ويكفى للدلالة على قيمة الكتاب فى تاريخ الأدب العربى أن العلامة ابن خلدون يروى أنه سمع من شيوخه فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة

دواوين هى «أدب الكاتب» لابن قتيبة ، وكتاب «الكامل» للمبرد ، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ ، وكتاب «النوادر » لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

يستوقف المرء فى مسيرة الدكتور حسين نصار أمران - أو بالأحرى درسان - أحدهما علمى والآخر أخلاقى ، وإن ذابت الحدود بينهما وتداخلت . أما الدرس العلمى فهو أن كتاباته قد خلت من عيب يعتور الكثير من أبحاث أساتذة الأدب العربى لدينا إلا من عصم ربك : أعنى آفة الإطناب اللفظى ، والتزيد فى اللفظ ، والجرى وراء غواية الكلمة والصورة . ففى أبحاث حسين نصار منطق صارم ، والكلمة تلائم المعنى ملاءمة القفاز لليد ، وكل شىء لديه تحكمه وظيفية صارمة : فلا جملة زائدة عن الحاجة ، ولا أنت بقادر على أن تحذف منه - وإن أمكن أن تضيف إليه - شيئا .

هذا درس يحسن بشباب الباحثين أن يتلقوه عنه ، فإنما انضباط التعبير مرآة لانضباط الفكر ، وكم دعا أديبنا الكبير يحيى حقى إلى أن يتعلم كتابنا وباحثونا فضائل الدقة والتحديد والإيجاز .

وأما الدرس الأخلاقى فهو أن هذا العالم الجليل قد عكف منذ مطلع شبابه على تحصيل العلم والنهل من حياضه فى صمت وتبتل ، لم تفتنه أضواء الشهرة ولا كاميرات المصورين ولا كلمات المتملقين ، وإنما مضى على دربه الشاق المستوحش ، يضيف إلى العلم جديدا ، ويخرج جيلا بعد جيل من باحثين أصبح بعضهم الآن أساتذة كبارا يدينون له بالفضل ، وهو فى ذلك قرين جيل عظيم من أساتذة اللغة العربية وآدابها : د . سهير القلماوى ود . عبد العزيز الأهوانى ود شوقى ضيف ، ود . يوسف خليف ود . نبيلة إبراهيم ود . محمود فهى حجازى ود . محمود على مكى ، ود . عبد الحميد يونس وأضرابهم .

كان شعاره فى الحياة هو شعار أستاذه - وأستاذنا - أمين الخولى رائد جماعة الأمناء الذى وضع عنه نصار كتابا جميلا . لم يسع حسين نصار قط إلى جائزة أو منصب ، وإنما أتته الجوائز والمناصب (ومنها عمادة كلية الآداب بجامعة القاهرة ورئاسة أكاديمية الفنون بالهرم) منقادة إليه تجرر أذيالها ، ولم يقف بباب مسئول كبير ولا صاحب منصب خطير راجيا أو خاطبًا ودًا ، فقد كان يعرف - شأن فقهائنا وعلمائنا القدامى العظماء - أن العالم لا يسعى لأحد وإنما يُسعى إليه ، ويخطب وده الخلفاء والأمراء . وهذا درس آخر ما أحوج الأجيال الجديدة - وبعض القديمة أيضًا - إلى أن تتعلمه منه .

جهود الدكتور حسين نصار في الدراسات المعجمية

أ.د. وفاء كامل فايد *

انصرفت همة أستاذنا - فى مطلع شبابه - إلى دراسة ميدان لغوى بكر، هو مجال الدراسات المعجمية. وكانت رسالته للدكتوراه أول بحث من نوعه يتصدى لتأريخ المعجم العربى فى نشأته وتطوره تأريخا شاملا مفصلا، على منهج علمى دقيق.

وفى هذه الدراسة بيَّن أن اللغة العربية من أغنى اللغات الإنسانية فى ثروتها اللفظية، التى تستوعب الحاجات الحسية والمعنوية للأمة، كما بيّن أن العربية من أقدم اللغات حرصا على تأليف المعاجم اللغوية المختلفة.

وقد ضم كتابه «المعجم العربى» - الذى صدر منذ ما يقرب من نصف قرن - أشمل دراسة للمعاجم العربية، وقد تمكن بدقته ونفاذ بصيرته من استنباط المدارس التى احتوى عليها هذا العلم، والتى لم يزد عليها أحد من الدارسين مدرسة إلى اليوم.

وتابع جهوده فى التعريف بالمعاجم، وعرضها ودراستها، حين استطاع أن يطلع على مخطوط «كتاب الجيم» لأبى عمرو إسحق الشيبانى (ت ٢٠٦هـ)، فاعتمد على نسخة من هذا المخطوط فى دراسة ألقت الضوء على هذا المعجم، الذى كاد يضيع دون أن يرويه أحد، أو يقتبس منه لغوى.

استهل أستاذنا بحثه بعنوان الكتاب هادفا أن يعرف معناه وسبب تسميته، فذكر رأيين: أحدهما أن كلمة الجيم تعنى الديباج، فكتاب الجيم سمى بهذا الاسم تشبيها له بالديباج فى حسنه. أما الرأى الثانى فقد ذهب إلى أن حرف الجيم يكثر فيه الغريب، وكتاب الجيم للشيبانى معنىٌّ أكبر العناية بالغريب والحوشى؛ فلعل الشيبانى كان يرى فى عبارة (لغة الجيم) دلالة على الغريب والنادر من اللغة العربية.

وانتقل إلى غرض الشيبانى من تأليف كتابه، فرأى أنه لم يقصد إلى حصر أبنية اللغة، أو استنباط قواعدها الصوتية، وإنما كان هدفه تدوين الكلمات الغريبة والنادرة من لغات القبائل.

ثم حدد منهج الشيبانى فى الترتيب، فبيَّن أن الكتاب مقسم إلى أبواب، يختص كل منها بحرف من حروف الهجاء. ولم يراع مؤلفه التقسيم الداخلى للأبواب، ولا ترتيب

(*) أستاذ اللغويات - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الصيغ ، فلم يصل إلى معالجة المفردات اللغوية مرتبة على أصولها الصرفية أو موادها اللغوية ؛ بل كان يتبع طريقة الترتيب العشوائية التى اتبعتها كتب النوادر .

وانتقد الدكتور نصار هذا الترتيب ذاكرًا أن من نتائجه تشتيت الألفاظ التى ترجع إلى أصل واحد بين صفحات الباب كله ، وتكرير تفسير بعض الألفاظ . وعقد مقارنة بين كتابي «العين» للخليل و«الجيم» للشيبانى استدل منها على أن الأخير ألف كتابه بمنأى عن كتاب «العين» . وحدد أهم الظواهر فى «الجيم» ، وتتمثل فى :

١ ـ تحريه النادر من الألفاظ والغريب من التفسير .

٢ ـ عنايته باللهجات ، حتى إنه يفوق ـ من هذا الجانب ـ جميع المعاجم التى بين أيدينا .

٣ ـ إيراده للألفاظ الغريبة فى سياقها ؛ مما يتمم تفسيرها ، ويوضح طريقة استعمالها فى لغاتها ، ويجعلنا على صلة مباشرة بالتعبير العربى الصميم .

٤ ـ عنايته الكبيرة بالشواهد الشعرية ، وإيراده لكثير من الأخبار والقصص القصير .

٥ ـ تأثره بالرسائل اللغوية على الموضوعات : فكان يتتبع ما يتحدث عنه ، فى أحواله المختلفة ، دون أن يلتزم بوضع كل كلمة فى موضعها تبعا لحروفها .

٦ ـ ميله إلى إيراد المترادف من الألفاظ والعبارات .

٧ ـ ندرة الأعلام ، والشواهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف .

ولحظ أستاذنا على كتاب الجيم وقوع خلل فى وضع بعض الشواهد الشعرية ، إلى جانب اضطراب التفسير . واستكمل عرضه للكتاب بوصف نسخة المخطوط التى اعتمد عليها .

أما دراسته لكتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدى فقد حاول فيها أن يلقى الضوء على أقدم نسخة منه ببغداد ، وهى الموجودة بمكتبة حجة الإسلام السيد حسن الصدر .

وبدأ بالتحقق من السند الذى وصل الكتاب عن طريقه . وقد كتب فى مستهل النسخة أنه لم يتعد راوية واحدًا أخذ عن الليث مباشرة . ولكن الدكتور نصار ـ عند فحص الكتاب ـ وجده يعتمد على عدة نسخ سابقة عليه ، اختار الكاتب منها واحدة التزمها وجعلها النسخة الأم ، وحين خرج عليها نبه إلى ذلك ، ونقل من هذه النسخ أحيانا تصحيحا لبعض الألفاظ الواردة فى تفسير المواد التى يعالجها . ووصل إلى أن الكاتب كان بين يديه ست نسخ ـ على الأقل ـ يردد نظره فيها وينقل عنها . وأكثر ما يشير منها إلى نسخة (الحاتمى) .

ومن فحص الباحث للمتن قرر أنه من المحال أن تكون هذه النسخة من كتاب «العين» قريبة العهد بالليث بن المظفر، وأن الراوية المذكور فى مستهلها ليس آخر رواتها، وأكد أن كاتبها كان يعيش فى أواخر القرن الخامس أو ما بعده .

وفى نظرة موسوعية شاملة عرض الدكتور نصار صورة شاملة للمعاجم العربية القديمة موضحا خصائصها، وطرق ترتيبها . فبدأ بمعجم «العين» موضحا الأسس التى بني عليها، والنقائص والصعوبات التى واجهها . فذكر ترتيب مواده وفقا للمخارج الصوتية، ثم التزامه نظامى الأبنية والتقاليب . وتابع المعاجم التالية له موضحا مدى التزامها بالأسس التى سار عليها الخليل فى معجمه، ومبينا المعاجم التى عدلت عن هذه الأسس، وسبب هذا العدول، ثمن المنهج الذى سارت عليه حتى تخلص من مصاعب ترتيب الألفاظ فى المعجم .

ثم عقد مقارنة بين المعاجم القديمة والحديثة فى جانبين، الأول : ترتيب الصيغ والمعانى داخل المادة اللغوية الواحدة، والثانى : عدم الدقة - عند الخليل خاصة - فى ضبط المواد والصيغ بالشكل؛ مما جعلها عرضة للتحريف والخطأ . وأشار إلى أن المعاجم الحديثة تفادت هذين الأمرين فالتزمت ترتيبا خاصا بكل صيغة يضعها فى موضع محدد، كما التزمت موضعا واحدا لكل معنى، إلى جانب التزامها بالضبط التام .

ووضع الخطوط العريضة التى تبين الصورة المثلى للمعجم عند العرب كما يلى :

- الالتزام بالترتيب الألفبائى للحروف الأصلية للكلمة، بدءا من الحرف الأول .
- الفصل بين المعانى المختلفة لكل مادة .
- ايراد الصيغ فى مواضع محددة لاتتجاوزها .
- الالتزام بالضبط .

ثم انتقل إلى المعجم العام الشامل لجميع ما تحتوى عليه العربية، فرأى أنه يجب أن يبدأ بجمع ما بقى عندنا من المعاجم القديمة والرسائل اللغوية، واستخلاص ما تتضمنه من صيغ ومعان . يلى ذلك جمع ما بقى عندنا من التراث العربي كله دون استثناء، فى كل علم وفن ومنحى، ثم تصنيف التراث - حسب مايشتمل عليه من موضوعات - تصنيفا دقيقا وفقا لأنواع النشاط الفكرى البشرى، وتقسيم كل صنف منها تبعا للقطر الذى أصدره، مهما كان موقعه من العالم، ثم ترتيب هذه الأصناف ترتيبا تاريخيا من الأقدم إلى الأحدث .

وتتم تغذية الحاسوب بهذا التراث؛ لكى نتمكن من معرفة الكلمة فى استخداماتها كلها، مصنفة على الأقطار ومرتبة على السنوات . فنتمكن من تتبع معانيها فى هذه

الاستعمالات إن تعددت ، ومن تبين الاختلاف بينها إن تغايرت ، واستنباط أسباب التباين ؛ فيمكننا أن نؤرخ للكلمة ، وحين نؤرخ لكل كلمة من كلمات اللغة نكون أرّخنا للغتنا وللفكر العربى .

وتصور الباحث أن تحتشد لهذا العمل الكبير جهود هيئات وأجيال وأقطار متضافرة ، ترصد له المال ، وتقسم العمل المتكامل ، وتهيئ له الوسائل المعينة عليه . وضرب مثالا بمعجم أكسفورد الكبير فى اللغة الإنجليزية الذى استغرق العمل فيه ما يزيد على سبعين عاما ، واعتمد على الجهد البشرى وحده ، فكانت معاناتهم فى إخراجه أعظم مما علينا أن نعانيه لإنجاز معجم مثله فى العربية .

وانتقل إلى المعاجم الخاصة بالأدباء ، فذكر أن لكل أديب نهجه الخاص فى التعبير ، سواء فى معانى الكلمات التى يستخدمها أو فى الطريقة التى تتراكب بها الألفاظ عنده . ولن يوضح ذلك سوى معجم خاص بهذا الأديب ، يضم كل ما استعمله من ألفاظ مفردة ومركبة .

وأشار إلى معجم شيكسبير فى الإنجليزية ، وإلى جهد عبد الرحمن الحاج صالح فى الجزائر ، ثم إلى جهد قسم اللغة العربية فى كلية الآداب من جامعة القاهرة لتنفيذ الفكرة حين كلف عددا من طلاب الدراسات العليا بصنع هذه المعاجم ، مع التزام طريقة خاصة فيها .

فإذا أنجزنا معاجم شعراء عصر معين وأدبائه ، استطعنا أن نعرف اللغة العربية فى هذا العصر معرفة دقيقة وشاملة . وإذا فرغنا من سائر الدواوين والآثار استطعنا أن نتعرف على لغتنا الأدبية ، وأن نؤرخ لها من عصر إلى عصر .

ثم انتقل إلى رسم صورة للمعجم الاشتقاقى ، الذى يقسم الكلمات التى يعالجها إلى ثلاثة أنواع : العربى الأصيل ، والمشترك بين العربية واللغات السامية الأخرى ، والدخيل الذى أخذته العربية من غير الساميات ، ونبه إلى أن الأسس المهمة فى المعاجم اللغوية ، وهى ما يجب اتباعه عند وضعها ، هى :

١ ـ تحديد سبب تأليف المعجم ، والغاية التى يهدف إليها ؛ لكى يتلمس الطرق إلى بلوغها .

٢ ـ تمحيص المادة التى يتألف منها ، تبعا للهدف منه .

٣ ـ وضع نظام صارم لترتيبه الهجائى ، يخضع له كل من المفردات ، والصيغ داخل

المادة ، وكذلك المعانى . وإذا تعددت المعانى الأساسية فى المادة الواحدة تقسم وفقا للمعانى ، وتوضع الصيغة الموافقة لكل معنى تحته على نظامها ، وتقدم المعانى الأكثر شيوعا على غيرها ، وتؤخر المصطلحات .

٤ - تمحيص طرق تفسير المعانى ، والإكثار من الصور عند الحاجة ، ووضع الكلمة فى سياقها .

٥ - الدقة فى طباعة المعاجم .

وهكذا أعطانا شيخنا - قبل عشرين عاما - صورة واضحة متكاملة مفصلة للمعاجم التى ما زالت العربية فى حاجة إليها حتى اليوم . كما اهتم بمعالجة الظواهر اللغوية التى تندرج فى إطار المعاجم ، فأفرد بحثا مستفيضا عالج فيه ظاهرة (الأضداد فى اللغة)[١] وطبع فى كتاب بعنوان : «مدخل تعريف الأضداد» ، كما خصص فصلا لمعالجة ظاهرة (الإتباع فى العربية)[٢] .

وفى بحثه عن (الأضداد) عرف الظاهرة ، وأورد آراء علماء اللغة القدامى فيها ، واختلافهم حول وجودها فى اللغة ، ثم انتقل إلى آراء المحدثين حولها ، وأجمل الأدلة التى اعتمد عليها المستشرقون فى إنكار الأضداد . ثم انتقل إلى الحديث عن أصل الأضداد ، وأسباب نشأتها فى العربية . كما ذكر شروط الأضداد وأنواعها . وتناول أسباب تدوين الأضداد وظهور كتبها ، كما أشار إلى بواكير جمع الأضداد ، ورصد أسماء ثلاثة وعشرين كتابا من كتب الأضداد ، مرتبة وفقا لتواريخ وفاة مؤلفيها .

واهتم بإبراز الظواهر التى سادت كتب الأضداد التى وصلت إلينا ، وتوضيح طرق تناول مؤلفيها للأضداد . فعل ذلك فى كل من «أضداد» قطرب وأبى عبيدة والأصمعى والتوزى وابن السكيت والسجستانى وأبى بكر بن الأنبارى وأبى الطيب اللغوى وابن الدهان والصغانى ، وغيرهم ممن كتبوا رسائل فى الأضداد ، بالإضافة إلى المؤلفين الذين ضمت كتبهم أبوابا أو فصولا للأضداد ، وهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وابن قتيبة ، والثعالبى ، وابن سيده ، والسيوطى .

---

(١) نشر فى مجلة اللسان العربى ، الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط : المجلد ٨ - ج ١ يناير ١٩٧١/ المجلد ٩ - جـ ١ يناير ١٩٧٢/ والمجلد ١٠ - ج١ ، يناير ١٩٧٣ .

(٢) فى كتابه «دراسات لغوية» ، ص ٤٧ - ٦٤ ، ط ٢ . بيروت : دار الرائد العربى ، ١٩٨٦ .

وأنهى بحثه بنظرة شاملة تحلل موقف كل من المنكرين للأضداد والمؤيدين لها ، ثم حدد المعيار الذى يجب أن تقاس به الأضداد ، ورسم الصورة الصحيحة لكلمات هذه الظاهرة .

وفى بحثه عن (الإتباع) رصد اختلاف العلماء فى تصورهم لهذه الظاهرة ، وعالجها من جوانب أربعة ، على النحو التالى :

١ ـ من حيث المعنى :

رصد آراء المتقدمين التى تتمثل فى اتجاهين : الأول أن اللفظ التابع لامعنى له ، والثانى أن التابع قد يكون له معنى .

٢ ـ من حيث الصورة :

استحسن تعريف ابن فارس وهو أن الإتباع أن تلى الكلمة كلمة على وزنها أو رويها إشباعا وتوكيدا .

٣ – من حيث التعبير : وضح الإجماع على أن اللفظ التابع لاينفصل عن المتبوع ، سواء له معنى أو لم يكن .

٤ – من حيث الغرض :

رأى أن الإتباع يراد منه التوكيد .

ثم رصد تقسيم عز الدين التنوخى للإتباع ، وقد عده أشمل تقسيم للظاهرة .

وانتقل إلى عرض ألوان أخرى من الإتباع لا تندرج تحت المفهوم الاصطلاحى للظاهرة ، ولكنها تندرج ضمن ألوان من الإتباع فى المفردات وفى المركبات اللغوية ، فقد خضعت المفردات لنوعين من الإتباع : نوع جرى في حركاتها ، وآخر فى حروفها ؛ وكلاهما يضم المطرد وغير المطرد ، كما تخضع المركبات لإتباع يجرى فى الحروف . وخلص إلى القول إن الإتباع ظاهرة لغوية جمالية ، تدل على ما يعانيه المتكلم من انفعال ، وتمنح المستمع متعة فنية ؛ فالمتحدث بها لا يقصد إلى الإخبار المجرد ، بل يرمى معه إلى المشاركة الوجدانية .

وفى إطار المعاجم المتخصصة تناول كلا من كتب النبات والإبل والتراث الجغرافى اللغوى عند العرب بالدراسة التفصيلية فى كتابه : «دراسات لغوية» . كما أشار إلى معاجم المعانى حين درس كتب الفروق اللغوية .

وعندما تناول كتب النبات ذكر أن اللغويين العرب تعرضوا للنبات فى كتب خاصة به ، وفى أبواب من كتب عالجت النبات وغيره من الموضوعات التى تعرضت لها الرسائل اللغوية ؛ وحكم بأن الذين خصوا النبات بأبواب من كتبهم لم يوفوه حقه ، فكانت أبوابهم قصيرة لا قيمة لها ، ما عدا المخصص لابن سيده . وكانوا يحاولون شيئا من الترتيب الزمنى خاصة عندما يتيسر لهم ذلك . ووصل الأصمعى وابن خالويه إلى تقسيم محكم للشجر الذى عالجاه فى كتابيهما ، ثم التزم أبو حنيفة الدينورى الترتيب على الحروف ، ولكنه كان ترتيبا قاصرًا ، ونضج الترتيب عند أحمد عيسى والأمير مصطفى الشهابى ، ولكنه كان ترتيبا أجنبيا ، وظهر لون من الترتيب عند صاحبى «الإفصاح» .

ويمكن القول إن أكثر القدماء اتفقوا فى علاجهم لسوادهم على منهج يقوم على الإشارة إلى المفرد والجمع والمشتقات وإيراد الشواهد ، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك كثيرًا .

وفى كتب الإبل ذكر أن العرب تنبهوا إلى معالجة الإبل فى النصف الثانى من القرن الثانى ، ثم توالت الكتابة عن الإبل ، ولم يصل إلينا من الكتب الخاصة بها غير كتاب الأصمعى ، الذى كان ذا أثر كبير فى بقية الكتب اللغوية التى تعرضت لهذا الموضوع بعده ، فقد صار هذا الكتاب القدوة التى يحتذى بها ، فى المادة وفى النواحى التى يجب تناولها ، وفى الترتيب .

وتناول التراث الجغرافى اللغوى عند العرب فاختص الذين عالجوا أسماء الأماكن معالجة لغوية أدبية ، فأورد كتبهم ، وأشار إلى أنها جميعا كانت تهتم بالاسم أكثر من المسمى ، باعتبار الاسم من المادة اللغوية التي تعالجها ، واعتمدت على الشعر والأخبار الغريبة فى استخلاص هذه الأماكن وتحديد مواقعها ، كما يعتمد عليه اللغويون فى تفسير الألفاظ ، وأقامت تحديدها للمواقع على ذكر الأماكن المجاورة وأبعادها عنها بالمراحل والأيام والأميال . وكان أدقَّهم ياقوت الذى اعتمد على معلوماته الجغرافية ، حتى كان يحدد المواضع بخطوط الطول والعرض .

وكانت الجزيرة العربية وما تاخمها من أقطار عربية هى موضع دراسة المؤلفين الأولين ، ولم يشذ عنهم غير الجاحظ الذي تناول بلادا غير عربية ، وبقى الأمر كذلك حتى القرن السادس ، فتناول المؤلفون المدن الإسلامية الأخرى ، ثم توسع العمرانى وياقوت إلى بقية أنحاء العالم القديم ، واختلفوا فى ترتيب الكتب ، إلى أن بلغ الترتيب كماله عند ياقوت الذي راعى حروف الكلمة كلها أصلية كانت أو مزيدة .

واتفق البكرى وياقوت على ضبط الأسماء بالعبارة ، وإبانة حقيقة حروفها والحركات عليها ، والإشارة إلى اشتقاقها ، وأفادا من المعاجم اللغوية : فاستقى البكرى كثيرا من رسومه من «جمهرة» ابن دريد ، وأكثر ياقوت من الرجوع إليه وإلى الأزهرى والجوهرى ، فتبادل هذا النوعان من المعاجم التأثير والتأثر .

وذهب إلى أن «معجم البلدان» لياقوت يمثل القمة التى وصل إليها هذا النوع من التأليف ؛ فقد مزج فيه صاحبه جميع ألوان الثقافة الإسلامية المتصلة به .

وأشار إلى معاجم المعانى حين درس كتب الفروق اللغوية وهى الكتب التى تعالج الألفاظ التى تطلق على أعضاء تشترك فيها أنواع الحيوان ، وتأخذ فى كل نوع لفظا خاصًا . فبدأ بكتاب قطرب ، وذكر أنه تناول الفروق فى ثلاثة أمور فحسب ، هى أسماء الحيوان وأولاده ، وجماعاته ، وأصواته ، وأفرد كل حيوان من شاء الوحش ، وذوات البرثن ، وذوات الجناح ، وراعى فى التعرض لها ترتيبا معينا التزم به .

وذكر أسماء العلماء الذين ألفوا فى الفروق موضحا أن كتبهم ضاعت كلها إلا واحدا .

وانتقل إلى كتاب الأصمعى فعقد مقارنة بين الموضوعات التي تناولها الأصمعى وقطرب ، وبيَّن أن الأصمعى اكتفى بوضع الأمور المتقاربة متعاقبة ، ولم يراع أى ترتيب . وانفرد ثعلب ـ بين أصحاب الموسوعات اللغوية المرتبة على الموضوعات ـ بتخصيص الباب الأخير من كتاب «الفصيح» للفروق ، وضبط كلماته .

ولا أستطيع فى هذا المجال إغفال تحقيق أستاذى لمعجمين من معاجم العربية : أولهما الجزء السادس من «تاج العروس» للزبيدى ، الذى نشر ضمن سلسلة التراث العربى في الكويت ، ١٩٦٩ : والثانى هو «معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية» الذى نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ، ١٩٧١ ، وطبعته دار الكتب فى ستة مجلدات عام ٢٠٠٢ .

وبعد فقد كانت هذه محاولة لتسجيل جهود أستاذنا العلامة فى الدراسات المعجمية ، تتبعنا فيها محاولاته الدؤوب ـ طيلة نصف قرن ـ فى عرض المعاجم وتحقيقها ودراستها ، ورسم منهجها ، وتبين الثغرات التي يجب علينا ملؤها لنستكمل النقص فى معاجمنا ، ونصل بها إلى مستوى المعاجم المتقدمة ، التى تأخذ بالتقنيات المعجمية الحديثة .

الدكتور حسين نصار والصناعة المعجمية

أ. د/ صلاح الدين حسنين*

يميز اللغويون بين مصطلحين : علم المفردات (الثروة المعجمية) Lexicology ، والصناعة المعجمية Lexicography .

١ - علم المفردات .

يهتم هذا العلم بالثروة اللغوية ، والمقولة النحوية للكلمة والمعلومات الوظيفية الخاصة بها ، ومعنى الكلمة ، والتوليد .

الثروة اللغوية : تُقَسَّمُ الثروة اللغوية إلى كلمات أصلية ، وكلمات أجنبية مقترضة ، دخلت اللغة بسبب احتكاك اللغة مع غيرها من اللغات ، وكلمات مولَّدة .

الكلمات الأصلية : تركز الدراسة هنا على وسائل نمو الثروة اللغوية ، ولها ثلاث وسائل هى الاشتقاق - النحت - التركيب .

الاشتقاق : هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ؛ ليدل بالثانية على معنى الأصلى بزيادة مفيدة[1] .

ويساعدنا الاشتقاق على التمييز بين الأصل والمشتق ، يمثل الأصل الجذر ؛ أى مجرد الصوامت ، والوزن ، وهو يشمل الحركات ، أو الحركات والتشديد أو الحركات والزوائد ، أو الحركات والتشديد والزوائد ؛ نحو : فَعَل وفَعَّل وأفعل وتَفَعَّل . . . إلخ ، والصيغة ؛ وتشمل الأصل مضافًا إليه الوزن ؛ نحو : كتب وكَسَّرَ ، وأكرمَ ، وتَفَهَّمَ . . . إلخ .

النحت : يقصد به تكوين كلمة جديدة مركبة من كلمتين أو أكثر للدلالة على معنى مركب من معانى الألفاظ المتكونة منها ؛ وهو نوع من الاختصار لجأ إليه المتكلمون باللغة العربية ، والداعى إليه كما قال أحد العلماء : عدم جواز اشتقاق كلمة من كلمتين فى أقيسة التصريف[2] .

(*) أستاذ اللغويات بكلية الآداب جامعة القاهرة فرع بنى سويف .

(١) انظر : السيوطى ، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، (٣٤٦/١) ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٨م .

(٢) انظر : حلمى خليل : المولد ، ص ١٠٢ . الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨م .

٢ - الصناعة المعجمية :

المعجم وأصنافه : المعجم وعاءٌ تُحفظ فيه اللغة ، وهو بهذه المثابة مفروض فيه أن ينبه الباحث إلى الثمين والغث من محتوياته ، إلى المفيد والأقل فائدة ، إلى الضرورى وما لا لزوم له ، إلى الثابت الأصيل والمشكوك فيه أو المزيف ، وهو مطالب بأن يتكيف حسب حاجة المستعين به ؛ بحيث تكون هناك ألوان شتى من المعاجم ، وهو مسئول عن حفظ اللغة ، وعن تطويرها أيضًا .

والمعاجم اللغوية ثلاثة أصناف :

أ - معاجم الترجمة أو المعاجم ثنائية اللغة التى تحدد المفاهيم بين ألفاظ اللغة القومية ولغة أجنبية .

ب - المعاجم اللغوية : وهى التى تشرح ألفاظ اللغة ؛ حتى يستعين بها الباحث على معرفة معنى ما يصادفه من الغريب .

جـ - المعاجم الموضوعية ، أو معاجم المعانى : وهى التى ترتب الثروة اللغوية فى مجموعات من الألفاظ تندرج تحت فكرة واحدة ؛ فمثلا يجد الباحث فيها فى مادة أسرة جميع الألفاظ الدالة على الأبوين والأقارب بحسب درجاتهم فى القرابة ، سلفًا كانوا أم أندادًا أم خلَفًا ، وإذا احتاج إلى لفظ دقيق يدل على لون يراه مثلاً ؛ فإنه يجد فى مادة لون كل ما تضمه اللغة من أسماء الألوان بدرجاتها المختلفة .

ومن المعاجم اللغوية تفرعت فروع حديثة فى فن تأليف المعاجم ، أهمها :

١ - المعاجم الاشتقاقية أو التأصيلية ؛ وهى التى تبحث فى أصول ألفاظ اللغة .

٢ - المعاجم التاريخية ؛ وهى معاجم تهتم بأصل المعنى بعكس سابقتها التى تهتم بأصل اللفظ ، وهى تتتبع استعمال اللفظ عبر العصور والنصوص ، وما طرأ على معناه من تطور ، فتثبت ذلك ، وتؤرخ له .

٣ - المعاجم الموسوعات ؛ وهى سجلات ألفبائية لمعارف البشر عامة ، أو فى فرع من الفروع ، يُستوفى شرحه من الناحية العلمية . وباختصار هو (دائرة معارف) .

٤ - معاجم المصطلحات ؛ وهى التى تهتم بحصر مصطلحات علم معين ، أو قائم بذاته ، وتشرح مدلول كل مصطلح حسب استعمال أهله والمختصين به(١) .

---

(١) انظر : حسين ظاظا : كلام العرب جـ ٢ / ١٠٠ - ١٠٤ ، دمشق ، ١٩٩٥م .

حسين نصار والصناعة المعجمية :

وقد عنى حسين نصار بموضوع الصناعة المعجمية عند أصحاب المعاجم العربية ويتضح هذا من نواح كثيرة فى كتابه : «المعجم العربى ، نشأته وتطوره» .

فقد تعرض لهذه الأسس عند تحليله لكل معجم تعرض له ، وعند تناوله لخصائص المدرسة التى ينتمى المعجم إليها ، أضف إلى هذا أنه خصص الجزء الثالث من كتابه للحديث عن المعاجم التى نحتاج إليها ، وقَسَّمَ هذا الجزء إلى فصلين ؛ تحدث فى الأول منهما عن عيوب المعاجم القديمة ، وتحدث فى الثانى عن خصائص المعاجم التى نحتاج إليها . وسأعرض فيما يلى لكل ذلك فى ضوء الترتيب الذى أوضحته عندما تناولت الصناعة المعجمية .

١ - المعاجم العربية والتصنيف المعجمى :

يرى حسين نصار أن المعلومات التى تحتوى عليها سائر المعاجم العربية تجعل من الصعب تصنيف هذه المعاجم ؛ فهى تجمع بين ما يمكن أن نطلق عليه حاليًا دوائر المعارف ، والمعاجم اللغوية ، يقول فى هذا : «لم يتمثل أصحاب المعاجم الغرض منها ؛ فهم جميعًا ، سواء من أطال ومن اختصر ، يريدون أن يجمعوا اللغة بواضحها وغريبها ، ونادرها ولغاتها ، وأن يجمعوا معها معارف العرب ، أو النواحى المختلفة من الثقافة العربية ، حتى أصبحت معاجمنا كبرج بابل ، يحوى من كل صنف ، وتختلط فيه الأصناف اختلاطًا عجيبًا ، فهذا ابن دريد يريد أن يجمع جمهور الكلام فيأتى بما لم يعرفه عرب الشمال إلا من أبعد منهم فى الجنوب قاصدًا بتجارته اليمن ، وأتى بما لا يدور على ألسنة عرب الشمال إلا قليلاً أو على ألسنة قبائل متفرقة منهم ، فكان من النوادر ، وهذا ابن فارس يؤلف «المجمل» فيحشوه بما يزخر به كتابه الأكبر (المقاييس) ، ويملؤه بما أتى به الخليل الذى قصد إلى الواضح والغريب فى معجمه ، وبما أتى به ابن دريد ، وقد مضى ذكر ما أولع به من لغات يمنية وغيرها .

أما من أطالوا فحشوا كتبهم بالأعلام العربية ، والأعجمية ، وأسماء الأماكن والقصص والخرافات ، والمفردات الطبية ، والاصطلاحات الغريبة ، حتى مصطلحات ضرب الرمل والأمور الأجنبية من الإسرائيليات ، والروميات ، والهنديات ، والمشتقات القياسية ، وما يمكن الاستغناء عنه ، ودفع حب الغريب بعضهم إلى تأويل الواضح والإبعاد فى معناه . وليتهم ساروا فى هذه الأمور على وتيرة واحدة ، وعمدوا فيها إلى الاستقصاء ، ولكنهم كانوا يعنون بالأعلام ، فيأتون ببعضهم ، ويهملون آخرين ، لعلهم أشهر ممن ذكروهم .

ويُعنون ببعض المصطلحات ، فيذكرونها ويهملون أخرى لعلها أكثر منها شهرة ودورانًا على الأسنة ، وليتهم عُنوا بالدقة والتحديد فيما ذكروه حتى يُعطوا صورة واضحة منه ، فلو فعلوا ذلك لاعتبرنا معاجمهم دوائر معارف . . . والرأى عندى أن تبتر جميع هذه الفنون من المعاجم ، ولا نُبقى إلا الألقاب التى لها دلالة خاصة والمصطلحات الشائعة»[1] .

وقد أكد حسين نصار على ضرورة التمييز بين المعجم اللغوى ودائرة المعارف ، حيث يقول : «المعجمات لتفسير الألفاظ ، ودوائر المعارف لوصف الأشياء ، ولا يصف المعجم من الأشياء إلا ما لا بُدَّ منه ؛ إبرازًا لدلالة اللفظ ، واستعمالاته ، ولا يُعنى بهذا الوصف إلا بالقدر اللازم لهدفه هذا . كذلك لا تشترك مفردات النوعين ، فالمعجمات تحتوى على أصناف الكلام جميعها من أسماء وأفعال وحروف ، ولا تُعنى من الكلام إلا بما ينتمى إلى اللغة التى تؤلف منها ؛ فالمعجم يُعنى باللفظ العربى ، أو ما يتكلم به العرب . . . أما دوائر المعارف ؛ فتعنى بالأسماء الخاصة وحدها ، أى أسماء الأشياء والأعمال دون أن تتقيد بلغة معينة» .

فى ضوء كل ذلك دعا حسين نصار إلى ضرورة الاهتمام بالتصنيف المعجمى فى ضوء الهدف المحدد للمعجم ، كمعاجم المصطلحات ، وأوضح أن مجمع اللغة العربية أنجز كثيرًا من مصطلحات العلوم والفنون ونشرها تباعًا فى مجلّته ، والمعجم التاريخى . كما دعا إلى وضع معاجم محتلفة الحجم : المعجم الكبير ، والمعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز ، ومعجم الجيب ، وأوضح أن مجمع اللغة العربية نشر المعجمين الوسيط والوجيز ، وأنه فى سبيل إنجاز المعجم الكبير ، أما معجم الجيب ، فلم ينجز حتى الآن ، وينقصنا مثل هذا النوع من المعاجم .

٢ - المادة اللغوية التى تحتوى عليها المعاجم العربية :

حدد أصحاب المعاجم هدفهم من معاجمهم بأنه جمع اللغة ، ويرى حسين نصار أن هذه المعاجم لم تحقق هذا الهدف ، ومن ثم تعد قاصرة ، ويرجع هذا القصور إلى عدة أسباب ، من بينها أن أصحاب المعاجم اقتصروا على جمع الفصيح الصحيح ، وهنا يقول محمد أبو الفرج : إن الفصيح عند أصحاب المعاجم هو الكلمة التى يكثر استعمالها على ألسنة العرب ، أما الفصيح الصحيح ؛ فهو الكلمة التى يكثر استعمالها عند قبائل محددة ، وليست كل القبائل. وهذا التعريف لا يكفى ، بل هى الكلمة الشائعة عند الخاصة من هذه القبائل ، وليس عند العامة ؛ لذا نجدهم يهتمون بالكلمات التى مصدرها القرآن الكريم

(١) انظر : حسين نصار : المعجم العربى ؛ نشأته وتطوره ، (٧٤٩/٢ ، ٧٥٠) ، ط ٢ . دار مصر للطباعة ، ١٩٦٨م .

أو الشعر أو الكلمات نادرة الاستخدام (الغريبة) الشائعة على ألسنة الخاصة من القبائل المحددة ، ومن اشترطوا فى مثل هذا النوع من الكلمات ألا تكون وحشية ؛ أى لا ينفر السامع عنها ، أضف إلى هذا أن الكلمات التى يعترف بها هى تلك التى ترجع إلى عصور الاحتجاج .

وكان من نتائج ذلك أن أصحاب المعاجم أهملوا الألفاظ المولَّدة ، يقول حسين نصار : إن ذلك أضاع علينا كثيرًا من الألفاظ التى ابتكرها العباسيون للمظاهر والحضارة الجديدة التى عاشوا فيها ، وجعلوا اللغة لا تساير ركب الحياة ، فاتهمت بالتحجُّر ، ويرى أنه لمعالجة مثل هذا القصور يجب أن نتدارك ما أهمله أصحاب المعاجم من ألفاظ الأدباء والعرب الذين يُستشهد بكلامهم فى عرفهم ، وأننا نستطيع أن نجمع قدرًا كبيرًا منه حين نحقق دواوين الشعر ومجاميع الأدب ، ونبرزها فى صورة علمية معتمدة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا بالتخلص من إشكال الألفاظ المولَّدة والمحدثة نستطيع أن نؤلف أصنافًا من المعاجم ، منها ما يختص بالألفاظ الفصيحة وحدها ، ونسميه معاجم العربية الفصحى ، ومنها ما يختص بالألفاظ جميعًا ونسميه معاجم العربية العامة .

٣ - ترتيب المعجمات :

أولا : الترتيب الخارجى للمداخل : ترتيب المواد

أ - إن تحديد المادة يرتبط بشكل مباشر بفكرة الاشتقاق ؛ ذلك أن المادة أو الجذر تمثل الأصل ، والصيغ تمثل الفروع المشتقة من الأصل . وهذا يعنى أن تحديد الجذر مهم جدًا للترتيب المعجمى . وفى ذلك يقول حسين نصار : إن الصرفيين اختلفوا فى تحديد الجذر (الأصل) ، ومن أمثلة هذا الاختلاف ما يلى :

١ - الفعل الرباعى المضاعف : يرى الكوفيون أنه مشتق من الثلاثى ، ويرى البصريون أنه أصل بذاته . وقد انعكس هذا الخلاف على أصحاب المعاجم ؛ فالمعجمى الكوفى سيراعى المذهب الكوفى ، والمعجمى البصرى سيراعى المذهب البصرى ، وهكذا نجد اختلافًا فى ترتيب المواد ، فالبعض سيفرد مدخلاً خاصًا للفعل حسب المنهج البصرى ، والبعض الآخر سيضع الفعل ضمن مشتقات المادة الثلاثية .

٢ - المواد التى تحتوى على الهمزة ، وحرفى العلة الواو والياء ، والنون :

من المعروف أن الصيغ المعتلة بالواو أو بالياء تتعرض للقلب والإبدال ؛ فقد تقلب الهمزة واوًا أو ياءً فى بعض الصيغ ، والعكس صحيح ، فإن الهمزة قد تبدل واوًا أو ياءً عند تسهيلها . وإزاء ذلك نجد من المعجمين من يعتدّ بالواو أو الياء للصيغ المهموزة ، ونجد

منهم من لا يعتد بذلك . وعلى النقيض من ذلك نجد منهم من يعتد بأصالة الهمزة للصيغ المعتلة . وقد انعكس ذلك على ترتيب مثل هذه المواد ، بل الأكثر من ذلك لم يستطع المعجميون فى جميع الأحوال فصل المعتل الواوى عن المعتل اليائى ، وهذا انعكس هو الآخر على الترتيب المعجمى . أما الكلمات المحتوية على النون فقد اختلطت على أصحاب المعجم ؛ خاصة إذا كانت الكلمة معرَّبة ، فهل النون فيها أصلية أم لا؟ نحو نرجس(١) .

ب - قسم حسين نصار المعاجم حسب ترتيب مداخلها الخارجية إلى أربع مدارس هى :

المدرسة الأولى : وتعرف بمدرسة الترتيب الصوتى ، ويعتمد ترتيب هذه المدرسة على الأسس الآتية :

١ - رتب المعجم حسب ترتيب مخارج الحروف ابتداءً من حروف الحلق ، حتى الحروف الشفهية ؛ وهذا يعنى أن المعجم نفسه ينقسم إلى كتب يتناول كل كتاب حرفًا من الحروف ، ويبدأ الكتاب الأول بالعين ، والثانى بما يلى العين من المخارج وهو الحاء ، وهكذا حتى يتم الوصول إلى الباء .

٢ - قسم المعجم أبوابًا ؛ كل كتاب حسب الأبنية ، فخصَّص بابًا للثنائى ؛ ثم بابًا للثلاثى ، فالرباعى ، فالخماسى .

٣ - ثم قسم المعجم كل باب إلى فصول حسب تنقل كل حرف من نظامه فى كل بناء من الأبنية السابقة ، فرُئى أن الحرف المعقود له الكتاب يغير من موضعه فى البناء الثنائى مرتين ، وفى البناء الثلاثى ثلاث مرات وتعرف هذه الطريقة بالتقاليب ، وكان يعتبر فى عنوان كل فصل من هذه الأبنية المستعمل والمهمل .

المدرسة الثانية : وتعرف بمدرسة الترتيب الألف بائى ، ولهذه المدرسة اتجاهان ؛ اتجاه يُعزى إلى ابن دريد ، واتجاه يُعزى إلى ابن فارس .

الاتجاه الذى يعزى لابن دريد يعتمد على الأسس الآتية :

١ - الأساس الأول هو الأبنية : الأبنية عند ابن دريد هى :

(أ) الثنائى المضاعف ، وأُلحق به بابان : الرباعى المكرر (الرباعى المضاعف) ، والثنائى المعتل (اللفيف) .

(ب) الثلاثى الصحيح ، وأُلحق به ثلاثة أبواب : المضاعف دون إدغام (كعكٌ) ، والمعتل العين واللام ، والنوادر فى الهمز .

---

(١) انظر : حسين نصار : (٧٥٥/٢) .

(جـ) الرباعى الصحيح ، وتلحق به عدة أبواب .

(د) الخماسى الصحيح ، وتلحق به عدة أبواب .

٢ - الأساس الثانى :

ينقسم كل نوع مما سبق إلى أبواب وفقًا للحروف ، فأولها باب الهمزة .

٣ - الأساس الثالث :

افتتح كل باب بالحرف المخصص له مع الحرف الذى يليه فى الترتيب ، فما بعده .

٤ - الأساس الرابع : أتى بكل كلمة مع تقاليبها .

والاتجاه الذى يعزى إلى ابن فارس يعتمد على الأسس الآتية :

الأساس الأول : قُسِّم المعجم إلى كتب ، اختص كل كتاب بحرف من حروف الألف باء ؛ فجعل الكتاب الأول للهمزة ، والثانى للباء . . . إلخ .

الأساس الثانى : قُسِّم كل كتاب إلى ثلاثة أبواب بحسب الأبنية ، أى باب الثنائى المضاعف ، فباب الثلاثى ، وأخيرًا ما زاد على الثلاثى المجرد .

الأساس الثالث : رُتِّبتْ الكلمات فى باب الثنائى والثلاثى بحسب الحرف الثانى منها ؛ لاتفاق الحرف الأول منها دوامًا ؛ لأنه الحرف المعقودُ له الكتاب ، فالثنائى من باب الهمزة مثلاً يستهل بالهمزة مع الباء ، فالهمزة مع التاء . . . إلخ .

وروعى فى الثلاثى ترتيب حرفه الثالث ، فيستهل كتاب الهمزة مثلا بـ (أبت) ، فـ (أبج) حتى تنتهى الحروف جميعًا ؛ وهذا يعنى أن ابن فارس يستهل الفصل بالحرف المعقود له الباب مع ما يليه ، فيستهل باب الباء مثلاً بها مع التاء .

الأساس الرابع : وجد ابن فارس بعد أن وصل إلى حرف الياء من كل مادة أنه لا يزال أمامه الكلمات المؤلفة من الحرف والحرف السابق عليه ؛ فوضعها فى آخر الباب بعد حرف الياء ، ورتبها الترتيب المألوف ؛ أى مبتدئًا بالألف ، فالباء ، فالتاء ؛ حتى ينتهى عند الحرف السابق مباشرة لحرف الباب ، أو حرف الباب نفسه .

المدرسة الثالثة : وهى مدرسة الصحاح ، للجوهرى . يقوم الترتيب عند الجوهرى على الأسس الآتية :

الأساس الأول : عد أواخر الكلمات فى ترتيبها على الألف باء بدلاً من أوائلها ، وقسم المعجم إلى ٢٨ بابًا ، كل منها يتناول الألفاظ المتحدة الحرف الأخير ، فباب لما آخره الهمزة ، بعده باب لما آخره الباء ، غير أنه جمع بين ما آخره الواو والياء فى باب واحد ، وأخَّر الألف اللينة غير المهموزة ولا المنقلبة عن واو أو ياء فى باب بعد الواو والياء .

الأساس الثانى : قَسَّمَ كل باب من هذه الأبواب إلى فصول تبعًا للحرف الأول من اللفظ على الألف باء أيضًا فباب الهمزة مثلاً يحتوى على فصل الهمزة ، ففصل الباء ، فالتاء ، فالثاء ، وخالف فى الفصول ما اتبعه فى الأبواب بإزاء الواو ، فلم يجمع بينها وبين الياء ، ولكنه أراد أن يفصل بينهما ، ولذلك قدم الواو على الهاء ، وأعقبها بالهاء فالياء .

الأساس الثالث : راعى فى رتيب الألفاظ فى داخل الفصول الحرف الثانى أيضًا وجعله على ترتيب الألف باء مع تقديم الواو على الهاء هنا للمرة الثانية للفصل بين الواوى واليائى .

وذكر فى هذه الفصول جميع الألفاظ ، ثنائية البنية كانت أو ثلاثية أو رباعية ، فلا مراعاة لذلك عنده ، وكان يعتمد على الحروف الأصلية وحدها ، ويهمل الزائدة ؛ فإذا كان اللفظ رباعيًا أو خماسيًا ، لم يكتف بترتيب آخره ، فأوله وثانيه ، بل وثالثه ورابعه أيضًا ؛ أى أنه التزم بترتيب الوسط كذلك .

المدرسة الرابعة : وهى مدرسة الزمخشرى : تعتمد على أساسين فقط هما ما يلى :

الأساس الأول : رتب المعجم حسب الترتيب الألف بائى ، ورتب وفقًا له الألفاظ من أولها إلى آخرها بحسب حروفها الأصول وحدها ، وكان ذلك للمرة الأولى فى تاريخ المعاجم العربية .

الأساس الثانى : كان يقسم مواده إلى قسمين : الأول للمعانى الحقيقية ، والثانى للمعانى المجازية[1] .

ملاحظات :

١ – يلاحظ أن معاجم المدرستين الأولى والثانية التزمت نظامًا معقدًا من الترتيب ؛ لأنها ربطت بين ترتيب الحروف ؛ سواء أكان مخرجيًا ، أو ألفبائيًا ، وبين الأبنية ، وإذا أضيف إلى ذلك اختلاف المعجمين فى تحديد المواد ؛ فإن ذلك أضاف إلى تعقيده كثيرًا من الاضطراب .

٢ – أما معاجم المدرستين الثالثة والرابعة ؛ فإنها تخلصت من مشكلة الأبنية ، وبذلك ركزت على ترتيب المواد ، واستعاضت عن الأبنية بمراعاة ترتيب وسط الكلمة ، غير أن ترتيب المدرسة الرابعة يعد أسهل ترتيب عرفته المعاجم العربية ، وهو الذى ينادى المعجميون المعاصرون باتباعه الآن .

---

(١) راجع فى كل ما سبق : المعجم العربى .

ثانيا : الترتيب الداخلى للمداخل : ويقصد بذلك ترتيب المشتقات .

يقول حسين نصار : إن ترتيب المشتقات داخل المواد ترتيب مضطرب إلى حد كبير ، بل إنه لمما يزيد من هذا الاضطراب أن الصيغة الواحدة قد تتكرر فى أكثر من موضع ، وفى كل موضع تفسر تفسيرًا محددًا ، وقد لا تفسر تفسيرًا واحدًا لاختلاف المصدر الذى استقى المعجمى منه مادته ، ورأيت للوقوف على هذا الاضطراب أن التزم بالترتيب الذى وضعته لجنة تأليف المعجم الوسيط فى مجمع اللغة العربية ، ثم أقارنه بالترتيب الذى جاءت عليه هذه الصيغ فى المعاجم الآتية : العين ـ الجمهرة ـ مقاييس اللغة ـ الصحاح ـ القاموس المحيط .

والجدول الآتى يوضح ذلك ، وسأتعرض هنا للمادة التى حللها حسين نصار فى معجمه فى هذه المعاجم ، وهى مادة عَقّ :

الترتيب الأمثل (المعجم الوسيط)	العين	الجمهرة	مقاييس اللغة	الصحاح	القاموس
١ – عَقَّت الأنثى الحيوان ـ عَقَقًا وعَقَاقًا : حملت ٢ – عَقّ البرقُ ـ عَقًّا : انشقّ	١١				
٣ – عَقّ فلان : حَلَقَ عقيقة مولوده					
٤ – عَقّ القوم بسهم : رَمَوْا به نحو السماء إشعارًا بقبول الدية عوضًا عن الدم				٨	٩
٥ – عَقّ عن ولده : ذبح ذبيحة يوم سبوعه .	١	١٠	٢	٩	٨
٦ – عَقّ الأرض والثوب : شَقَّه .		١	١		٧
٧ – عَقّ الريح السحاب أو المزنة : استحلبته ؛ كأنها شَقَّتْهُ .			١٠		
٨ – عَقّ أباهُ عَقًّا وعُقُوقًا ومَعَقَّة : عصاه وترك الإحسان إليه فهو عَاقّ وعَقُوق	١٢	٣		١٠	١٠
٩ – عَقّ رحمَهُ : قطعها . عققت وبر الشاة : جزرته .			٦		
١٠ – أعَقَّت النخلة : أخرجت العقَّانَ .					
١١ – أعَقّ فلان : جاء بالعُقُوق والعصيان				١٢	
١٢ – أعَقَّت الناقة : إذا كثر صوفها			٥		١٨

الترتيب الأمثل (المعجم الوسيط)	العين	الجمهرة	مقاييس اللغة	الصحاح	القاموس
١٣ - أعَقَّت المرأة : نبتت عقيقة ولدها فى بطنها ، فهى مُعِقٌّ وعَقُوق .	٥		١٤	١٣	
١٤ - أعَقَّ الماء : جعله مُرًّا .					١٣
١٥ - عَاقَّه : خالفه .					
١٦ - اعتُقَّ السحاب : انشَقَّ .					
١٧ - فلان السيف : استَلَّهُ .					١٩
١٨ - انْعَقَّ الثوبُ والغبار والسَّحاب : انْشَقَّ			١٢	٥	٢٠
١٩ - البرقُ : انتشر شعاعه ، فى السحاب .	٩		٩		٢١
٢٠ - الغبار : سطع .	١٠				
٢١ - الوادى : عمق .					
٢٢ - العُقَاق من الماء : الشديد المرارة .	٨			١٤	
٢٣ - العُقَاقة : السحابة تنشق بالبرق .		١٢			
٢٤ - العَقُّ : العاقُّ . :					
٢٥ - كل خرق فى الرمل وغيره - حَفْرٌ مستطيل فى الأرض .				٤	
- المُرُّ من الماء		٧		١٥	١١
٢٦ - عِقٌّ		٣			
٢٧ - وعُقٌّ		٤			
٢٨ - العُقَقُ : البرق فى وسط السحاب ، كأنه سيف مسلول		١١	٨		
٢٩ - ــــــ : الولد العاق .	١٣			١١	
٣٠ - العقَّانُ : عِقَّان الكروم والنخيل : يخرج من أصولهما					١٧

الترتيب الأمثل (المعجم الوسيط)	العين	الجمهرة	مقاييس اللغة	الصحاح	القاموس
٣١ – العَقَّةُ : حُفْرَةٌ عميقة فى الأرض .		٥	١٦		١٦
٣٢ – ـــــــ : البرقة المستطيلة فى السماء .		٧			١٥
وعِقَّةٌ : الشاة .	٣				١٢
٣٣ – العَقُوق من البهائم : الحامل ؛ وجمعها عُقُق .	٦				١٢
٣٤ – نوى العَقُوق : نوى هش لين رخو	٧		١٥	١٤	١٤
٣٥ – الأبلق والعَقوق : مثل لما لا يكون . ج : عُقُق وعقاق					١٣
٣٦ – العُقَقُ : البُعَدَاء من الأعداء .					
٣٧ – ـــــــ : قاطعوا الأرحام .	١٠				
٣٨ – العقيق : حجر كريم أحمر ، واحدته عقيقة .	١٤			٦	١
٣٩ – ـــــــ : الوادى الذى شَقَّهُ السيل قديمًا ، فأنهره . ج : أَعِقَّة .	١٥	٢	١٤	٧	٢
٤٠ – ـــــــ : شعر كل مولود من الناس ، والبهائم ينبت ، وهو فى بطن أمه .					٣
٤١ – العقيقة : شعر كل مولود من الناس ، والبهائم ينبت وهو فى بطن أمه . ج : عَقائِق وعُقُق .	٤	٩	٤	١	٤
٤٢ – الذبيحة التى تُذْبَحَ عن المولود يوم سبوعه عند حلق شعره	٢		٣	٢	٥
٤٣ – من البرق : ما يبقى فى السحاب من شعاعه . ج : عقائق .	٨	٦	١١	٣	٦
٤٤ – حفرة مستطيلة فى الأرض . ج : عقائق .	١				
٤٥ – عقيقة الأرض : نبت الأرض الأول .			٧		
٤٦ – عقيقة : ج : العقائق : السيوف تلمع كالبرق .			١٣		

ملاحظات :

١ - اشتركت هذه المعاجم فى خمس صيغ ، ولكن ترتيبها اختلف فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين الترتيب الذى خطط له مجمع اللغة العربية ، وفيما يلى بيان بذلك .

أ - الصيغة (٥) فى ترتيب المعجم الوسيط جاءت فى العين رقم (١) ، وفى الجمهرة رقم (١٠) ، وفى المقاييس رقم (٤) ، وفى الصحاح رقم (٩) ، وفى القاموس رقم (٨) .

ب - الصيغة (٣٦) فى ترتيب المعجم الوسيط جاءت فى العين رقم (١٥) ، والجمهرة (٢) ، والمقاييس (١٤) ، والصحاح (٧) ، والقاموس (٢) .

جـ - الصيغة ٣٨ جاءت فى العين (٤) ، والجمهرة (٩) ، والمقاييس (٤) ، والصحاح (١) ، والقاموس (٤) .

د - الصيغة (٤٠) جاءت فى العين (٨) ، والجمهرة (٦) ، والمقاييس (١١) ، والصحاح (٣) .

٢ - إن دلَّ هذا فإنه يدل على مدى الاضطراب ؛ كما قال حسين نصار فى ترتيب المشتقات .

٤ - ضبط الصيغ ومقولاتها التركيبية والوظيفية :

لم يهتم أصحاب المعاجم المتقدمون بضبط الصيغ ، نلاحظ ذلك عند الخليل ، وابن دريد ، وابن فارس ، ولكن اهتم به القالى والجوهرى والفيروزآبادى . ولم يلتزم أصحاب المعاجم بإيضاح المقولات النحوية بشكل مفرد .

٥ - المعانى وشرحها :

يقول الدكتور حسين نصار : إن أصحاب المعاجم خلطوا المعانى المجازية بالحقيقية ، وخلطوا المعانى المتقدمة فى الزمن بالمتأخرة ، وقد يوردون فى تفسير الصيغة أكثر من قول ، ولكها ذات دلالة واحدة ، وأوضح أن التفسير فى كثير من الأحيان قد يكون غامضًا .

نشأة الكتابة الفنية
والتفسير الحضاري لظهور النوع الأدبي

أ.د / عبد الحكيم راضي (*)

(١)

كان لا بد لي ، حين سنحت الفرصة لتقديم عرض لكتاب أستاذنا حسين نصار «نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي» . . . كان لا بد لي من إعادة قراءته . وحين هممت بالقراءة لفتني عنوان الكتاب ، أو ـ بالأحرى ـ لفتتني الكلمة الأولى منه ، كلمة (نشأة) ، لقد ذكرتني ببعض عناوين أخرى لمؤلفات خطها قلم أستاذنا تضم هذه الكلمة ، أو ما هو قريب منها . ذكرتني بعنوان كتابه «المعجم العربي : نشأته وتطوره» ، وذكرتني بدراسة مطوّلة له نشرت بمجلة (الأقلام) العراقية سنة ١٩٨٠ عنوانها :(عمود الشعر : منشؤه وتطوّره) . بل ذكرتني ـ عن طريق تداعي المفاهيم التي قد تبدو متباعدة في الظاهر ـ بدراسة له بمجلة (المجلة) القاهرية سنة ١٩٥٧ عنوانها (دولة مهملة في تاريخ مصر الإسلامية) ، وبدراسة أخرى بالمجلة نفسها سنة ١٩٦٠ عنوانها (شاعر في مصر لم يؤرّخ له أحد) .

قد يتساءل القارئ ـ وهذا حقّه ـ عن العامل الجامع بين هذه العناوين ـ خاصة ما لا يضم مادة (نشأ) ـ وأجيب على الفور : إن ثمة دلالة لا يخطئها المتأمّل ، على اتجاه صاحب هذه الأعمال إلى البحث ، بل إلى التنقيب عن البدايات ، وكذلك البحث عن المجهول والمهمل . والجامع بين هذه المفاهيم كلها هو صعوبة المنال ، والحاجة إلى العمل المضاعف في سبيل تصوّر الموضوع أولاً ، ثم الإحاطة به والتمكن من دراسته . فالبداية عادة غامضة ، والمجهول لا يختلف كثيراً عنها ، إن لم يفقْها غموضًا ، أما المهمل فيمكن القول بوقوعه بينها .

(٢)

نحن ـ إذن ـ أمام مؤلف ذي عقلية مغرمة بالمشكلات والتصدي للمصاعب ، وشاهدنا على هذه الدعوى عناوين أعماله التي سبق ذكرها ، وإن كان أكبرها دلالة على دعوانا هو هذا الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه ، أعني «نشأة الكتابة الفنية» ، الذي يحمل عنوانه

(*) أستاذ البلاغة والنقد ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

هذا معضلة من مرحلتين ، لسبب منطقى هو أن عليه ـ بحكم ظروف البيئة العربية وتاريخها ـ أن يتحدث عن نشأتين ، أولاهما تتعلق بظهور (الكتابة) ـ مطلق الكتابة ـ فى البيئة العربية ، أما النشأة الأخرى ـ وهى الأعقد ـ فتتمثل فى تخلق السمات والخصائص التى بفعل تحققها فى المستوى العادى من الكتابة . . . يكتسب هذا المستوى صفة (الفنية) . النشأة الأولى ـ نشأة الكتابة ـ وجودية ، أى هى وجود بعد عدم ، أى وجود الكتابة بعد أن كانت غير موجودة ، والنشأة الأخرى نوعية ، وتعنى تخلق نوع الكتابة الفنية فى رحم الكتابة العادية بفعل تضافر ظروف حضارية معينة . هما ـ إذن ـ معضلتا الميلاد ثم التحول إلى النضج جمعهما الباحث وأودعهما عنوان كتابه .

ولم يكن الباحث غافلا عن ذلك ، كما لم يكن غافلا عن التحدى الذى يمثله اختياره للنوع الأدبى ذى الحظ الأدنى ـ وربما المعدوم فى البداية ـ من عناية قدامى النقاد ، إذ كانت السيطرة ، بل الغلبة ، على اهتمام النقاد هى للنوع الآخر الأعلى صوتا والأوسع انتشارًا ، وهو الشعر .

لقد كان هذا الصنيع منهم ـ كما يقول ـ هو الذى شجعه على اختيار هذا الموضوع والتمسك به ، ومحاولة التغلب على العقبات التى تعترض الطريق أمام الباحث «فى أمور تركها القدماء ولم يرتدْها إلا قليل من المحدثين»(١) .

ويصف لنا كيف تدرج تفكيره فى رسم حدود موضوعه : فهو لن يدرس النثر جملة ، وإنما سيدرس الكتابة النثرية فحسب ، ثم هو لن يدرس الكتابة النثرية جملة ، وإنما سيقتصر على الرسائل والكتابة التاريخية ، لكنه لن يدرس هذين الفنين على نحو مطلق ، إنما سيقف على ما تحققت فيه صفة الفنية . ولهذا كان لا بد من النص على أنه سيستبعد من مجال دراسته :

- ما ليس نثراً .
- ما كان نثريا ولكنه غير كتابيّ .
- ما كان كتابيا ولكنه غير فني .
- ما كان نثرا فنيا من غير الرسائل والكتابات التاريخية .
- ما كان من الرسائل والكتابات التاريخية ولكنه جاء بعد زمن الدراسة(٢) .

---

(١) حسن نصار : نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى القديم . القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١م ، ص٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص٧ ، ٨ .

ولقد حدد زمن دراسته بعصور الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بنى أمية ، معتبرا هذه العصور الثلاثة حقبة واحدة هى حقبة النشأة ، كما حدد مادة دراسته بالآثار النثرية الكتابية الفنية من نوعى الرسائل والكتابات التاريخية ، ثم حدد مفهومه لصفة الفنية ، ودافع عن دخول الكتابة التاريخية فى عداد ما هو فني[١] ، [وهما مسألتان سوف نقف عندهما فيما بعد] ، وسجل أنه سيدرس هذين الفنين فى أيّ من أقاليم الدولة العربية فى إطار المدى الزمنى الذى حدده دون أن يلتفت إلى الفوارق البيئية أو الإقليمية التى لم تكن قد تحددت فى فترة الدراسة[٢] .

ثم أعلن عن هدفه من الدراسة وهو محاولة الإلمام على نحو موجز شامل بنشأة هذا النوع من الكتابة عند العرب ، ومحاولة بحثه والتعرف على خصائصه[٣] . ثم ألزم نفسه بعدد من الأسس ، أو الخطوات المنهجية ، منها :

- الحياد المطلق ، والعمل على أن يصل إلى الحقيقة وحدها عارية لا يحجبها شيء[٤] .
- الاكتفاء بالتعرض للنصوص الموجودة فعلا وبحثها ومحاولة تعرف خصائصها ، دون التفكير فى النصوص المفقودة .
- مواجهة النصوص الكتابية موضع الدرس والتعرّف عليها مباشرة لا من خلال الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين .
- إمكان الرجوع إلى هؤلاء ، بل والإفادة منهم ، بعد استيحاء كل ما يمكن استيحاؤه من النصوص المدروسة مباشرة .
- تقسيم الدراسة - أو مادتها - بحسب الموضوعات لا بحسب الأزمان مع مراعاة التقسيم الزمنى فى داخل الأبواب والفصول إذا لزم الأمر .

(٣)

ولنبدأ باختبار وعده الأخير فى تقسيم مادة الدراسة بحسب الموضوعات ، لنرى كيف وضعت الخطةُ النظرية موضع التطبيق .

ويبدو أن مادةَ الدراسة قد حددت هيكلَها التنظيمى . وإذا كانت هذه المادة منحصرة فى الرسائل والكتابة التاريخية . . . فقد جاء الكتاب فى جزءين ، أولهما (كتابة الرسائل)

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص١٠ ، ١١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

والثانى (الكتابة التاريخية) .

الجزء الأول ـ وهو فى كتابة الرسائل ـ يقع فى أربعة أبواب ، تتجه الثلاثة الأولى منها إلى دراسة الرسائل بأنواعها الثلاثة كما حددها ، وهى :

الرسائل السياسية فى الباب الأول

الرسائل الإخوانية فى الباب الثاني

الرسائل الدينية فى الباب الثالث

ثم أهم كتَّاب الرسائل فى الباب الرابع

وبينما يجد متنفساً للتقسيم الزمنى فى البابين الأول والثانى ـ حيث يتحدث فى الباب الأول عبر فصوله الثلاثة عن الرسائل السياسية فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصر الأموي ، وفى الباب الثانى بفصليه عن الرسائل الإخوانيــة فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى ـ نراه فى الباب الثالث الخاص بالرسائل الدينية لا يجد هذا المتنفس الزمنى ، أو لا يجد مسوِّغا له فى فصلى الباب ، فالرسائل الدينية وليدة العصر الإسلامي ، ولا داعى لاختبار احتمال وجودها فى العصر الجاهلى ، وهكذا تفرض القسمة النوعية نفسها على الرسائل الدينية بتوزيعها على فصلى الباب الثالث ليختص أحدهما بالرسائل الوعظية ، ويختص الآخر بالرسائل الجدلية .

أما الباب الرابع ـ وهو فى (كتَّاب الرسائل) فيتناول بالحديث فى فصله الأول حلقة سالم مولى هشام بن عبد الملك وتلاميذه ، وفى فصله الثانى عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، حيث يعرض لإنتاج كل من هذين الأديبين وخصائصه ، منوِّهًا بمكانة عبد الحميد على وجه الخصوص بين أعلام الكتابة النثرية .

الجزء الثانى وهو فى الكتابة التاريخية لاينقسم إلى أبواب كالجزء الأول ، وإنما ينقسم مباشرة إلى فصول ثلاثة ، يتناول أولها ظهور الكتابة التاريخية ، ويعود بالبحث إلى العصر الجاهلى ليقرر عدم وجود كتابة تاريخية من أى نوع فى ذلك العصر[١] ، فى حين قامت مع ظهور الإسلام ـ بفعل دواعى عديدة ـ حركة تاريخية أخذت فى الاتساع حتى خلّفت ـ فيما يقول ـ ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربي[٢] .

أما الفصل الثانى فموضوعه (المؤرخون وكتبهم) ، وفيه يعرض لعدد من أصحاب

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ١٧٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

الكتابات التاريخية ، وعلى رأسهم عبيد بن شرية ووهب بن منبه ، ويختمهم بمحمد ابن إسحاق صاحب كتاب «المغازى» الذى اعتمد عليه ابن هشام فى سيرته . وهو لافت بأسلوبه فى التأليف ، صاحب عبارة جذابة ومقدرة لافتة فى سياقة الخبر وتصوير الأحداث والأشخاص[١] . وبين هذه الأسماء الكبيرة تتردد أسماء أخرى فى فروع مختلفة من الكتابات التاريخية ، مثل دَغْفل النسّابة الذى شهر بمجالس مسامراته مع معاوية[٢] ، وعروة ابن الزبير فى مجال المغازى والسِّير ، والذى تمثل آثاره أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية[٣] ، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى (ت ١١٩ هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت١٢٤ هـ) الذى «كان أول من قرن بين الأحاديث المختلفة المصادر فى موضوع واحد لإدماجها فى حديث واحد إجمالى يُصدّره بأسماء الرواة مجتمعين»[٤] .

أما الفصل الثالث من الجزء الثانى فهو فى (مظاهر الكتابة التاريخية) ، وفيه يقرر أن الكتابة التاريخية العربية نشأت نشأة عربية خالصة لا يد فيها للفرس أو اليونان[٥] ، وأنها انبعثت من تيارين مختلفين : تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب ، وتيار جديد استحدثه الإسلام وهو تيار السيرة التى جمعت بين القصص الصحيحة والخيالية التى أحاطت بشخصية الرسول بسبب إجلال المسلمين له . وقد لعب التيار الأول - تيار القصص الخيالية والأساطير - دوره فى هذا التيار الثاني ، هذا إلى آثار يهودية ومسيحية ، بل وفارسية ضئيلة[٦] .

وقد تفاعلت هذه التيارات والآثار وتطورت فوُجد التاريخ القبلىّ الجاهلى ، أو الأنساب والأيام[٧] ، كما وجدت القصص الخرافية الشعبية وكذلك تاريخ المغازى والسير ، ثم التأريخ للخلفاء الراشدين ثم الأمويين[٨] . وقد جاء أسلوبها جميعا عربيا سهلا بسيطا مبنيا قويا فى تصوير الحوادث وعرضها تتخلله الأشعار التى تشرح حادثة أو تعلق عليها[٩] .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٣) المصدر السابق ،ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .
(٨) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
(٩) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

وخاتمة الكتاب مهمة فى تثبيت كل ما سبق وتأكيده ، ولكن أهميتها القصوى هى فى إبراز فكرة الكتاب فى التفسير الحضارى لظهور النوع الأدبي ، وازدهاره أو انحساره من ظرف إلى آخر ، وهو ما سنعرض له فيما بعد .

هكذا يقوم الكتاب على خطة مرنة ، فالجزء الأول يتكون من أبواب وفصول ، بينما تقوم بنية الجزء الثانى على فصول ثلاثة فحسب . وفصول الأبواب فى الجزء الأول لا تتساوى فى عددها ، فالباب الأول يقع فى ثلاثة فصول بينما تقع الأبواب الثلاثة الأخرى كلٌّ فى فصلين . كذلك تتفاوت أبواب ذلك الجزء فى المدى الزمنى ـ خاصة نقطة البداية ـ فالرسائل السياسية ترجع إلى العصر الجاهلي ، بينما تبدأ الرسائل الإخوانية وكذلك الدينية مع عصر صدر الإسلام . وبينما يسيطر التقسيم الزمنى على فصول البابين الأول والثانى . . . يجيء تقسيم الفصول فى الباب الثالث على حسب موضوع الرسائل ، وفى الباب الرابع تبعا للكاتب الذى يترجم له .

أما الجزء الثانى فقد تجافى عن نظام الأبواب المشتملة على فصول ، واكتفى بأن يضم ثلاثة فصول فحسب ، أحدها لظهور الكتابة التاريخية والثانى للمؤرخين وكتبهم ، والثالث لمظاهر الكتابة التاريخية .

ذلك عرض مكثف للكتاب : جزءيه وأبوابه وفصوله . والمتتبع لخطته يدرك أنه قد وفى بما وعد به من تقسيمه على حسب الموضوعات ، مع مراعاة التقسيم الزمنى فى داخل الأبواب ، وأحيانا فى داخل الفصول ، كما يدرك تمسكه بالتعامل مع النصوص الداخلة فى مجال دراسته مباشرة دون التعرف عليها عبر وسائط دخيلة من رأى أو فكرة سابقة ، ثم يدرك كذلك اكتفاءه بالنظر فى النصوص الموجودة وإقامة أحكامه على أساسها ، لا على تصورات لنصوص متخيلة ، أو مشكوك فيها[١] .

(٤)

ورغم ذلك فإن تقديم الكتاب ـ أو عرض خطته ـ بهذا التجريد والوضوح قد يفضى إلى غمط الكتاب حقه ، لما يوحى به من سهولة الوصول إلى هذه الخطة ، وربما سهولة إخراجها إلى حيز الوجود .

(١) راجع ص٣٤ فى تعليل انصرافه عن الحديث عن رسائل فنية من العصر الجاهلي .

والواقع أن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك فى الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه على وجه الخصوص ، سواء رجعنا إلى مسلك المؤلف وجهده فى التثبت من سلامة مادته ، أو إلى تلك المعارف التى ساقها فى كتابه ، والتى تتعدد وظائفها ما بين حاجة الكتاب وموضوع الدراسة فيه من جهة ، والرغبة غير المصرح بها فى إفادة القارئ وإثراء معرفته من جهة ثانية .

ولمزيد من الإيضاح نقول : إنه إذا كان من وظيفة الكتاب مطلقًا أن يقدم إلى قارئه جانبا من المعلومات المتعلقة بموضوع معين ، فإن الكتاب الجيد هو الذى يعلّم قارئه أكثر من موضوع ويلقنه أكثر من درس فى وقت واحد ، بشرط أن لا تُدفع هذه الدروس إلى القارئ بطريقة مباشرة ، إذ هى قد تنساب إليه عبر الطريقة التى يدير بها المؤلف دفة عمله أثناء مُضيِّه به من نقطة البدء وحتى لحظة الاكتمال . كما قد تتسلل إليه من خلال المعلومات التى يسوقها المؤلف خدمة لغرضه الأصلى فى إطار موضوع كتابه ، ثم يكون لها ـ إضافة إلى ذلك ـ دورها الخاص فى توعية القارئ وتنمية معارفه .

هكذا ـ فى تقديرنا ـ ينطوى الكتاب الجيد على جهتين لإفادة القارئ :

إحداهما : سلوك المؤلف نفسه فى تخليق عمله .

والأخرى : المواد التى يشتمل عليها العمل ، وما تحمله من دلالات تتجاوز دورها المباشر فى بنية الكتاب .

هنا يدفعنا إيماننا بجودة الكتاب الذى نتحدث عنه ـ «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» لأستاذنا حسين نصار ـ إلى محاولة اختبار هذا الشرط ، أو تطبيقه ، بشقيه ، على الكتاب .

ولنبدأ بالجهة الأولى للإفادة ، أعنى روح المؤلف فى كتابه ، ومسلكه فى توثيق مادته . حيث تلفتنا فى البداية ، ثم بعد ذلك ، كلمات لا أظن أنها عادية ، فبعد تفنيده لآراء القائلين بعزلة العرب فى جزيرتهم طوال العصر الجاهلي ، يقول : «أظننا الآن نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكارًا شديدًا ، دون أن نخاف لوم أحد»(١) . وفى موضع آخر يصادفنا قوله «ونستطيع ـ دون وجل ـ أن نطلق على كتابتهم اسم (الكتابة الفنية)(٢) ، وفى موضع ثالث

---

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص٧٥ .

يتحدث عن الرسائل الدينية «التى نستطيع أن ندخلها فى باب الرسائل الإخوانية أو الدينية دون حرج»[١] .

(الخوف من اللوم) و(الوجل) و(الحرج) كلمات أخفّها وأقربها إلى لغة الاحتياط والحرص على الأمانة والدقة فى إصدار الأحكام هى كلمة (الحرج) ، وأما (الخوف) و(الوجل) فألفاظ أظن أنها غير مألوفة فى مثل هذه السياقات ، لكنها فى الوقت نفسه دليل قاطع على موقف الالتزام والإحساس بالمسئولية من جانب المؤلف أمام قارئه سواء كان هذا القارئ أستاذاً من أساتذته أو واحدًا من تلاميذه .

هذا (الخوف من اللوم) و (الوجل) فضلا عن كونهما فضيلة فى أى باحث ، وكونهما - بالمفهوم لا باللفظ - إرثا نبيلا حملته إلينا عبارات من تراثنا من نوع (من ألف فقد استهدف ، فإن أحسن فقد استعطف وإن أساء فقد استقذف) ، فضلا عن البعد الشخصى الإنسانى فيهما ، هما اللذان دفعاه إلى أن يدقق فى كل كلمة يقولها ، وقد دفعاه - قبل ذلك - إلى تحديد موضوعه وتجريده مما سواه مما قد يتداخل معه لسبب أو آخر . أما بعد ذلك فقد دفعاه إلى الحرص على تخليص مادته مما قد يكون دخيلا عليها ، ومن أجل ذلك نراه يصطنع عددًا من المعايير لفحص هذه المادة واختبار مدى أصالتها .

من ذلك عرض المادة المدروسة على أسلوب الكاتب فى بقية نصوصه . ومن هذا القبيل ما صنعه مع رسالة عبد الحميد الكاتب التى وجهها إلى بعض من خرج عن الطاعة[٢] . فقد لاحظ أنه يلتزم السجع التزاما شديدا لم نره عنده فى رسائله الأخرى وقال : إن هذا «مما قد يجعل شيئا من الشك يتسرّب إلى نفوسنا فى صحة نسبة هذه الرسالة إليه . غير أن هناك بعض الفقرات من الرسائل الأخرى تحدّ من ازدياد هذا الشك ، فإننا نرى هذا السجع الملتزم أو ما يقاربه فى رسالته إلى العرب»[٣] . وسواء تأكدت نسبة الرسالة إلى عبد الحميد أو انتفت ، فلن يكون السبب سوى ملاءمتها - فى حالة تأكدها - أو مخالفتها - فى الحالة الأخرى - لهذا الموضع أو ذاك من الرسائل الأخرى التى صحت نسبتها إلى الكاتب .

---

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص١٧٠ .

وقد يعرض المادة المدروسة على روح العصر بجملته ، من ذلك ما صنعه مع الرسالة المنسوبة إلى عمرو بن العاص فى وصف مصر ، فقد لاحظ أنها تكتظ بعناصر الصنعة الفنية بما يخالف طابع الرسائل فى عصرها ، هذه التى كانت تسير نحو الفن دون أن تبلغ مرحلة الفنية الكاملة ، فصرح بأنه لا يطمئن إليها[1] . وكذلك صنع مع كلام حمله على النابغة دغفلُ النسابةُ فى أحد مجالسه فى بلاط معاوية ، يقول حسين نصار : إننا «لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها ، فإننا نرى الكلام ملازما للسجع ، وفيه أشياء منافية لروح العصر ، لم نعتد العثور عليها فيه ، كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره . ونحن إذا لم نشك فى هذا التكهن ، فإننا نشك فى تكهن النابغة بإسلام الحارث»[2] .

ومن الواضح أن المنافاة لروح العصر قد تجىء من قبل عناصر الصنعة الفنية ، كما فى الحديث عن رسالة عمرو بن العاص ، وقد تجىء من قبل الصنعة ومن قبل المضمون معا كما هو الحال فى كلام النابغة غير أن المضمون قد يكون هو الفيصل وراء الشك فى نسبة النص المستهدف للدرس ، وهذا هو المعيار الذى استند إليه فى شكه فى رسالة منسوبة إلى معاوية وموجهة إلى ابنه وولى عهده يزيد :«أما هذه الرسالة فأشك فيها شكًا قويًا بسبب ما فيها من العبارات التى تحط قدر يزيد وتبلغ عنه ما يريده خصمه ، مما لا يصح أن يصدر عن أبيه الذى يرشحه لولاية العهد»[3] .

وقد طبق نفس المعيار ـ معيار المضمون معروضاً على الموقف ـ على بعض الأخبار المنسوبة لعبيد بن شرية . «هناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد ، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوّه بها أمام معاوية» . والكلام يدور حول رجوع الأمر إلى الفاطميين فى آخر الزمان دون أن يعترض عليه معاوية حسب ما جاء فى الرواية بل يقول معاوية : «قلت الصواب إن شاء الله» ، ويعقب حسين نصار : «ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبيد أمام معاوية . أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد ، فإنه أوهى من أن يحتاج إلى الإنكار»[4] .

---

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٥ ، وهو يجعل الإفراط فى عناصر الصنعة مما يخل .

(٤) المصدر السابق ، ص١٩٥ .

وهناك إجراء آخر لا يقل أهمية عما سبق من معايير قبول النصوص أو نفيها، وهو رجوعه إلى دواوين الشعراء للتثبت من الأشعار التى نسبت إليهم فى بعض الكتابات التى يدرسها، فعبيد بن شرية يورد فى أخباره أشعارًا لشعراء معروفين كالعباس بن مرداس وحسان ابن ثابت وأمية بن أبى الصلت وغيرهم، يقول حسين نصار: «وقد وجدت هذه الأشعار فى دواوين أصحابها، وإن كانت قد تختلف فى بعض الألفاظ أو العبارات»(١) . ويفعل الشىء نفسه مع الأشعار التى أوردها وهب بن منبه فى كتابه (التيجان) فيقول: «أما بيت النابغة ومقطوعة لبيد فهما فى ديوانيهما، وأما مقطوعتا الأعشى وامرئ القيس فلم أجدهما فى ديوانيهما المطبوعين»(٢) .

هكذا يسلك الباحث حسين نصار الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين عندما فرغ من كتابه «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» . أقول: يسلك كل السبل لإخراج ما ليس من مادة كتابه، ثم للتحقق من أصالة ما يدخل ضمن هذه المادة، وهو بهذا المسلك لا يخدم مادة الكتاب فحسب، بل يعلم قارئه أيضا كيف يتعامل مع مواد بحوثه إن قدِّر له أن يعانى عملية البحث فى وقت من الأوقات. وهذا - كما سبق القول - هو الجانب الأول من الدروس التى يمكن أن يستفيدها قارئ الكتاب من خلال المسلك أو الطريقة التى يتصرف بها المؤلف خلال إنجازه لعمله.

(٥)

أما الجانب الآخر الذى يفيده القارئ من الكتاب إضافة إلى موضوعه الأصلي، فهو تلك المعلومات التى يقدمها المؤلف خدمة لغرضه الأساسى من كتابه، ثم يكون لها دورها الخاص المستقل فى توعية القارئ وتصحيح معلوماته إلى جانب دورها فى سياق الكتاب.

وفى هذا الصدد يقوم المؤلف بتصحيح الكثير من معلوماتنا حول جزيرة العرب، طبيعتها ونشاط سكانها وثقافتهم وعلاقتهم بالآخرين... إلخ. لقد كان الشائع عن بلاد العرب أنها تلك الصحراء المجدبة الممتدة التى لا تعرف الخضرة ولا الخصب. كما كان من الشائع أن أهلها جميعا من البدو الرُّحَّل الذين لا يعرفون الاستقرار على أى نحو كان، وهو ما عززه الشعراء العرب الذين دأبوا فى مقدمات قصائدهم على وصف رحلاتهم ومرورهم بديار الأحبة الذين رحلوا عنها. كما شاع أيضًا أن سكان هذه الجزيرة كانوا معزولين عن غيرهم من الشعوب المحيطة بهم، وأنهم كانوا أميين لا صلة لهم بالثقافة .

---

(١) نشأة الكتابة الفنية، ص١٩٠ .

(٢) المصدر السابق، ص٢١١ .

ذلك ما كان شائعا عن بلاد العرب ، أو شبه جزيرة العرب ، ولكن صاحب البحث يثبت عكس كل ذلك ، أو - على الأقل - خلافه :«فبلاد العرب ليست صحراء مجدبة شاملة كما كنا نحسب دائما ، وإنما هى صحراء تنتشر فيها المناطق الخصبة الزراعية والمراعى حيثما توجد الآبار والأمطار ، أو حيثما يتيسر الحصول على الماء»[١] .

هذا عن واقع تلك البيئة بين الجدب والخصب ، ثم يقول : «وكما يخطئ من يظن أن بلاد العرب صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء ، يخطئ الذين يظنون أن أهلها بدو رحَّل لا يقرون فى مكان ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالا وثيقا»[٢] ، ذلك أنهم قد «عرفوا الاستقرار فى المدن والقرى الزراعية والتجارية ، وعرفوا شبه الاستقرار فى المراعى المتناثرة» وإن «عرفوا عدم الاستقرار فى صحاريهم الماحلة»[٣] . هى - إذن - حياة لها نصيبها من الاستقرار ، وبالتالى فمن الخطأ وصفها بعدم الاستقرار[٤] .

أما القول بأن بلاد العرب كانت فى عزلة تامة عن غيرها من الشعوب والدول المجاورة ، فهذه أيضا خدعة أخرى ، إذ «خدعت بلاد العرب الدارسين بقولهم إنها صحراء ، إذ الصحارى أرض فقيرة لا يتيسّر للمتحضّرين العيش فيها ، وفرّعوا على ذلك أن سكانها معزولون عزلة تامة عن أمم الأرض ، فهم منطوون على أنفسهم فى جزيرتهم لا يكاد يحس بهم أحد . ولكن الحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن العزلة والسكون ، إذ اتصلوا بالحضارات التى قامت حولهم منذ قديم الزمن ، على اختلاف أنواعها ومصادرها»[٥] .

- فقد تعرضوا للغزو من قبل الممالك المجاورة خاصة الفرس والروم[٦] ، واختلط العرب بالفرس من خلال إمارة الحيرة ، وبالروم من خلال إمارة الغساسنة .
- وعملت التجارة التى مهروا فيها على تدعيم الروابط بينهم وبين كثير من الشعوب الأخرى كالهند والصين والحبشة ومصر والرومان والفرس[٧] .
- كما تسربت إليهم الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية ، وعملت اليهودية والمسيحية على نشر الثقافة الهلينية فى البلاد[٨] .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٩ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٨) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

وهكذا تسقط مقولة العزلة والبعد عن الثقافات التى كانت معروفة لدى الشعوب الأخرى ، وتسقط معها مقولة الأمية التامة وعدم معرفة العرب للكتابة ، إذ وجدت الكتابة ونشأ الخط العربى فى بلاد العرب الشمالية ، وعرفت الكتابة وانتشرت نظرا لحاجة المعاملات التجارية والمعاهدات السياسية إليها[١] ، إلى جانب تدوين بعض الآثار الأدبية ، كالذى يروى عن تدوين المعلقات وتعليقها على جدران الكعبة[٢] .

هذه هى النظرة الأخرى لبلاد العرب فى العصر الجاهلي ، فلم تكن كلها صحراء قاحلة ، ولم يكن أهلها جميعا بدوا مترحلين ، كما لم يكونوا معزولين تماما عن جيرانهم ، وإنما كان هناك مساحات من الخصب والزراعة ، وحالات من الاستقرار ، وعمليات اتصال بينهم وبين الأمم المحيطة بهم ، وربما البعيدة عنهم .

ومن المنطقى أن يحمد قارئ الكتاب لصاحبه إيراد هذه المجموعة من التصويبات لتصوراتنا عن جزيرة العرب فى العصر الجاهلي ، وهو قد يوغل فى ذلك إلى حد تصور استقلالها بفائدتها بعيدا عن موضوع الكتاب ، وفى هذه الحالة فقد يتساءل عما إذا كان لها بالفعل دور فى بحث نشأة الكتابة الفنية ، أعنى هذه المجموعة من المعلومات المصوَّبة عن شبه جزيرة العرب .

والواقع أن التنبه للهدف الحقيقى من الكتاب هو الذى يجنبنا الاندفاع نحو هذا السؤال ، نعم ، لأن الكتاب يمضى فى اتجاه التفسير الحضارى لظهور النوع الأدبي ، والنوع الأدبى هنا هو الكتابة الفنية ممثلة فى الرسائل والكتابة التاريخية . والكتابة الفنية لا تتخلق إلا فى رحم حامل من الكتابة العادية (اللافنية) ، وهذه الأخيرة لا تنشأ فى المجتمع إلا فى ظل ظروف معينة . من هنا كان لا بد من تصحيح (المقدمة) انطلاقا من (النتيجة) ـ إن جاز استخدام مصطلحات المنطق ـ ولنتصور أن انتشار الكتابة ـ العادية مؤقتا ـ هو النتيجة ، وقد تحقق ذلك بالفعل بحكم اتساع المعرفة بالقراءة والكتابة فى أواخر العصر الجاهلي ، هذه النتيجة ما كان يمكن أن تتحقق فى ظل ظروف لا تمثل المقدمة المناسبة ، أعنى فى بيئة صحراوية ومجتمع بدوى متنقل لا يعرف الاستقرار ، وسكان منعزلين عن كل ما يحيط بهم ، ليس لهم روابط أو علاقات سياسية أو تجارية مع غيرهم .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص٢٦ ، ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

هكذا - فى تصورى - انطلاقا من النتيجة - انتشار الكتابة - راح يفتش عن المقدمات التى تحمل صورة لبيئة الجزيرة العربية وسكانها ومستواهم الحضارى مخالفة لما كان مستقرا وثابتا فى الأذهان . ولا غرابة فى ذلك ، فنحن - على سبيل المثال - نسلم ببلاغة العرب فى فترة الوحى وقبله استنادا إلى نزول القرآن فيهم ومخاطبته لهم .

(٦)

هذه المعلومات المصحَّحة عن جزيرة العرب فى العصر الجاهلى هى فى حقيقة دورها - فى سياق الكتاب - تأكيد لعضوية العلاقة وطرديتها بين التطور الحضارى فى أبعاده المختلفة وظهور الكتابة أولا ثم ارتقائها إلى مرحلة الفنية بعد ذلك . فـ «كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك . وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب ، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها ، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة . وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية . وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، وحولت أنظار العالم إلى تلك الأصقاع التى سترى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين»(١) . وما يصدق على الرسائل الفنية يصدق على الكتابة التاريخية العربية ، فهى أيضا قد نشأت فى إطار العناية بالأحاديث النبوية الشريفة وجمعها(٢) .

هذه النقول المستمدة من الصفحات الأخيرة من الكتاب والتى هى خلاصة تحمل إيمان صاحبها بالعامل الحضارى وراء نشأة النوع الأدبى ... تنتشر تفاصيلها وتجلياتها على صفحات كثيرة من الكتاب :

- فهو يستبعد وجود كتابة فنية فى العصر الجاهلى لأن ظروف العصر لا تستلزمها(٣) .
- ويسجل ظهور بعض خصائص الرسائل فى صدر الإسلام ، كالبدء بالبسملة - مثلا -(٤) .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص٢٤٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص٣٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

● وبفعل الجدل السياسى فى عهد الفتنة تدخل الرسائل مرحلة من الإطالة لم تكن تعرفها من قبل[١] .

● وديوان الرسائل - وهو عربى النشأة - مما لم يتهيأ وجوده فى عصر صدر الإسلام ، ثم سمحت به وعملت على قيامه مظاهر الترف والتحضر فى الحياة الاجتماعية ، وكذلك تشعب العلاقات التجارية والسياسية فى العصر الأموي[٢] .

● ومع اتساع الدولة الإسلامية تظهر الدواوين فى عهد عمر مثل ديوان الخراج وديوان الجند نتيجة فتح الأمصار وتدفق الأموال والحاجة إلى الكَتَبة والحَسَبة[٣] .

● وتترقى كتابة الرسائل وتزدهر عندما يحوّل الأمويون دواوين الخراج من الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية ، إذ كان ذلك سببا فى دفع الموالى إلى تعلم العربية كى يستعيدوا الوظائف التى انتزعها منهم العرب بهذا التحول . وتلا هذه المرحلة مرحلة أخذوا فيها ينافسون العرب ويحاولون التفوق عليهم فى التعبير بالعربية «وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن . ولا شك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل ، مما سما بالكتابة إلى الدرجات العلى فى هذه الفترة من تاريخها»[٤] .

● وتكتسب الرسائل الأموية خصائص أسلوبية جديدة على العربية على يدى سالم مولى هشام وعبد الحميد بن يحيى كاتب مروان نتيجة للثقافة الأجنبية - اليونانية والفارسية - التى حصّلها هذا الكاتبان[٥] .

● والكتابة التاريخية تنشأ وتزدهر لدى المسلمين بفعل عوامل كلها إسلامية[٦] .

● وبفعل الموقف الشخصى والأخلاقى لعمر بن عبد العزيز تصاب الرسائل الإخوانية بنكسة عنده ، وإن لم تعم عهده[٧] . بينما تكثر الرسائل الوعظية ، كما تختفى العهود الحربية فى عهده لتظهر العهود الدينية التى كان يرسلها إلى عماله[٨] .

---

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٨٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص٦٧,٧٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص٥٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٧٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٢ .
(٧) المصدر السابق ، ص٩٧ .
(٨) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

● وتضيع الكثير من الرسائل الإخوانية من الجاهلية وصدر الإسلام نتيجة لعدم الاهتمام بهذا الفن فى ظل ظروف الأدب العربى التى جعلت منه أدب قصور يعيش على موائد الملوك ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم ، مما حجب الاهتمام عن هذا الفن الذى يرتبط بالحياة الخاصة للأدباء[1] .

هذه مجرد معالم على طريق الجدل بين التطور الحضارى ونشوء النوع الأدبى - الكتابة الفنية - ثم تطوره .

(٧)

بقيت بعض ملاحظات بسيطة أجتزئ منها بملاحظتين إحداهما حول مفهوم الكتابة الفنية ، والأخرى مجرد تساؤل عما يبدو من التداخل بين الرسائل وما يسمى بـ(العهود) .

قلت من قبل فى سياق حديثى عن وعى صاحب «نشأة الكتابة الفنية» بموضوعه جيدًا : إنه حدد مفهومه لصفة (الفنية) فى الكتابة ، ودافع عن دخول الكتابة التاريخية فى عداد ما هو فني ، وقلت : إنهما مسألتان سوف نعود إليها فيما بعد .

ويجيء حرصه على تعريف (الكتابة الفنية) فى سياق حرصه الدائم على تعريف مصطلحات بحثه ، تجد ذلك فى بدايات أبوابه وفصوله التى يقدم فى كل منها أحد مصطلحات الدراسة ، فيقوم بتعريفه وإضاءة كل ما يتصل به .

وترتبط الفنية فى رأيه بالتجويد المتعمد الناتج عن التروى من جانب المبدع بقصد إثارة اللذة الفنية عند القارئ . ويبدو لى أن جوّ الفن الكتابى - خلافا للشفاهى - قد سيطر على هذا الفهم الذى يوحى بمفهوم الصنعة ، وإلا فالنص الفنى فنى بخصائصه التى جاء عليها ، بصرف النظر عن حال مبدعه وقتها ، متروّيا أو مرتجلاً . وقد تحدث النقاد العرب طويلاً عن حالتين من حالات الإبداع هما : التروى - أو الرَّوِيَّة - وفى مقابلها تحدثوا عن (البديهة) و(الارتجال) . لكن ذلك كان فى معرض الحديث عن الشعر ، فصرحوا بأن من الشعراء من يجيد على الروية ، ومنهم من يجيد على البديهة والارتجال ، ومنهم من يجيء شعره على البديهة فى جودة شعره المروّى فيه . غير أن ذلك - كما قلنا - خاص بالشعر ، أما الكتابة بطبيعتها فنشاط أقرب إلى التروي ، بل ويحتاج إلى تمهل واحتشاد . وإذا صدق ذلك بالنسبة للكتابة غير الفنية فهو أصدق بالنسبة للكتابة الفنية ، ومن هنا كان قولنا بسيطرة تصور «الكتابية» على هذا التعريف .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٩١ .

أما دخول الكتابة التاريخية فى إطار الكتابة الفنية فأمر يحتاج إلى تفصيل ، وفى رأيى أن علينا أن نفرق بين (التاريخ) و(الكتابة التاريخية) . أما التاريخ فلا مندوحة فيه عن نقل الحقائق صادقة وكاملة ، وأى تضحية بالحقائق لصالح جمال العبارة وفنيتها سوف يباعده من أن يكون تاريخا حقيقيا أمينا .

ولقد وجد فريق من منظرى الأدب لا يمنعون أن تجيء المؤلفات العلمية فى الموضوعات المختلفة جيدة الصياغة متقنة العبارة ، وفى هذه الحالة يمكن اعتبارها أدبا بمقدار ما تتمتع به عبارتها - بعيداً عن محتواها - من دقة وإتقان وجمال فى التعبير . من هؤلاء لاسل آبر كرومبى Lascelles Abercrombie فى كتابه «قواعد النقد الأدبى» ، وهو يطلق على هذا النوع من الأدب اسم (الأدب التطبيقى) ، وذلك فى مقابل (الأدب الصرف) الذى يكتب لذاته ويُقرأ لذاته دون التفكير فى محتوه[1] .

ولحسن الحظ فإننا لا نحتاج ، فى حالة كتابنا الذى نتحدث عنه ، إلى جدل طويل من هذا القبيل . وأحسب أن الدفاع الحارّ عن دخول التاريخ فى عداد الفن الأدبى هو من باب الإدلال بقوة الحجة وغزارة المادة ، وإلا فنحن فى «نشأة الكتابة الفنية» لا نتحدث عن (تاريخ) وإنما نتحدث عن (كتابة تاريخية) جاءتْ - خاصة فى بدايتها - امتدادا لفنون القص والمسامرة المفعمة بمغامرات الخيال وسَوْق ما هو عجيب غريب فى عبارة ممتعة . فالمفهوم واضح ، والمصطلح موفّق ، وما من لبْس يدعو إلى مثل هذا الدفاع ، انطلاقا من أننا لا نتكلم عن تاريخ وإنما عن كتابة تاريخية .

ونحن نستأنس فى هذا الرأى بما جاء عن الدكتور نصار نفسه فى تعقيب له على قطعة منسوبة لوهب بن منبّه احتفظ بها صاحب «حلية الأولياء» ، وهى عن وفاة النبى ﷺ . يقول الدكتور نصار : «وهذه الفقرة طويلة مفصلة ، ولكن قارئها لا يسعه إلا أن يشكّ فيها الشك الشديد ، فأسلوبها مما لا نألفه فى أساليب تلك الفترة ، وعباراتها غريبة عن الرجل العربى الذى يعيش فى ذلك العصر ، وقد لعب فيها الخيال دورًا كبيرًا ، ولذلك إذا صحّت نسبتها لوهب ، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرّخ وإنما يلائمه لفظ قصّاص»[2] .

والتنافى - من واقع هذا النص - موجود بين المؤرخ والقصّاص ، ومَنْ يصدق عليه أحد اللفظين يجب أن لا يصدق عليه اللفظ الآخر ، ومؤرخ الأدب وصاحب النظرية الأدبية معنيّ - بطبيعة الحال - بـ (القصّاص) لا المؤرخ ، إلا أن يتخفف المؤرخ من صرامة الصدق

---

(١) آبر كرومبى : قواعد النقد الأدبى . ترجمة : محمد عوض محمد . بغداد : ١٩٨٦م ، ص٢٧ ، ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

والالتزام بالحقائق ، وبمقدار هذا التخفف يكون اقترابه من رحابة اللغة الأدبية بكل ما فيها من تجوز واتساع .

قضية أخرى لا أجد مفرًا من التساؤل بشأنها ، وهى التداخل بين الرسائل وما سمى بـ (العهود) . وأوضح ما يبدو التداخل إلى حد التوحيد بين النوعين - إن جاز هذا الاسم - فى الفصل الثانى من الباب الرابع من الجزء الأول . ويدور هذا الفصل حول عبد الحميد ابن يحيى كاتب مروان بن محمد ، حيث يعرض الدكتور نصار لرسالته التى كتبها عن الخليفة إلى ولى عهده عند توجهه لمحاربة بعض العصاة . فهو يقرن هذه الرسالة إلى (عهود) الصدر الأول من الإسلام (عهود من الرسول وأبى بكر وعمر[(١)] ، ثم إلى رسالة من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يسميها (عهدا)[(٢)] .

ثم يتداخل الحديث عن نوع جديد من العهود ظهر فى العصر الأموى مع الحديث عن رسالة معاوية إلى ابنه يزيد[(٣)] ، ويماثل بين رسالة من الحجاج وبين مجموعة أخرى من العهود[(٤)] ، ثم يشير إلى رسالة عبد الحميد إلى ولى عهد مروان فيسميها عهدا[(٥)] .

والسؤال هنا : إذا كانت العهود هى الرسائل فَلِمَ لَمْ تحمل نفس الاسم؟ ، ولِمَ لَمْ يدرجها ضمن مادة الدراسة ؟ وإذا كانت نوعا منها فلِمَ لَمْ ينصّ على ذلك؟ ، وإذا كانت غيرها فلِمَ لَمْ يعرفها؟ ثم لِمَ التداخل بينهما والحديث عن فن بما يتحدّثُ به عن الآخر؟ ، ثم لِمَ اجتمع الحديث عنها فى الفصل الخاص بعبد الحميد الكاتب؟ .

مجرد تساؤلات عزّزها وشجع عليها شدةُ التزامه بالوضوح ، وحرصه على تعريف مصطلحاته أولا بأول فى معظم مواضع الكتاب . وذلك نفسه ما جعلنا نتساءل من قبل عن مفهوم الكتابة الفنية ، وموقع الكتابة التاريخية بينها وبين التاريخ ، واثقين أن هذه التساؤلات وغيرها لا تقدح فى قيمة الكتاب الذى يُعد ـ بكل المقاييس ـ رائدًا فى مجاله .

---

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ص١٥٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ص١٦٠ ، ١٦٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

الدكتور حسين نصار ومنهجه فى دراسة الأدب المصرى

د. عوض الغبارى*

تختلف آراء الباحثين ، قديماً وحديثاً ، حول منهج دراسة الأدب العربى . وتتجلى بعض معالم هذا الاختلاف فيما يتعلق بتطور هذا الأدب فى الأقاليم العربية المختلفة . ومن هذا المنطلق ثارت مشكلة ما اصطُلح عليه بالأدب الإقليمى .

وقد قام أمين الخولى فى كتابه : «فى الأدب المصرى : فكرة ومنهج» بطرح تصور لدراسة الأدب المصرى على أساس وجود شخصية أدبية مصرية نظراً لاختلاف البيئة الطبيعية فى كل إقليم عربى ، واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية مما يحتم ، فى رأيه ، وجود أدب عربى مختلف ومتميز فى كل إقليم تأثر الأدباء فيه بهذه العوامل المختلفة .

وانطلاقاً من الإيمان بالشخصية المصرية يعتقد أمين الخولى أن دراسة الأدب المصرى من منطلق الذاتية المصرية هى أهم معالم تجديد الدراسة الأدبية فى مصر ، أو البيئات العربية الأخرى التى تنحو هذا النحو فى دراسة الأدب .

وأساس الدرس الإقليمى من هذا المنطلق هو : «أن لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التى تنفرد بها بين الأقاليم . وتلك المزايا والخصائص هى التى توجِّه الحياة الأدبية فيها ، وتؤثر فى سيرها ، وباختلاف هذه المميزات المادية والمعنوية تختلف حياة الإقليم الأدبية ، ويختلف نظام سيرها من نشأة وتدرج وتفرع»(١) .

والأدب المصرى أدب عربى إسلامى ، لا شك فى ذلك ، ولن تغرى الإقليمية بالانفصام الذى يهدد أمل وحدة العرب ، لأنها تستند إلى أصول البحث العلمى الذى يهدف إلى حل المركَّب إلى بسائطه دون جور منهجى على كليهما . وهذه الوحدة المركبة «لن يضيرها أن يشعر كل جزء من أجزائها ، وكل جانب من جوانبها بوجوده وذاته وشخصيته ، فيكون بذلك جزءا أو عنصراً نافعاً مجدياً على الوحدة التى يدخلها»(٢) .

(*) أستاذ الأدب المصرى المساعد بكلية الآداب – جامعة القاهرة .

(١) أمين الخولى : فى الأدب المصرى ، فكرة ومنهج . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٣ ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥-٣٦ .

والإقليمية ، منهجاً للدراسة الأدبية تكشف عن خصائص الأدب العربى فى كل بيئة نتج عنها تفاعل وتأثر وتأثير بالعربية أو فيها ، فتطورت هذه اللغة ، وهذا الأدب العربى فى تذوق كل إقليم له .

والإقليمية ، بمفهومها عند الخولى ، عامل منظم لدراسة الأدب العربى إذا تضافرت جهود الدارسين فى كل إقليم عربى ، كما أنها ترسخ الشعور بالشخصية فى نفس أصحاب كل إقليم ، إذ تؤلف – بتنوعها – وحدة الأدب العربى الشاملة ، وهو ـ على حد تعبير جمال حمدان – ما يُعرف بمبدأ التنوع فى الوحدة أو الوحدة فى التنوع[١] .

وقد بذر أمين الخولى بذرة الإقليمية منهجاً لدراسة الأدب المصرى ، واكتفى بهذا الدور ، ولم يزعم لنفسه أنه وافى بفكرته عنها الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بماهية الأدب المصرى ، عاقدا الأمل على وحدات جيش المعرفة ، على حد تعبيره[٢] ، لبيان معالم الشخصية المصرية فى ميادين الحضارة والثقافة والعلم والفن والأدب . وكان الأستاذ الدكتور حسين نصار فى طليعة هذه الكتائب التى أثرت دراسة الأدب المصرى بكتب قيِّمة ، وأبحاث رفيعة ، وجهود جادة ، أذكر منها دراسته لشعر ابن وكيع التنيسى ، الشاعر المصرى فى القرن الرابع الهجرى ، وظافر الحداد الشاعر المصرى الفاطمى فى القرن الخامس . إلى جانب تنظيره للأدب المصرى فى كتبه الأخرى ، وأهمها : «مصر العربية» .

(١)

ففى تحقيقه ودراسته لشعر ابن وكيع التنيسى يرى حسين نصار أن هذا الشاعر ربيب بيئته المصرية . فشعره معرض فنى لمناظرها المختلفة ، كما أن خفة روحه فى هذا الشعر تعكس وجها مصريا خالصا[٣] .

ويرى كذلك أن شعر ابن وكيع أصدق صورة وأجملها لبيئة تنيس[٤] ، موطن الشاعر ، وقد كانت مدينة الربيع والخمر ، فكان ابنها شاعر الربيع والخمر[٥] . كما أثَّر اشتهار هذه المدينة بالذوق الفنى الجمالى فى صناعة النسيج على مخيلة ابن وكيع فى شعره الذى صور به الربيع وقد حَلّتْه الأزهار بالوشى الجميل حَلّتْه الرسوم[٦] .

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، ج ١ . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣ .
(٢) فى الأدب المصرى ، ص١٣٥ .
(٣) حسين نصار : ابن وكيع التنيسى ، شاعر الزهر والخمر . القاهرة : مكتبة مصر ، د . ت ، ص ٥ .
(٤) موضع فى بحيرة المنزلة بين المطرية وبورسعيد ، مازالت تلاله باقية إلى اليوم .
(٥) حسين نصار : ابن وكيع التنيسى ، ص ٥ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٦ .

ويرصد حسين نصار فى دراسته لشعر ابن وكيع تأثره بالحياة الاجتماعية والعلمية فى بيئته ، وانعكاس الظروف السياسية فى شعره [١] . ويلاحظ أن شعره الغزلى خصوصا مربعته الشهيرة المعجبة ، بما تجلى فيها من خفة روح تدل على أنه ، بهذه الصفة ، ابن بيئته : مصر[٢] .

يتضح ذلك من قوله فيها :

بخفة الروح احتوى صلاحى	فصرت لا أرغب فى الفلاح
والشكل والخفة فى الأرواح	أملح ما يُعشق فى الملاح
مَن عشق الفَدْم وإن دق البصر	فليقصد البِيعة وليهْو الصور[٣]
مَن كان يهوى منظراً بلا خبر	فماله أوفق من عشق القمر[٤]

وكذلك يتضح ظَرف شعر ابن وكيع الغزلى ، وعذوبته وحلاوته وطرافته فى دعوته على حبيبه بأن يصير قلبه عاشقا مثل قلبه إن كان يعلم ماحل به ، ولايأبه بذلك ، «ثم يتغلب عليه حبه فيتمنى له العيش الطيب ، تفديه نفس الشاعر وماله»[٥] :

إنْ كنتَ تعلمُ ما بى	وأنت لستَ تُبالى
فصار قلُبك قلبى	وصرتَ فى مثل حالى
بل عشتَ فى طيب عيش	تَقيك نفسى ومالى
دعوتُ إذ ضاق صدرى	عليك ثم بدا لى[٦]

ويرى حسين نصار الغزل الحق فى قسَم ابن وكيع قسما عذبا طريفا «فقد أراد أن يقسم أن الراح تذهب الهم ، فلم يجد عنده أعز من القسَم بعين الحبيب تعده بالوصل خوف الرقيب ، والقبلة المختلسة من خده ، والغناء الحلو فى القصيدة الفصيحة الجيدة»[٧] إذ

(١) ابن وكيع التنيسى ، ص ٦-٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .
(٣) الفدم : الأحمق الغليظ . ويريد : الذى لا يبادله حبا بحب ، ولا يؤثر فيه غزله ولا استعطافه . المرجع السابق ، ص٤٥ .
(٤) ديوانه ، المرجع السابق ، ص٤٤ ، ٤٥ .
(٥) المرجع السابق ، ص٢٧ .
(٦) المرجع السابق ، ص٨٧ . وبدا لى : يعنى رجوعه عن هذا الدعاء .
(٧) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

يقول :

لا ، ووعـــدِ الوصل باللحـ ـظ على رغم الرقـــيب
واخـتـلاس القُبلة الحلوة من خـــد الحـبـيب
وسَـمـاع مـسـتطابٍ جـاء من لفظ مُـصـيب
مـا سـوى الراح لداء الهَمِّ عـندى من طبـيب[(١)]

ويقسم ابن وكيع هذا القسَم البديع ، أيضا فى قوله :

بمـا بعـينيك من فُـتـون ومن فـتـور بهـا وسـحـر
وبالعـذار الذى تولى خلع عـذارى وبسط عُـذرى
ومَـضْـحَك منك لؤلؤى مـمـتـزج مِسْكُه بخـمـر
جُـدْ لىَ بالصـفح عن ذنوبى أوْ لا فـعـاقِب بغـير هجر[(٢)]

ويعقب حسين نصار على هذا القسم ، مبينا جماله الفنى ، بقوله «وأراد أن يلتمس منه صفحا عن ذنوبه ، أو عقوبة بغير الهجر الذى لايستطيع احتماله ، فاستحلفه بما فى عينيه من فتون وفتور وسحر ، وبثغره المبتسم اللؤلؤى الثنايا ، الخمرى الريق»[(٣)] .

ثم يؤكد حسين نصار جمال هذا الأسلوب الشعرى الذى يفيض ظرفا فى غزل ابن وكيع فى قَسَمه كذلك بأن الصبر لايجمل عن الحبيب «فكان قسمه بوجه الحبيب يبدى صفحة السيف الصقيل ، وشعره الأسود على خده الأسيل ، وعيونه القاتلة»[(٤)] :

لا ووجْـهٍ لك يُبـدى صـفـحَـة السيف الصقيل
وسـواد الشَّـعَـر الأسـود فى الخـد الأسـيل
وعـيـونٍ لك لا تطرِف إلا عـن قـتـيـل
مـا جـمـيلٌ الصـبـر عن مـثلك عندى بجـمـيل[(٥)]

(١) ديوانه ، المرجع السابق ، ص٤١ . والسماع : الغناء .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص٨٩-٩٠ . والصقيل : المصقول المجلو ، شبّه خده الناعم المشرق بذلك السيف ، والأسيل : الطويل الناعم الأملس .

ويُرجع حسين نصار أسلوب شعر ابن وكيع ، وما تميز به من موسيقى عذبة وألفاظ سهلة تسم شعره بالهدوء ، إلى الطبيعة المصرية الوادعة الهادئة فى ابن وكيع [١] . كما يلاحظ أن الطبيعة المصرية قد أمدت ابن وكيع ببعض التعبيرات المستعملة فى مصر وحدها . ويشير ، كذلك ، إلى نوع من تحرر ابن وكيع من النظم التقليدية للقصيدة العربية تمثل فى تنويع الأنغام الموسيقية فى نظمه للمزدوجة والمربعة ، إلى جانب النسج القصصى لشعره فى مربعته الغزلية ، وأرجوزته فى فصول السنة ، وكثير من زهرياته وغزلياته[٢] .

ويمثل حسين نصار لخيال ابن وكيع الابتكارى بصوره الشعرية التى تربط بين أمور متباعدة لاشتراكها فى بعض الصفات ، حيث سيطرت هذه الصور على مخيلته ، ودفعته إلى أنواع من المشاكلة فى شعره الغزلى ، كأن يقول :

ظبى سُلُوِّى عنه مثل جوده خياله أكذب من موعوده
أجفانه أسقم من عهوده أردافه أثقل من صدوده [٣]

كذلك يمثل البديع ظاهرة أسلوبية متميزة فى شعر ابن وكيع خاصة الطباق والمقابلة ، يشكلها فى شعره دون تكلف أو تعمد[٤] .

والتشكيل البديعى فى الشعر المصرى ظاهرة واضحة ترتبط بمفهوم الشعراء المصريين وكذلك النقاد للبديع ، ويعد من أهم المؤثرات الأسلوبية فى الأدب . فلم ينظروا إليه حلية لفظية ، أو وسيلة لصياغة الشعر ، بل وظفوه توظيفا جماليا جعله غاية الأدب ، ودل مفهومهم له - على مستوى الإبداع وعلى مستوى النقد - على تميز مفهومهم للشعر ، مفهوما يتسع بالأساليب البديعية فيه اتساعا يصل هذ الإبداع بما ينتظم القصيدة من ابتكار فى الصور وطرافة فى الخيال ، وتفنن فى عرض المعنى ، ومهارة فى طريقة هذا العرض ، فارتبطت وظيفة البديع الذى استخدمه الشعراء المصريون دون تكلف أو تعمد فى الجانب الإيجابى الأغلب فى شعرهم ، بجمال الصياغة الشعرية ، كما ارتبط البديع بموسيقى الشعر وكان له دوره الهام فى إيقاع التنغيم الموسيقى[٥] .

(١) ابن وكيع التنيسى ، ص ٣١-٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٣) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٣ .
(٥) انتهيت إلى مثل هذه النتائج فى دراستى للبديع فى شعر الطبيعة المصرى ، راجع كتابى «شعر الطبيعة فى الأدب المصرى» . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٣٤١ ، ٣٥٦-٣٥٧ ؛ وكذلك فى كتابى «نقد الشعر فى مصر الإسلامية» وسنرجع إليه بعد ذلك .

(٢)

وفى دراسته لشعر ظافر الحداد يطرح حسين نصار منهجه لدراسة الأدب ، فيؤكد أن التاريخ السياسى لعصر شاعر ليس هدف الدراسة الأدبية ، فنحن ، على حد قوله «حين نترجم لشاعر لانؤرخ لعصره ، وإنما نؤرخ لرؤيته لعصره وإحساسه ، وكلما أحسنَّا هذا اللون من التأريخ كان منهجنا أقرب إلى دراستنا الأدبية»[١] .

أما كيف أحس ظافر بمصر ، وتجلى ذلك فى شعره ، فإننا نختار من التجليات المصرية الكثيرة فى هذا الشعر مايكاد يعد ظاهرة أدبية فى شعر ظافر ، وهو تصويره للغربة فى شعره فى الحنين إلى الإسكندرية ، موطنه ، وقد اضطر إلى فراقه ، والعيش فى الفسطاط (العاصمة) طلبا للجاه والغنى الذى لم يغنه عن فقدانه لأحبابه وللإسكندرية ، وإن لم يظفر فيها بما تمنى من ثمرات موهبته الشعرية من رفعة وغنى ، مما قد يعكس طبيعة الإنسان المصرى الذى يرتبط بموطنه ، ولايرضى عنه بديلا . والحق أن الحنين إلى الوطن عاطفة إنسانية عامة ، ولكنه عند المصرى فى بؤرة شعوره ، لما ميز الحضارة المصرية ، فى تاريخها العريق ، من استقرار حول وادى النيل ، وارتباط المصرى بمكان ولادته ، والحنين إليه حتى لو نزل فى مكان آخر داخل هذا الوطن الواحد : مصر .

فالحنين إلى الإسكندرية يستولى على خيال ظافر الحداد ، وعلى موضوعاته الشعرية المختلفة . وقد عبر حسين نصار عن ذلك بقوله : «وحدا به الحب إلى التعلق بالطبيعة المصرية ، وتصورها برياضها المثل الأعلى لكل جميل سواء كان مجردا كالعيش الآمن ، والحب المتمتع ، أو كان محسوسا كالحديث العذب ، والوجه الحسن ، والمبنى الفاخر . . . إلخ . وكان الحب المحروم الذى عصفت به الأشواق هو الذى أفقده إحساسه بنفسه ، ووعيه بالعالم الخارجى ، وأحياه (فى الإسكندرية) على حين بقى جسمه فى الفسطاط (جثة مطروحة)» [٢] .

ويعبر ظافر عن حنينه إلى الإسكندرية ، واضطراره إلى فراقها بالرحيل إلى الفسطاط فيقول :

وسكناى بالفسطاط عز وإنما ... محل فؤادى فيه أسنى وأشرف
صحبت به عيش الشبيبة خالعا ... عذارى ، ولم أحفِل بلاحٍ يُعنِّف

---

(١) حسين نصار : ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ .

وأهل وإخـوان وبشـر وغـبطة   وأمن ومحبوب وجاه ومسعف
تخلفت عن تلك الديار ضرورةً   وبالرغم منى دونهن التخلف(١)

ويؤكد حسين نصار أن استقرار ظافر بالفسطاط كان له أبعد الآثار فى حياته وشعره(٢) ، فالفسطاط فى نظر ظافر ، لاتعوضه عن حبه للإسكندرية ، وإن جرى نيلها له فضة ، وغدا سفح مقطمها له ذهبا ، إذ يقول :

والله ما اخترت مصرا عنك عن مقة   وإنْ غدا العيش لى فيها كما يجب
ولو جرى نيلها لى فضة وغدا   سفح المُقطَّم منها وهو لى ذهب
ما اخترتها عِوَضا ممن نشأت بها   ولا شفى لىَ منها غُلَّةً أَرَب
جار الزمان على شملى ولا عجبٌ   من ذلك الجَوْرِ بل إنصافه عجب(٣)

ويجور الزمان أيضا ، على ظافر الحداد ، فيأبى القدر أن يمنحه الأمنية الأخيرة فى حياته ، والتى ظل يحلم بها فى شيخوخته :

عسى مُنيةٌ قبل المنيَّة تنقضى   فيرشف ثغرَ الثغر طرفى إذ رنا
سـألُتك رباه عَـوْدا فَـجُـدْ به   وجازِ بخير مَنْ دعوتُ فَأمَّنا(٤)

ويجعل حسين نصار شعور ظافر بالغربة مصدر شاعريته وبراعته الفنية فى الوصف . وقد تجلى ذلك فى تفاوت القيمة الفنية بين ما نظمه فى الإسكندرية من شعر ، وما قاله فى غربته ، إذ تومئ الأولى إلى «براعته فى الوصف ، وقدرته على التخيل ، ولكنها لا تبارى ما قاله فى غربته» (٥) .

وقد أثارت طبيعة الإسكندرية فى ذهن ظافر صورة تلو صورة من الخيال البديع ، وألهمته حسا مرهفا ، ومخيلة شعريةحساسة يقظة . فتراه يصور النخيل هيفا حسانا تحلت بعقود الثمر ، ارتوت أغصانها خمرا فتراقصت نشوى ، وشدت طيورها شدوا رخيما جذابا ، أوحى إليه بما يعتلج فى قلبه ، كما يصور أنين سواقى هذا الخليج والحى الذى نشأ فيه ، ويتحدث عن بعض أحياء الإسكندرية الأخرى ، ويرسم صورة عامة للإسكندرية جنة واسعة

---

(١) ديوانه ، بتحقيق حسين نصار . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٣ .
(٢) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٢١-٢٢ .
(٣) ديوانه ، ص٣١-٣٢ .
(٤) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص٦٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

الأرجاء ، زادها الربيع جمالا وألوانا ووشيا ، وهب فى جنباتها الهواء البليل العطر ، وكللت شمس الأصيل ماء بحرها اللجينى برداء من ذهب[١] .

وينتهى حسين نصار بعد دراسة ضافية لصورة الإسكندرية فى شعر ظافر الحداد إلى ما يؤكد علاقة إبداعه فى رسم هذه الصورة بحنينه وشوقه إلى الإسكندرية قائلا إنه «لم يترك مجلى من مجالى الجمال ، ولا مشهدا من مشاهد الحسن ، ولا أثرا من آثار الخلود ، ولا خاصة من المفاخر ، ولا ميزة من المزايا فى الإسكندرية إلا صورها فى شعره . . . فأعطاها صورة دقيقة مفصلة تحوى كل جميل من معالمها . وصور كل جزء من ذاكرته ، وقد غلفه البعد بسحره ، والشوق بحسنه ، فأحاطه الخيال بمجموعة من الصور التى تكمل شكله ، وتزهى لونه ، وتعمق إيحاءه»[٢] :

يا بلدتى إن يَغِبْ مغناكِ عن نظرى فـإنه فى سواد القلب لم يَغِبِ[٣]

فذكريات الشاعر فى الإسكندرية ألهمته - حين رحل عنها - قصائد كاملة لايشاركها فيها موضوع آخر ، على حد تعبير حسين نصار[٤] ، الذى أكد ، كما بيَّنا ، الارتباط بين غربة ظافر عن الإسكندرية وبين إبداعه الفنى ، إذ يراه حسين نصار ، وقد أقبل على ذكرياته فيها إقبال الحفى الذى أخلص قلبه لها ، وأفرغ ذهنه لصورها ، فينظم فى رسمها أجمل ما قاله من شعر ، غنًى فى الانفعال ، وتنوعا فى الرسم ، وعذوبة فى النغم ، واستلهاما للخيال»[٥] .

لقد استولى حب الإسكندرية والشوق إليها على قلب ظافر فهو فى الفسطاط «بائس حزين بعيد عن الأصدقاء والأحباب والأهل وموطن الجمال والمتعة ، قد فقد شبابه ، وأضر به حبه الثابت لمسقط رأسه ، ولوعة حنينه إلى الإسكندرية . ينظر إلى الإسكندرية من خلال أطياف الحب ، ورؤى الشوق ، وأحلام الحرمان فلا يرى إلا سحرا وفتنة ورواء»[٦] .

وشعر الطبيعة فى ديوان ظافر ، فى رأى حسين نصار ، يجعله ابنا للطبيعة المصرية [٧] ، وشعره فى الحنين إلى الإسكندرية ، خاصة ، أروع ما نظم «فقد نمى فيها قدراته جميعا ،

(١) ظافر الحداد ، ص ٩٨ - ١٠٦ .
(٢ المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص١٠٨-١٠٩ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
(٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، وراجع أيضا ، ص ٢٣٧ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

وأبرز خصائصه الفنية كلها ، وأصدرها مفعمة بأعمق مشاعره وأزخرها ، وألبسها أعذب حلله وأحلاها»[١] .

ولايقتصر أثر الحنين إلى الإسكندرية فى إبداع ظافر الحداد لشعر الطبيعة ، بل يتجلى هذا الحنين فى شعره الغزلى كذلك ، «إذ يسمو ظافر بالغزل فيجعله جوهر الشعر وينبوعه»[٢] ، مبدعا من فنونه معانى وصورا يرتبط فيها شوقه إلى الإسكندرية بشوقه إلى حبيبته ، فهو على حد تعبير حسين نصار ، «يكتوى بنار الحب ، وتحرقه جمرات البعاد ، فيعصر الشوق فؤاده كما عصر فؤاده هو حنينه إلى الإسكندرية»[٣] ، فيدرك «من المعانى والصور عند التعبير عن حبه ما لا يدرك هو نفسه فى غير الغزل من فنون الشعر :

كم فكرةٍ أنتجت معنى لملتهب بالشوق لو رامَه فى غيره عَزَبا[٤]

وينتهى حسين نصار إلى أن الطابع الابتكارى الذى يطبع الشخصية الشعرية لظافر الحداد يتجلى فى شعره الذى يجعل الإسكندرية والطبيعة والحبيبة شيئا واحدا[٥] .

وتجلت شخصية ظافر الشعرية كذلك ، فى ارتباطه بالفنون المصرية مثل العمارة والنقش والخط والغناء ارتباط صانعها بها ، فتعرف على جوانب متعددة منها . فإذا كان قد صور الكثير من مجالى الجمال فى الطبيعة المصرية ، والكثير من الرجال والمثل والوقائع فى المجتمع المصرى ، فإنه قد منحنا مجموعة من الرسوم المعبرة تعبيرا وافيا عن هذه الفنون»[٦] .

وهنا يلتقى ظافر الحداد مع ابن وكيع فى بعض الظواهر الفنية التى تتجلى فيها بعض خصائص الشعر المصرى ، كما يلتقى به فى استمداده من البيئة المصرية معانى وصورا شعرية تتصل بمجتمعه ، وبالواقع الجارى أمامه ، ويصور مصر : الأهرام والنيل هذه الصورة الشهيرة البديعة :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهولِ العجيب
وماءُ النيل تحتهما دموع وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهرُ سجن يوسف مثل صَبٍّ تخلّف فهو محزون كئيب[٧]

---

(١) ظافر الحداد ، ص ٢٤٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .
(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .
(٧) ديوانه ، ص٤ .

ويمثل البديع ، خاصة الطباق والجناس ، ظاهرة فنية فى شعر ظافر الحداد(١) ، كما تميز هذا الشعر بظاهرة أخرى هى الميل إلى الفكاهة والسخرية ؛ فاتسمت صوره بخفة الظل وحلاوة الروح (٢) ، وهنا يلتقى بابن وكيع التنيسى فى شعر يكشف عن بعض جوانب الشخصية المصرية .

(٣)

وتمثل دراسة الأدب فى مصر بعد الفتح العربى لها فى السنة العشرين للهجرة معضلة من المعضلات التى تواجه قضية الشخصية المصرية فيه ، لفقدان النصوص وعدم العناية بدراستها ، لأن مصر كانت تابعة للخلافة الراشدة أو للخلافة العباسية(٣) فى هذه العصور الأولى من تاريخها العربي ، ومن ثم فإن الحكم على خصوصية أدبها فى تلك الفترة يواجه تحديات أكبر من التحديات التى تواجهها عصور الاستقلال والقوة فيها .

وقد واجه حسين نصار هذه المشكلة ، ورأى أن تتبع الأفواج العربية المهاجرة إلى مصر ، واستقصاء ماضيها فى شبه الجزيرة العربية هو «المنهج السليم للتعرف على الألوان الأدبية التى دخلت مصر ، واطلع عليها المصريون ، وتمثلوها ، وربما حاكوها ، فهو إن لم يعطنا خصائص الأدب المصري ، أعطانا خصائص الأدب الذى كان يصدره من وفدوا على مصر قبل وفادتهم ، ولا شك أنهم حملوه إليها ، وربما استمروا فى التحلى بها فيما أصدروه بها» (٤) .

ومع ذلك ، فإن ما عُرف من هذا الأدب العربى فى مصر فى بداياته المبكرة قد أدى إلى الوقوف على بعض الملامح الفنية لهذا الأدب المصري . فقد برع المصري ، على حد رأى حسين نصار ، فى فن السخرية ، واتخذ الإضحاك سلاحاً من أسلحة المقاومة ضد خصومه ، وصور شعره اتصال الأدب بأحداث الحياة والمجتمع ، كما فى هجاء سعيد بن عفير للأمير وصاحب الخراج ، وانتقاده لسوء الأحوال فى مصر بسبب الغلاء والإسراف فى جمع الضرائب حيث يقول :

ما كنت أحسب أن الحَيْنَ يجمع ما ... أمسى بمصر من الأنذال في الإمَرِ(٥)

إلى آخر القصيدة .

---

(١) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ .
(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٣) وإن تخللها استقلال سياسي لمصر في العصرين الطولوني والإخشيدى .
(٤) حسين نصار : مصر العربية ، ص ٥ ، منشورات اقرأ ، ط ثالثة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
(٥) المرجع السابق ، ص٧٧ ، وراجع أيضا ص٧٥ ، ٧٦ .

وكما فى تصوير الأحداث السياسية فى مصر ، ورثاء الشعراء لدولة الطولونيين ، والبكاء على زوال مجدهم فى قصيدة سعيد القاص المطولة :

جرى دمعُه ما بين سحر إلى نحر   ولم يجرِ حتى أسلمته يدُ الصبر(١)

ويخلص حسين نصار بعد دراسته لألوان من هذا الشعر إلى أن «الشاعر المصرى من أول الشعراء الذين حاولوا أن ينظموا أمجاد بلادهم ، والصفحات المشرقة من تاريخها ، وأن يبكوا الدول التى وفرت لبلادهم الحضارة والترف والنعيم» (٢) .

ويتناول حسين نصار أثر مصر فى شعر الهذليين . ورغم اتضاح موقفه من أن الشعراء الهذليين قد نضج شعرهم فى بيئتهم الأصلية قبل وفودهم إلى مصر ، فإنه لا ينفى تسرب أثر ضئيل لمصر فى شعرهم لا يتنافى مع شخصيتهم العربية ، حيث واجه «الشاعر الهذلى فى مصر طبيعة تخالف طبيعة بلاده من وجوه عدة ، فتنبه إلى المظاهر الكبرى التى أثرت فى حياته الجديدة»(٣) .

ويرى نصار أن أبرز مظاهر تأثير البيئة المصرية فى شعر الهذليين تتجلى فى حديثهم عن النيل ، هذا النهر العظيم «الذى ارتقى به المصريون فسموه البحر ، والذى لم ير له العرب مثيلا»(٤) . وأخذ يتتبع الصور الشعرية التى ألهمها النيل وواديه وزروعه ، خاصة القمح ، خيال الشعراء الهذليين ، مميزة عن الخيال العربى الخالص(٥) .

ولعل مصر ، فى رأى حسين نصار ، قد أثرت فى الشعراء الوافدين إليها ، فقد زودت أبا تمام ، مثلا ، بالتذوق الرائع للأدب العربي ، والقدرة على الإسهام فيه ، كما زودته ، فى رأى بعض الباحثين «ببعض خصائص مذهبه الذى عُرف به ، وأخذها الشاعر عن شاعر مصر السراج دون أن يدري» (٦) ، وهو «الإغراب الذى عابه أبو تمام على السراج ، ثم عابه النقاد ، بعد ذلك ، على أبى تمام»(٧) .

---

(١) حسين نصار : مصر العربية ، ص٨٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص٨٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) المرجع السابق ، من ص ١٢٨ - ١٢٩ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .
(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وتأصيلاً لبواكير الإقليمية منهجـاً لدراسة الأدب العربي ، يشير حسين نصار إلى تمييز بعض علماء اللغة للهجات العربية على أساس بيئتها ، وحكمهم على فصاحة بعضها أو عدم فصاحتها بهذا المعيار . فقد عدوا عربية نجد ، مثلا ، أفصح من عربية مكة قبل عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحتى العصر الأموي ، فلم يأخذوا عمن ابتعد عن نجد من الشعراء ، ولذا رحل بعضهم إلى البادية لتعلم اللغة على أساس أن اللهجات الفصيحة هى لهجات القبائل التى عاشت فيها بعيدًا عن المؤثرات الخارجية التى شابت اللهجات العربية الأخرى لقبائل عاشت بعيدة عن البادية ، أو اتصلت بشعوب غير عربية مما سبب ضعفها ، وبعدها عن الفصاحة العربيـة الخالصة .

وقد أشار نصار إلى الفئات التى ربطت بين الشعراء وبيئاتهم ، عد منها فئة النقاد ممن فرقوا بين ذوق أهل البادية وأهل الحاضرة ، فوصفوا أهل البادية بالغلظة والخشونة خلافـاً لرقة أهل الحاضرة . كما أشار إلى اعتداد ابن سلام بأثر البيئة فى الشعر ، قلة وكثرة ورداءة وجودة ، فقد كان كتابه «طبقات فحول الشعراء» أول كتاب فى تاريخ الأدب يلتفت إلى أثر البيئة فى الشعر[١] .

وربط ابن قتيبة[٢] بين تنقل البدو وبدء قصائدهم بالوقوف على الأطلال . ووصل ابن طباطبا إلى القمة فى إبانة أثر البيئة فى المضمون الشعري ، على حد تعبير حسين نصار ، حيث أعلن أن « العرب أودعت أشعارها ما أدركه عيانها ، ومرت به تجاربها » بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فنفى أن يكونوا أتوا بشيء من خارج بيئتهم «فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها» [٣] .

كذلك أشار حسين نصار إلى التفات على بن عبد العزيز الجرجاني[٤] إلى أثر البيئة بادية أو حاضرة ، فى الأذواق والأسلوب الشعرى وأنه «وازن بين عدد من الشعراء للبرهنة على صحة ما أدلى به من أحكام ، بل اختار شعراء جاهليين وإسلاميين لهذه الموازنة ليبين أن أثر المكان أقوى من أثر الزمان»[٥] .

---

(١) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربى ، تعبيره عن الوحدة والتنوع . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الأمم المتحدة ،١٩٨٧ ، ص ٢٢٩ .

(٢) في كتابه «الشعر والشعراء» .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ . وراجع أيضـاً : ابن طباطبا : عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق : محمد زغلول سلام . الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» .

(٥) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربي ، تعبيره عن الوحدة والتنوع ، ص ٢٢٠ .

كذلك ينبه حسين نصار إلى أن بعض الشعراء قد ربطوا بين البيئة والشعر مثل كُثَيِّر الذى كان يرى «أن هناك بيئات تسد مسالك الشعر أمام الشاعر، وهناك بيئات تدفعه إلى النظم، وأن البيئة التى يتوافر لها الجمال الطبيعى تدخل بالشاعر فى حالة انفعالية تصل به إلى عملية الإبداع، وتستدعى ما أحب من الشعر، بل يمتاز الشعر الآتى فى مثل هذه البيئة بجمال فنى قد لا يتوافر فى إنتاج غيرها من البيئات»[١] .

أما أظهر كتاب اتخذ مؤلفه من التقسيم البيئى أساسًا لدراسة الشعر [٢] فهو كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبى، الذى رتب شعراء عصره الذين ذكرهم فى أقسام أربعة :

القسم الأول : فى محاسن أشعار آل حمدان (من أهل الشام، وما يجاورها من مصر والموصل والمغرب) .

القسم الثانى : فى محاسن أشعار أهل العراق .

القسم الثالث : فى محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان .

القسم الرابع : فى محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر[٣] .

وقد تابعه الباخرزى فى كتابه «دمية القصر وعُصرة أهل العصر»، وابن بسام فى «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»[٤] . ويجمل حسين نصار تصوره لعلاقة الشعر بالبيئة فى قوله : «ومجمل القول أن الشعراء خضعوا للآثار التى تفرضها كل بيئة، وما يجرى فيها من تيارات ثقافية متغايرة عن وعى من بعضهم، وعن غير وعى من أكثرهم، ولذلك اختلفت صورة ما أصدروه من شعر فى الأقطار العربية المتعددة، والعصور المتعاقبة، ولم يقف الأمر بهم عند هذا، بل كان منهم من له حس أرق، وفطنة أثقب، فتنبهوا إلى أثر البيئة فى المجالات الشعرية المتعددة، وكشف أقدم الأخبار التى عثرنا عليها أن أقدم تنبه كان فى مجال عملية الإبداع، عونًا لها أو إعاقة، ثم فطن الشعراء إلى ما تخلفه البيئة من أثار فى شكل القصيدة ومضمونها، بل إلى عناصر جزئية فى المضمون، وقد أثار هذا التنبه أول ثورة عامة على العرف العربى القديم فى بناء القصيدة»[٥] .

وهذا تصور يضع الأدب الإقليمى فى نصابه، ويتناوله تناولاً موضوعيًا، ولا يهدر خصوصية الإبداع الأدبى لحساب الإقليمية، بل يضعها فى سياقها حركة من حركات تطور الأدب العربى .

---

(١) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربى، تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٢١- ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠ .

(٣) راجع مقدمته، بتحقيق : علي محمد عبد اللطيف . القاهرة : مطبعة الصاوي، ١٩٣٤ .

(٤) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربي، تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٣٤ .

(٥) المرجع السابق .

الدكتور حسين نصار محققا للنصوص المعجمية

أ. عشري محمد علي الغول*

تنوع الإنتاج العلمى وغزارته .

يُعَدُّ الأستاذ الدكتور حسين نصار علما من الأعلام البارزة فى حاضر الثقافة العربية ، وذلك لما يتحلى به من ثقافة موسوعية استوعبت العديد من الجوانب الفكرية التراثية والمعاصرة ، وكان من نتيجة ذلك أن تنوَّعَ إنتاجه العلمى ، فلم تقتصر جهوده على فرع واحد من فروع العلم ، بل امتدت لتشمل مجالات متعددة ، منها ما يتصل بالدراسات اللغوية والأدبية ، ومنها ما يتعلق بالتاريخ والحضارة العربية والإسلامية وغيرها ، كما اختلفت طرق معالجته لهذه الدراسات ما بين التأليف والتحقيق العلمى والترجمة . وقد عكف سيادته على خدمة التراث العربى لسنوات طويلة امتدت لأكثر من نصف قرن ، أثرى خلالها المكتبة العربية بستين كتابا ، مما يشهد له بالتمكن والريادة .

ولا يقف المتأمل للإنتاج العلمى للدكتور حسين نصار عند تنوعه وغزارته فقط ، وإنما يدرك للوهلة الأولى تميزه الواضح فى هذا الإنتاج ، لاسيما اللغوى منه . فعلى الرغم من صعوبة التأليف فى تاريخ المعجمات العربية ، إلا أن أستاذنا قد اختار العمل فيه ، ويعد كتابه «المعجم العربى : نشأته وتطوره» المصدر الرئيس للباحثين فى هذا المجال ، وذلك لما وجدوا فيه من علم غزير واطلاع واسع ونظرة شمولية للتدوين اللغوى بعامة ، والمعجم العربى على نحو خاص .

الحاجة إلى المعاجم اللغوية .

على الرغم من وفرة المعاجم اللغوية القديمة إلا أنها لا تفى بحاجة العصر ومقتضياته ، لوقوفها عند فترة زمنية لم تتجاوزها ، وهى القرن الثانى بالنسبة لعرب الحواضر ، والرابع بالنسبة لعرب البوادي ، مما أصاب اللغة بالجمود وعاقها عن التطور(١) ، كما وقفت كذلك عند حدود مكانية لم تتعدها ، وهى وسط شبه الجزيرة العربية (نجد) ، و«معظم هذه المعاجم قد تصونت عن إثبات ما وضعه المولدون والمحدثون فى الأقطار العربية من الكلمات والمصطلحات والتراكيب»(٢) .

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

(١) انظر : أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٦ ، ص ٣٠٠ .

(٢) مقدمة المعجم الوسيط ، ط ٣ ، ١/ ١٢ .

واللغة دائما أوسع من المعاجم ؛ لأنها ظاهرة مفتوحة ولا تستقر على حال ، لذلك أكد الدكتور حسين نصار على ضرورة أن نتدارك ما أهمله أصحاب المعاجم القديمة من الألفاظ المولدة ، وقد حاول أحمد تيمور باشا أن يطلعنا على بعض الألفاظ العباسية التى أهملتها المعاجم فى مقالاته التى نشرها فى مجلة المجمع العلمى بدمشق(١) .

غير أن هذه المقالات لم تغن عن صناعة المعاجم التى تُخصَّص للعاميات المعاصرة فى الأقطار العربية المختلفة ؛ لتبين مدى العلاقة بين هذه العاميات واللغة العربية الفصيحة . من هذا المنطلق اعتنى الدكتور حسين نصار بتحقيق «معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية»(٢) لمؤلفه أحمد تيمور باشا ، يقول :«أصبحنا فى حاجة كبرى لوضع كتاب كافٍ ، يكشف عن أصول الكلمات العامية ومعانيها ، ويحل معقودها ، ويوضح غامضها ، ويبين مرادفها من الفصيح»(٣) .

وترجع القيمة العلمية لهذا المعجم إلى المكانة العلمية واللغوية التى وصل إليها مؤلفه ومحققه فى آن معا ، حيث كان الأول عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والمجمع العلمى العربى بدمشق ، والثانى عضوا مراسلا فى مجمعى اللغة العربية فى بغداد ودمشق .

ولا غرو ، والأمر كذلك ، أن اعتبر المحقق هذا المعجم «أكبر كتاب فى العامية : أكثرها ألفاظا ، وأوسعها مجالا ، وأشدها وصلا بين العامية واللغة الفصحي ، وبين العامية المصرية وغيرها من العاميات ، وأشملها للجوانب المختلفة من اللغة العامية ، وأحسنها تصويرا لها فى مفرداتها وقواعدها وأدبها ، وأقربها عهدا بنا ، وأسهلها ترتيبا»(٤) .

معجم تيمور الكبير

يقع المعجم فى ستة أجزاء ، خصَّص المحقق الجزء الأول للقواعد ، والسادس للفهارس(٥) ، وبقية الأجزاء لمتن المعجم ، وقد شملت مداخل المعجم «المفردات التى استعملها العامة من معاصريه ، ومن الأجيال السابقة عليهم . أما العامى المعاصر له فقد

(١) راجع : حسين نصار : المعجم العربي ، نشأته وتطوره .القاهرة : مكتبة مصر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ٦٠٥/٢ .

(٢) قام الدكتور حسين نصار أيضًا بتحقيق الجزء السادس من «تاج العروس» للزبيدي ، ١٩٦٩م ، والجزء الثالث عشر ، ١٩٧٤م ، سلسلة التراث العربي ، الكويت . كما قام بمراجعة المعجم العربى الأساسي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٩م .

(٣) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية ، تحقيق : حسين نصار ، إفتتاحية المؤلف . القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، ط ٢ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ١٨/١ .

(٤) المصدر السابق ، مقدمة المحقق ١٣/١ .

(٥) قام الدكتور حسين نصار بالتخطيط للفهارس وقام الأستاذ صابر إدريس بصناعتها .

أخذه من أفواه من اتصل بهم من المصريين ، وحاول ما استطاع الاستقصاء والتنويع فى هذا الأخذ ، فوردت فى كتابه ألفاظ من جهات متفرقة من ربوع مصر المتباعدة . وأما العامى القديم فالتقطه من بطون الكتب ، وحاول فيه أن يبين منشأه ، بأن يذكر أقدم مصدر ورد فيه اللفظ العامي . وقد أفاد ذلك الكتاب ثراء فى المادة ، واتساعا فى مجال البحث فلا تتحدد بمصر وحدها ، ونهجا تاريخيا ـ أو ذا مسحة تاريخية ـ فى التناول»[١] .

وكان لابد أن ترتب مداخل المعجم وفق نظام معين ، وقد «رأى ـ المؤلف ـ أنّ أيسر سبيل لترتيب هذه الألفاظ النظام الألفبائي ، تخضع له من حرفها الأول فالثانى فالثالث إلى آخر الحروف ، لا فرق فى ذلك بين حرف أصلى ومزيد»[٢] .

وكان الغرض من هذا المعجم «إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامي ، وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه ـ إن لم يكن كذلك ـ ليحل محله ، ويرجع إليه فى الاستعمال . فإن جهلناه اقتصرنا على تفسير المعنى وتوضيحه ، ليتسنى لمن وجده بعدنا أن يتمم ما بدأنا به»[٣] . والصلة بين العامية والفصحى لا يشك فيها أحد ، وكل ما فى الأمر أنها قد تتفاوت فى العاميات المختلفة وهنًا وقوة ، بل فى العامية الواحدة فى الأطوار الزمنية التى تمر بها[٤] .

جهود المحقق فى إعداد المعجم

ما إن بدأ المحقق المراحل الأولى فى تحقيق المعجم حتى ظهرت له مجموعة من الصعوبات ، نظرا لطبيعة المعجم من ناحية ، وطريقة صاحبه فى التأليف من ناحية أخرى . يقول المحقق :«وتصورت الأمر يسيرا ، فإن لى بعض الدربة على التحقيق ، ولكن دراسة ما خلّفه المغفور له أحمد تيمور باشا قد بددت هذا التصور ، وكشفت أن الأمر ليس تحقيقا مجردا ، بل لابد من عمل يضاف إليه»[٥] .

وترجع الصعوبات التى قابلت المحقق فى تحقيق الكتاب إلى أن مؤلفه قد تركه على هيئة مسوَّدة ، يقول المحقق : «فقد تبين أن النسخة التى حصلت عليها مسوَّدة دون أدنى

(١) معجم تيمور ، مقدمة المحقق ، ١٢/١ .
(٢) المصدر السابق ، ١٢/١ .
(٣) المصدر السابق ، ١٨/١ .
(٤) المصدر السابق ، ٦/١ .
(٥) المصدر السابق ،١٣/١ .

شك ، وأن المؤلف لم يجد فسحة من الوقت لتبييض الكتاب»[١] . مما يضاعف من دور المحقق ، ويجعل الكتاب فى حاجة إلى التهذيب والإعداد حتى يخرج بالصورة التى ينتفع بها الباحثون . وقد بذل المحقق جهدا كبيرا للتغلب على هذه الصعوبات ، ونوضح ذلك فيما يلي :

١- ترتيب القواعد .

من أُولى الصعوبات التى واجهت المحقق صعوبة ترتيب القواعد ، «فقد خصَّص المؤلف كراسين كبيرين للقواعد ، وأفرد مجموعة من الأوراق لكل ظاهرة من الظواهر اللغوية التى تحدث عنها ، دوَّن فيها ما عثر عليه من النصوص والأقوال والآراء التى يمكن أن تندرج تحتها . وبمرور الوقت ، اكتشف ظواهر لم يفطن إليها فى أول الأمر ، فمنحها مجموعة من الأوراق الأخيرة . وعندما أعاد النظر فى هذه الظواهر المتجمعة عنده ، وجد أنه يجمل به أن يجرى شيئا من التغيير فى ترتيب هذه الظواهر ، لأن بعضها يتصل بظواهر بعيدة عنه . فأشار إلى الموضع الذى يراه أهلا لهذه الظواهر»[٢] .

فالمؤلف كان يكتب القاعدة مرة واثنتين وثلاثا فى الموضع الواحد ، تقاربت هذه المواضع أو تباعدت . وقد يفطن القارئ إلى أن المواد المدونة ترد حسب موضعها من مصادرها الأصلية ، ولكن الكاتب لم يلتزم ترتيب الأجزاء فى الكتب التى قرأها ، وقرأ الكتاب الواحد أكثر من مرة ، فاستدرك ما فاته فى القراءة السابقة[٣] .

على هذا النحو خلت المادة من الترتيب ، وتُركت بعض الظواهر غير محددة الموضع . وكان على المحقق أن يتدخل ، يقول :«وكان محالا أن نترك المادة على هذه الفوضى التى لم يقصد إليها المؤلف ، وتطرد القارئ ، وتحجب الفائدة . فرأيت أن أخضعها للترتيب الذى اضطرنى إلى التقديم والتأخير فيها ، وإلى زيادة بعض العناوين من عندى بين معقوفتين ، وإلى حذف العناوين المكررة التى تبين انتماء الخبر . وشجعنى على ذلك أن الكاتب نفسه أوصى بشيء من ذلك فى بعض المواضع . فأوصى بنقل الحديث عن الباء من فصل المؤنث والمذكر إلى حرف الزاى»[٤] .

(١) حسين نصار : التعامل مع نسخة المؤلف ، مجلة تراثيات (مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية) ، العدد الثالث ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٣ .
(٢) معجم تيمور ، مقدمة المحقق ، ١/١٣ ، ١٤ .
(٣) المصدر السابق ، ١/ ١٤ .
(٤) المصدر السابق ، ١/ ١٥ .

٢ - تدوين العناوين بلا معلومات .

ومن المشكلات أيضا تدوين العناوين بلا معلومات تحتها ، يقول المحقق : «وجدت بعض العناوين لم يسجل تحتها شيئا ، فاحتفظت بها ؛ لتبين أنها واحدة من الظواهر العامية ، وإن لم يكتب [تيمور] عنها شيئا»[١] .

٣ - الفصل بين المتن والحاشية .

ومن المشكلات أيضا مشكلة الفصل بين المتن والحاشية ، يقول المحقق : «لم يدون الكاتب بعض النصوص واكتفى بالإشارة إلى المرجع وموضع ذلك فيه ، خاصة النصوص الطويلة والعلاج المستقصى للظواهر . فرأيت أن ذلك يكون قائمة غنية بمراجع كثير من الأبحاث (ببليوجرافيا) ، وهى عظيمة النفع لأنها تهدى الباحث وتضيء سبيله ، ولكنها ثقيلة أمام القارئ لا يستطيع أن ينفذ خلالها ، واعتقدت أن الموضع اللائق بها الحاشية . فأنزلت إليها هذا القسط من المادة أو أغلبه ، بالرغم من أن الكاتب لم يفرق بين متن وحاشية . وحافظت جاهدا - فى الحاشية - على عبارة الكاتب»[٢] .

٤ - ترتيب مداخل المعجم .

وكان ترتيب المداخل المعجمية من أهم المشكلات التى واجهت المحقق ، وذلك لما يحتاجه هذا الترتيب من عمل يكاد يضارع الصناعة المعجمية نفسها . ولابد من التفرقة بين نوعين من هذا الترتيب ، النوع الأول : هو الترتيب الخارجى للمداخل ، وهو يعتمد على ترتيب الجذور ، فالجذر أ خ ذ مثلا يأتى قبل الجذر ض ر ب ، والنوع الثانى الترتيب الداخلى للمداخل ، وهو يرتبط بترتيب مشتقات الجذر الواحد ، كتقديم الأفعال على الأسماء مثلا .

وبالنسبة للنوع الأول من الترتيب فإن تيمور رتب معجمه ترتيبا ألفبائيا ، إلا أن طريقته فى القراءة والتأليف قد اضطرته فى كثير من الأحيان إلى إضافة مداخل جديدة استدركها على المداخل القديمة ، وقد قام المحقق بترتيب هذه المداخل ، يقول :«رأيت المداخل فى حاجة إلى إعادة ترتيب ورودها ، فرتبتها»[٣] .

---

(١) معجم تيمور . مقدمة المحقق ، ١/ ١٤ .
(٢) المصدر السابق ، ١/ ١٥ .
(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أما بالنسبة للنوع الثانى من الترتيب فقد لاحظ أستاذنا أن المادة العلمية فى مداخل المعجم جاءت متناثرة ، ومكررة أحيانا . فكانت فى حاجة إلى من يرتبها ؛ ليجعلها مماثلة للمداخل المعتادة فى المعاجم اللغوية وصالحة للقراءة النافعة . ولذلك قام بإعادة ترتيب المادة فى هذه المداخل ، يقول : «رأيت المعلومات فى داخل المداخل فى حاجة إلى إعادة تنظيم ، اضطرنى إلى شيء من الحذف والعطف ، ففعلت دون أن أضيف شيئا من عندى غير أدوات العطف فى أحايين قليلة»[١] .

وهكذا رتب أستاذنا الدكتور حسين نصار المداخل المعجمية داخليا وخارجيا ، وحرص على تقديم المعجم فى صورة هى أقرب ما تكون لمبيضة المؤلف ، يقول : «سميت ما فعلت (إعدادا وتحقيقا) . ولم أشعر أننى أخون أمانة الكتاب ، بل أومن أننى خلقت من الأمشاج التى تركها تيمور باشا كتابا سويا»[٢] .

(١) حسين نصار : التعامل مع نسخة المؤلف ، ص ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ببليوجرافيات

المخطوطات التي حققت كرسائل جامعية بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر منذ السبعينيات حتى ٢٠٠٣م

(٢)

إعداد / أ. أحمد عبدالباسط وأ. أحمد عبدالستار*

مما لاشكَّ فيه أنَّ تراثنا ثرٌّ كثيفٌ ، وجديدٌ ومتنوعٌ أيضًا ، لكنَّ كثيرًا من بنى جلدتنا يظنون ظن الخطأ بهذا التراث الأثيل الذى خلَّفه لنا أجدادنا من علماء الحضارة الإسلامية ؛ فيقولون : إن هى إلا مدوّنات دوّنها بعضٌ من طلبة العلم فى كواغد بالية لا تصلح الآن لنا . وكأنهم تناسوا ما أحرزه علماء الحضارة الإسلامية من سبق وتقدّم ، كان له الفضل على هذا الغرب المتخِّذ الآن نبراسًا فى كل شيء .

وقد عرضنا فى العدد السابق مجالاً واحدًا من مجالات نشاط التحقيق العلمى فى هذه الكلية العريقة ؛ ونعرض فى عددنا هذا بقية مجالاتها التي عنيت بالتراث المخطوط . فنقدّم إليك أيها القارئ العزيز جهودًا أخرى فى أقسام : أصول اللغة ، والأدب والنقد ، والبلاغة والنقد ، والتاريخ والحضارة .

وبهذا يكون ختامنا فى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر) ، فرع القاهرة ، آملين من المولى - عزّ وجلّ - أن نتبع هذا العرض بجهود بقية الكليات فى هذه الجامعة العريقة .

أصول اللغة :

١ - ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس المنسوب للفيروزآبادى [ت٨١٧هـ] : تحقيق - أحمد لطفى عبد المنعم دويدار ، ١٩٨٤ ، ٢٨٧ صفحة . ماجستير .

٢ - أزاهير الرياض المريعة وتفاسير ألفاظ المحاورة والشريعة للإمام أبى الحسن على بن زيد البيهقى [ت ٥٦٥ هـ] : تحقيق ودراسة - محمد السيد عطية ، ١٩٨٢ ، ٥٢٤ صفحة . ماجستير .

٣ - أسرار العربية لكمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد الأنبارى النحوى : تحقيق - عبد المعطى جاب الله سالم ، ١٩٧٩ ، ٣٤٢ صفحة . ماجستير .

٤ - الإشارات إلى ما وقع فى المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات لابن الملقن [ت ٨٠٤هـ] : تحقيق ودراسة القسم الثانى - عبدالمنعم على نظيف سيف ، ١٩٨٩ ، ٦٦٧ صفحة . ماجستير .

* باحثان بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

٥ - الأشباه والنظائر لأبى منصور الثعالبى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (أبى منصور الثعالبى وتحقيق كتابه الأشباه والنظائر) - محمد رياض السيد كريم ، ١٩٨٢ ، ٣٥٠ صفحة . ماجستير .

٦ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - عبد الجابر عبد الله سليمان ، ١٩٧٨ ، ١٢٣٥ صفحة . دكتوراه .

٧ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «أجح» إلى مادة «ثأد» - عبد المنعم عبد الله محمد ، ١٩٨٣ ، ٥٢٣ صفحة . دكتوراه .

٨ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من مادة «جحد» إلى مادة و«أد» - فتحى أنور عبد الحميد ، ١٩٨٣ ، ٧٩١ صفحة . دكتوراه .

٩ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «وأد» إلى مادة «خبر» - أحمد طه عبد العال سليم ، ١٩٨٣ ، ٧٤٥ صفحة . دكتوراه .

١٠ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من مادة «خبر» إلى مادة «شبط» - مصطفى عبد الحفيظ على سالم ، ١٩٨٤ ، ٥٥٣ صفحة . دكتوراه .

١١ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من مادة «شبط» إلى مادة «احجم» - مناف مهدى محمد ، ١٩٨٤ ، ١٠٢٨ صفحة . دكتوراه .

١٢ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من مادة «كأب» إلى مادة «لهب» - أحمد طه حسنين سلطان ، ١٩٨٤ ، ٨٦٥ صفحة . دكتوراه .

١٣ - *إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى* [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من مادة «حشث» إلى مادة «يرج» - أحمد أبو اليزيد على ، ١٩٨٨ ، ٨٥٦ صفحة . دكتوراه .

١٤ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسى [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من باب الباء فصل الجيم إلى نهاية باب الفاء فصل الجيم - عزت عبد الحميد إبراهيم ، ١٩٩٠ ، ٩٥٦ صفحة . دكتوراه .

١٥ - الأفعال لابن القطاع الصقلى : تحقيق ودراسة من أوله إلى آخر حرف الفاء - سعيد عبد الخالق إبراهيم ، ١٤٠٩هـ ، ١٥٥٦ صفحة . دكتوراه .

١٦ - الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء للإمام أبى محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الله النكزاوى [ت ٦٨٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - محمد سعد محمد مرسى ، ١٩٩٠ ، ٨٩٠ صفحة . دكتوراه .

١٧ - الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء للإمام أبى محمد عبد الله بن محمد ابن عبدالله النكزاوى [ت ٦٨٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى - نعيم عطوة محمد فرج ، ١٩٩٠ ، ٨٨١ صفحة . دكتوراه .

١٨ - إكمال الإعلام فى تثاليث الكلام لجمال الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله ابن مالك : تحقيق ودراسة - أحمد إبراهيم الجزار ، ١٩٨٦ ، ١٦١٣ صفحة . دكتوراه .

١٩ - إيضاح الأسرار والبدائع فى شرح الدرر واللوامع فى أصل مقر الإمام نافع لابن المجرد [ت ٨١٩ هـ] : تحقيق ودراسة - ناصر محمد أبو زيد نصر ، ١٩٩١ ، ١٣١٦ صفحة . دكتوراه .

٢٠ - البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة لسراج الدين عمر بن قاسم الأنصارى المصرى الشهير بالنشار [ت ٩٠٠ هـ] : تحقيق من أول الكتاب إلى سورة الكهف - فوزى يوسف عبده ، ١٩٨٥ ، ٦٤٤ صفحة . دكتوراه .

٢١ - تاج المصادر فى اللغة للإمام أحمد بن على بن محمد البيهقى [ت ٥٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - محمد سعد محمد مرسى ، ١٩٨٥ ، ٦٢٧ صفحة . ماجستير .

٢٢ - تاج المصادر فى اللغة للإمام أحمد بن على بن محمد البيهقى [ت ٥٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى - أحمد أبو العيلة رخا ، ١٩٨٥ ، ٦٧٠ صفحة . ماجستير .

٢٣ - تاج المصادر فى اللغة للإمام أحمد بن على بن محمد البيهقى [ت ٥٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة الجزى الثالث ـ نعيم عطوة أحمد فرج ، ١٩٨٥ ، ٧١١ صفحة . ماجستير .

٢٤ - التجريد لبغية المريد فى القراءات السبع لابن الفحام [ت ٥١٦ هـ] : تحقيق ودراسة ـ محمد عيد محمد عبد الله ، ١٩٩١ ، ٨٥٨ صفحة . ماجستير .

٢٥ - التحرير السديد لشرح القول المفيد لبدر الدين بن عمر بن عطاء الله [ت١١٧٥هـ] : تحقيق ودراسة ـ صالح عمر بسيونى أبو الحسن ، ١٩٨٨ ، ٢٠٦صفحة . ماجستير .

٢٦ - تفريج النفوس فى تجريد هوامش حاشية القاموس للعلامة الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى [ت ١٣٠٥هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول من أوله إلى قول المؤلف «هكذا فى الجمع كلمة وإذا جاءت لجمع حاجة» ـ جمال محمد عبد الكريم ، ١٩٨٦ ، ٤٤٨ صفحة . ماجستير .

٢٧ - تفسير غريب ما فى الصحيحين لأبى عبد الله محمد بن فتوح الحميرى [ت٤٨٨هـ] : تحقيق ودراسة من أول مسند أبى هريرة حتى آخر مسند النساء ـ نور حامد محمد الشاذلى ، ١٩٨٩ ، ١٠٨٧ صفحة . ماجستير .

٢٨ - التقريب فى علم الغريب لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول من مادة «أب» إلى آخر مادة «روى» ـ محمد علام محمد ، ١٩٨٤ ، ٨٧٠ صفحة . ماجستير .

٢٩ - التقريب فى علم الغريب لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من مادة «ريب» إلى آخر مادة «فوم» ـ سيد أحمد على الصاوى ، ١٩٨٤ ، ٨٥٥ صفحة . ماجستير .

٣٠ - التقريب فى علم الغريب لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثالث ـ محمود عبد الله محمد عبد الله ، ١٩٨٠ ، ٩٣٧ صفحة . ماجستير .

٣١ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول ـ صلاح صالح أحمد عطية ، ١٩٨٤ ، ٦٣٠ صفحة . دكتوراه .

٣٢ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى - جاسب فالح حسن الربيعى ، ١٩٨٤ ، ١٣٦١ صفحة . دكتوراه .

٣٣ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «صأصأ» إلى مادة «عجو» - عبد التواب مرسى حسن الأكرت ، ١٩٨٧ ، ٥٦٨ صفحة . ماجستير .

٣٤ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «عدد» إلى مادة «علا» - ناصر محمد أبو زيد ، ١٩٨٧ ، ٥٤٦ صفحة . ماجستير .

٣٥ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الرابع من مادة «فحل» إلى آخر مادة «كفر» - محمد علام محمد ، ١٩٨٨ ، ٩٧٩ صفحة . دكتوراه .

٣٦ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأخير - جمال الدين قبيص عبداللاه ، ١٩٨٧ ، ٥٣٢ صفحة . ماجستير .

٣٧ - التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد بن عبد الرؤوف المناوى [ت ١٠٣١هـ] : تحقيق ودراسة - محمد السيد عطية السيد ، ١٩٨٤ ، ٧٩٥ صفحة . دكتوراه .

٣٨ - الجامع لآراء روضة الحفاظ بتهذيب الألفاظ فى اختلاف القراء الخمسة عشر للعلامة موسى بن الحسين بن إسماعيل المعروف بالمعدل المصرى [ت ٥٠٠هـ] : تحقيق ودراسة عبد الحكيم حسين عبد الرحمن ، ١٩٨٩ ، ١٥٣٤ صفحة . دكتوراه .

٣٩ - الجليس الأنيس فى تحريم الخندريس للفيروزآبادى [ت ٨١٧ هـ] : تحقيق ودراسة الجز الثانى - السيد شرف أحمد السيد ، ١٤٠٥هـ ، ٣٧٣ صفحة . ماجستير .

٤٠ - درر الأفكار فى النهج المختار فى القراءات العشر للشيخ محمد بن أحمد الحوفى : تحقيق ودراسة - السيد شرف أحمد السيد . ١٩٩٠ ، ١٢٦٧ صفحة . دكتوراه .

٤١ - الدرة الفريدة فى شرح القصيدة لحسين بن أبى الفرات بن الرشيد الهمذانى [ت٦٤٣هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من أول سورة البقرة إلى نهاية سورة الكهف ـ عبدالتواب مرسى حسن ، ١٩٩١ ، ١٣٣٢ صفحة . دكتوراه .

٤٢ - الدرة الفريدة فى شرح القصيدة لحسين بن أبى الفرات بن الرشيد الهمذانى [ت٦٤٣ هـ] : تحقيق ـ محمود محمد حفنى الشرقاوى ، ١٩٩٣ ، ٤٤٤ صفحة . دكتوراه .

- الدر المبثثة فى الغرر المثلثة للفيروزآبادى : تحقيق ودراسة : محمد على الحاج عبد الكريم ، ١٩٧٨ ، ٣٨٦ صفحة . ماجستير .

٤٣ - الدر النثير والعذب النمير فى شرح التفسير لأبى عمرو الدانى [ت ٤٤٤ هـ] : تأليف : عبد الواحد بن محمد المالقى [ت ٧٠٥ هـ] : تحقيق ودراسة ـ حسن سيد فرغلى ، ١٩٨٩ ، ١١٤٥ صفحة . دكتوراه .

٤٤ - ديوان جميل بثينة : تحقيق ـ عبد الغنى عبد الله إبراهيم ، ١٩٨٨ ، ٤٦٧ صفحة ماجستير .

٤٥ - الراموز فى اللغة العربية للشريف الأدرنوى السيد محمد بن السيد حسن حسام الدين بن السيد على [٨٦٦هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - الموافى الرفاعى البيلى ، ١٩٨٢ ، ١٠٨٧ صفحة . دكتوراه .

٤٦ - الراموز فى اللغة العربية للشريف الأدرنوى السيد محمد بن السيد حسن حسام الدين بن السيد على [٨٦٦هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى - محمد عبدالحفيظ على العريان ، ١٩٨١ ، ١٠٢٣ صفحة . دكتوراه .

٤٧ - الراموز فى اللغة العربية للشريف الأدرنوى السيد محمد بن السيد حسن حسام الدين بن السيد على [٨٦٦هـ] : تحقيق الجزء الثالث مع دراسة عن حياة مؤلفه السيد محمد حسن بن السيد حسن - محمد على الحاج عبد الكريم ، ١٩٨١ ، ١٥٩٥ صفحة . دكتوراه .

٤٨ - الرسائل اللغوية لأبى عمر الزاهد : تحقيق ودراسة ـ صلاح صالح أحمد عطية ، ١٩٨٠ ، ٣٩٢ صفحة . ماجستير .

٤٩ - الزاهر فى غريب ألفاظ للإمام الشافعى الموجودة في مختصر أبى منصور الأزهرى : تحقيق ودراسة ـ عبد المنعم طوى الشتانى ، ١٩٧٩ ، ٨٨٢ صفحة . دكتوراه .

٥٠ - الزاهر فى معانى الكلام الذى يستعمله الناس للزجاجى : تحقيق ودراسة ـ سعيد عبد الخالق إبراهيم ، ١٩٨٣ ، ٧٩٤ صفحة . ماجستير .

٥١ - شرح درة الغواص لشهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن عمر المصرى [ت ١٠٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة ـ محمد رياض السيد كريم ، ١٩٨٧ ، ٩٩٥صفحة . دكتوراه .

٥٢ - الدرة الفريدة فى شرح القصيدة (حرز الأمانى ووجه التهانى . لأبى القاسم الهمذانى الشاطبى) [ت ٦٤٣هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى منه من أول سورة مريم إلى آخر سورة الناس ضمن دراسة بعنوان (الظواهر اللهجية فى كتاب شرح الدرة الفريدة) ـ أحمد محمود عمر الشيخ ، ١٩٩٩ ، ٤٩٤ صفحة ، دكتوراه .

٥٣ - الشمعة المضيئة بنشر قراءات السبعة المرضية لسبط الناصر الطبلاوى : تحقيق ودراسة ـ على سيد أحمد ، ١٩٨٩ ، ٩٤٣ صفحة . دكتوراه .

٥٤ - عقد الخلاص فى نقد كلام الخواص لرضى الدين بن الحنبلى : تحقيق ودراسة ، فتحى أنور عبد المجيد الدابولى ، ١٩٨٠ ، ٣٩٣ صفحة ، ماجستير .

٥٥ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى [ت ٧٥٦ هـ] وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الأول ـ محمد محمد حسن ، ١٩٨٧ ، ٥٥٣ صفحة . ماجستير .

٥٦ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى [ت ٧٥٦هـ] : وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من باب «الخاء» إلى باب «الصاد» ـ محمد عزب أحمد الضاوى ، ١٩٨٢ ، ١١١٤ صفحة . ماجستير .

٥٧ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى [ت ٧٥٦هـ] : وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الثالث من باب «الصاد» إلى آخر باب «القاف» ـ عبدالحكيم حسين عبد الرحمن ، ١٩٨٥ ، ٩٦٧ صفحة ، ماجستير .

٥٨ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى [ت ٧٥٦هـ] : وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الرابع من باب «الكاف» إلى آخر حروف الهجاء ـ محمد عبد الغنى عشماوى ، ١٩٨٩ ، ١٠٤٧ صفحة ، ماجستير .

٥٩ - عنوان المسرة بشرح محاسن الدرة لزين بن أحمد بن زيد الصياد المرصفى [ت١٣٠٠ هـ] : تحقيق ودراسة من أوله إلى قوله «وهناك أشياء تختلف أسماؤها باختلاف أصنافها» ـ مسعد عبد الحارس محمد ، ١٩٩٠ ، ٥٥٥ صفحة .

٦٠ - غوامض الصحاح لأبى الصفاء صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى [ت٧٦٤هـ] : تحقيق ودراسة ـ أحمد أبو اليزيد على ، ١٩٨٤ ، ٣١٥ صفحة ، ماجستير .

٦١ - قصد السبيل فيما وقع فى اللغة العربية من الدخيل : لمحمد أمين بن فضل الله المحبى [ت ١١١١ هـ] ـ أحمد عبد المجيد عطية ، ١٩٨٨ ، ٤٠٩ صفحة . ماجستير .

٦٢ - قنصة الأريب فى تفسير الغريب لموفق الدين أبى محمد عبد الله بن أحمد ابن محمد بن قدامة المقدسى [ت ٦٢٠ هـ] : تحقيق ودراسة ـ حلمى السيد محمود ، ١٩٨٥ ، ٧٣٠ صفحة . ماجستير .

٦٣ - كنز المعانى في شرح الأمانى ووجه التهانى للجعبرى [٧٣٢ هـ] : من أول الكتاب حتى باب فرش الحروف ، تحقيق ودراسة ـ صلاح الدين سلطان عبد الرحمن ، ١٩٩٣ ، ١٢١٩ ص . دكتوراه .

٦٤ - كنز المعانى في شرح الأمانى ووجه التهانى للجعبرى [٧٣٢ هـ] : تحقيق من أول الصافات إلى آخر الكتاب ـ أحمد المرضى سيد أحمد ، ٢٠٠٠م ، ٧٢٣صفحة . ماجستير .

٦٥ - اللآلئ الفريدة فى شرح القصيدة لأبى عبدالله محمد بن الحسن الفاسى [ت٦٥٦ هـ] : تحقيق الجزء الأول منه من أوله حتى باب سر الحروف ـ مصطفى أمين أحمد سيد ، ١٩٩٢ ، ١٢٤٩ صفحة ، دكتوراه .

٦٦ - اللآلئ الفريدة فى شرح القصيدة لأبى عبدالله محمد بن الحسن الفاسى [ت٦٥٦ هـ] : تحقيق ودراسة ـ جمال الدين قبيص عبد اللاه ، ١٩٩٣ ، ١١٦٦صفحة ، دكتوراه .

٦٧ - اللباب فى علم الكتاب لأبى حفص الدمشقى : تحقيق ودراسة من أول سورة العنكبوت إلى آخر سورة القمر ـ محمد المتولى الدسوقى حرب ، ١٩٩٢ ، دكتوراه .

٦٨ - اللفظ المستغرب من شواهد المهذب لأبى عبد الله محمد بن على بن أبى على القلعى [ت ٦٣٠ هـ] : تحقيق ودراسة مع مقدمة فى دراسة أهم المصنفات فى الفقه ـ مصطفى عبدا لحفيظ على سالم ، ١٩٨٠ ، ٥٧٥ صفحة ، ماجستير .

٦٩ - المثلث المختلف المعنى للفيروزآبادى [ت ٨١٧ هـ] : تحقيق ودراسة - عبد الجليل مغتاظ عودة التميمى ، ١٩٨١ ، ٥٢٥ صفحة ، ماجستير .

٧٠ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعانى [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول منه من أوله إلى آخر باب الباء - كمال حسين أحمد عيد ، ١٩٩٢ ، ١٧٥٨ صفحة . دكتوراه .

٧١ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعانى [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق ما يبدأ من أول التاء إلى آخر باب الحاء ضمن دراسة بعنوان (الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعانى) - عبدالرؤوف كامل على عبيد ، ١٩٩٤ ، ١١٨٩ صفحة . دكتوراه .

٧٢ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعانى [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق ما يبدأ بفصل السين من باب العين إلى آخر باب الفاء ضمن دراسة بعنوان (الظواهر اللهجية) - محمد عبدالغنى عشماوى جاب الله ، ١٩٩٤ ، ١٢٧٨ صفحة . دكتوراه .

٧٤ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعانى [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق أبواب «القاف والكاف واللام» إلى آخر الكتاب ضمن دراسة بعنوان (النظام المعجمى فى معجم مجمع البحرين ومطلع البدرين)- محمد أحمد صالح ، ١٩٩٤ ، ١١٨٢ صفحة . دكتوراه .

٧٥ - مختصر فى شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه : تحقيق ودراسة ضمن دراسة بعنوان (القضايا اللغوية عند ابن خالويه) - إبراهيم البسيونى الصعيدى ، ١٩٩٤ ، ٧٨٦ صفحة . دكتوراه .

٧٦ - المسائل المنثورة لأبى على الفارسى : تحقيق - سيد أحمد بخيت ، ١٩٨٠ ، ٢٨٢ صفحة . ماجستير .

٧٧ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار فى فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى وإيضاح مبهم لغاتها (فى غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة ابتداء من «الدال مع الهمزة» إلى «العين مع الصاد» - حسن سيد فرغلى ، ١٩٨٥ ، ٩٤٦ ص ، ماجستير .

٧٨ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار فى فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى وإيضاح مبهم لغاتها (فى غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف

الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة من أول حرف «الجيم» إلى أول حرف «الدال» - مصطفى محمد على عبد الوهاب ، ١٩٨٩ ، ١٠٤٣ صفحة . ماجستير .

٧٩ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار فى فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى وإيضاح مبهم لغاتها (فى غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : من أول حرف العين مع «الصاد» حتى أول حرف «السين مع الهمزة» - أحمد محمود محمد ، ١٩٨٨ ، ٥٥٥ صفحة . ماجستير .

٨٠ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار فى فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى ، إيضاح مبهم لغاتها (فى غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأخير من أول حرف «السين مع الهمزة» حتى نهاية الكتاب - خلف السيد رضوان ، ١٩٨٩ ، ٧٧٨ صفحة . ماجستير .

٨١ - المعرب للجواليقى : تحقيق الألفاظ الواردة المعربة والداخلية ضمن دراسة بعنوان (المعرب والدخيل فى اللغة العربية) ـ عبدالرحيم عيد السجان ، ١٩٧٧ ، ٦٨١ صفحة . دكتوراه .

٨٢ - المقصد النافع لبغية الناشئ والبارع فى شرح درر المقصد النافع لبقية اللوامع لمحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز [٧١٨هـ] تحقيق ودراسة ـ عبد الهادى أحمد محمد السلمون ، ١٩٩١ ، ٨٧١ ص . دكتوراه .

٨٣ - الموضح لمذاهب القراء واختلافهم فى الفتح والإمالة للإمام الحافظ أبى عمرو المغربى عثمان الدانى [ت ٤٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة ـ جمال عبد الفتاح أبو العزم ، ١٩٨٩ ، ٥٤٠ صحة . ماجستير .

٨٤ - موطئة الفصيح لموطأ الفصيح فى اللغة شرح العلامة أبى عبد الله محمد ابن الطيب [ت ١١٧٠ هـ] : على نظم الفصيح للعلامة مالك بن عبد الرحمن المعروف بابن المرحل [ت ٦٩٩هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول ـ محمد عزت أحمد القناوى ، ١٩٨٥ ، ١١٢٩ صفحة . دكتوراه .

٨٥ - موطئة الفصيح لموطأ الفصيح فى اللغة شرح العلامة أبى عبد الله محمد ابن الطيب [ت ١١٧٠ هـ] : على نظم الفصيح للعلامة مالك بن عبد الرحمن

المعروف بابن المرحل [ت ٦٩٩هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من باب المفتوح أوله إلى باب المهموز ـ محمد محمد حسن البقرى ، ١٩٩٢ ، ١٠٥٤ صفحة . دكتوراه .

٨٦ - موطئة الفصيح لموطأ الفصيح فى اللغة شرح العلامة أبى عبد الله محمد ابن الطيب [ت ١١٧٠ هـ] : على نظم الفصيح للعلامة مالك بن عبد الرحمن المعروف بابن المرحل [ت ٦٩٩هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثالث من باب المهموز إلى آخر الكتاب ـ عيسى السيد المرسى ، ١٩٩١ ، ٨٤٤ صفحة . دكتوراه .

٨٧ - نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى : تحقيق ودراسة الجزء الأول ـ عيسى السيد المرسى ، ١٩٨٧ ، ٧٥٨ . ماجستير .

الأدب والنقد :

١- اختيار الممتع لعبد الكريم بن إبراهيم النهشلى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (الأدب فى ظلال الصنهاجيين) ـ محمد سلامة يوسف ، ١٩٧٦م ، ٢٦١ صفحة . دكتوراة .

٢- أدب ابن الوردى : تحقيق ودراسة ـ محمد مصطفى رضوان ، ١٩٨١م ، ١٠٦٧ صفحة . دكتوراه .

٣- الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (الشمشاطى وتحقيق كتابه الأنوار ومحاسن الأشعار) ـ عبد المحسن فراج سيف القحطانى ، ١٩٧٨م ، ١١٨٥ صفحة . دكتوراه .

٤- الأوائل لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى [ت نحو ٤٠٠هـ] : تحقيق ـ محمد جميل أحمد غازى ، ١٩٧٦م ، ٧٤٨ صفحة . دكتوراه .

٥- الإيضاح فى شرح مقامات الحريرى للمطرزي : تحقيق ودراسة ـ شاكر أبو اليزيد عبد الهادي ، ١٩٨٥م ، ١٧٧ صفحة . ماجستير .

٦- بديعية الفتح المبين فى مدح الأمين وشرحها لعائشة بنت أحمد الباعونية : تحقيق ودراسة ـ عبد العزيز عبد السلام محمد مخلوف ، ١٩٨٧م ، ٥٥١ صفحة . ماجستير .

٧- الجليس الصالح الكافى والأنيس الناصح الشافى للمعافى بن زكريا النهروانى : تحقيق الجزء الأول ضمن دراسة بعنوان (المعافى بن زكريا النهروانى وتحقيق الجزء الأول من كتابه الجليس الصالح الكافى والأنيس الناصح الشافى) ـ محمد محمد مرسى الخولى ، ١٩٧٢م ، ٦٠٥ صفحة . دكتوراه .

٨- حماسة أبى تمام : تحقيق مع دراسة لشروحها ـ عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ١٩٧٧م ، ١٤٧٧ صفحة . دكتوراه .

٩- ديوان أبى إسحاق الغزى [ت ٥٢٤هـ] : تحقيق ودراسة ـ عبد الرحمن محمد سالم ، ١٩٧٩م ، ٩٦٥ صفحة . دكتوراه .

١٠- ديوان أبو الحسن على بن محمد التهامى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (أبو الحسن على بن محمد التهامى حياته وشعره وتحقيق ديوانه) ـ محمد بن عبد الرحمن الربيع ، ١٩٧٧م ، ٣٢٢١ صفحة . دكتوراه .

١١- ديوان ابن دنييز : تحقيق ودراسة ـ محمود شاكر سعيد ، ١٩٨١م ، ١٢٠١ صفحة . دكتوراه .

١٢- ديوان الزمخشرى [ت ٥٣٨هـ] : تحقيق ودراسة لشعره ـ على عبد الله ، ١٩٧٩م ، ١٠٢٨ صفحة . دكتوراه .

١٣- ديوان ابن سوار الإسرائيلى : تحقيق ودراسة لحياته وشعره ـ محمود إبراهيم مصطفى ، ١٩٧٧م ، ٧١١ صفحة . دكتوراه .

١٤- ديوان أبو الفتح البستى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان أبو الفتح البستى وتحقيق ديوان شعره ـ محمد محمد مرسى الخولى ، ١٩٦٩م ، ٤٠٢ صفحة . ماجستير .

١٥- ديوان ابن المعلم : تحقيق ودراسة ـ مؤيد فاضل ملا رشيد ، ١٩٨٥م ، ٨١٤ صفحة . دكتوراه .

١٦- ديوان أبو الوفاء راجح شرف الدين الحلى : تحقيق ـ الدوكالى محمد نصر ، ١٩٧٩م ، ٩٥١ صفحة . دكتوراه .

١٧- شرح الصولى لديوان أبى تمام : تحقيق ودراسة ـ خلف رشيد نعمان ، ١٩٧٦م ، ٥٠١صفحة . دكتوراه .

١٨- شعر قبيلة بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى : جمعا ودراسة ونقدا ـ زكريا عبد الحميد عبد الهادى ، ١٩٩٠م ، ٦٦٨ صفحة . دكتوراه .

١٩- مجمع الأنوار فى شرح إظهار الأسرار للشيخ عمر العطار : تحقيق ـ سليم محمد سعيد ، ١٩٨٠م ، ٥٩٣ صفحة . ماجستير .

قسم البلاغة والنقد :

١- الأقصى القريب فى علم البيان للتنوخى [ت٧٤٨هـ]: تحقيق ودراسة ـــ أحمد مصطفى الخضراوى ، ١٩٧٩م ،٤٤٤ صفحة . ماجستير .

٢- إيضاح الإيضاح لجمال الدين محمد بن محمد الأقسرائى [ت٧٧١هـ]: تحقيق ودراسة الجزء الأول الخاص بعلم المعانى - فتحى أحمد إسماعيل ، ١٩٨٧م ، ٦٤٢ صفحة . دكتوراه .

٣- التبيان فى البيان للإمام الطيبى [ت٧٤٣] : تحقيق ودراسة - عبد الستار حسين مبروك ، ١٩٧٧م ، ٦٠٣صفحة . ماجستير .

٤- التحريرات فى بيان أقسام الاستعارات للشيخ سعد الدين منصور الطبلاوى [ت١٠١٤هـ] تحقيق ودراسة - عبد الله رجب سالم ، ١٩٨٨م ، ٤٩٧ صفحة . ماجستير .

٥- تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى يحيى بن قاسم العلوى [ت٧٥٠هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - إبراهيم عبد الحميد ، ١٩٨١م ، ١٣٥٢صفحة . دكتوراه .

٦- تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى يحيى بن قاسم العلوى [ت٧٥٠هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى ـ عبد الله محمد سليمان هنداوي ، ٥٦٧صفحة . دكتوراه .

٧- تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى يحيى بن قاسم العلوى [ت٧٥٠هـ] تحقيق ودراسة الجزء الثالث - مصطفى السيد مصطفى ، ١٩٨٩م ، ١٦٤٩صفحة . دكتوراه .

٨- تفسير ابن كمال باشا : تحقيق ودراسة الربع الأول ضمن دراسة بعنوان (البحث البلاغى فى تفسير ابن كمال باشا) ـ لطفى السيد صالح ، ١٩٨٧م ، ١٤١٠صفحة . دكتوراه .

٩- تفسير ابن كمال باشا : تحقيق ودراسة من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة الكهف ضمن دراسة بعنوان (المسائل البلاغية فى الربع الثانى من تفسير ابن كمال باشا) ـ محمد على هريدى ، ١٩٨٧م ، ٩٧٠ صفحة . دكتوراه .

١٠- تفسير ابن كمال باشا : تحقيق ودراسة من أول سورة مريم إلى آخر سورة النور ضمن دراسة بعنوان (المسائل البلاغية فى الربع الثالث من تفسير ابن كمال باشا) ـ

عبدالحافظ محمد عبد الحافظ ، ١٩٨٥م ، ٥٨٢ صفحة . ماجستير .

١١- التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع ، صلى الله عليه وسلم ، للشيخ عز الدين على ابن الحسين الموصلى [ت٧٨٩هـ] : تحقيق ودراسة ـ الشحات عبد المنعم جمعة ، ١٩٨٩م ، ٤٦٥ صفحة . ماجستير .

١٢- جامع العبارات فى تحقيق الاستعارات لأبى العباس أحمد مصطفى الطرودى الحنفى التونسى [ت١١٦٧هـ] : تحقيق ودراسة ـ محمد رمضان الحربى ، ١٩٧٨م ، ٨٩٩صفحة . دكتوراه .

١٣- حاشية البهلوان على تفسير الكشاف للزمخشرى : تحقيق ودراسة الجزأين الأول والثانى ــ صبحى رشاد عبد الكريم ، ١٩٨٥م ، ١٤٠٠صفحة . دكتوراه .

١٤- حاشية البهلوان على تفسير الكشاف للزمخشرى : تحقيق ودراسة من أول سورة النساء إلى آخر سورة الأنعام ضمن دراسة بعنوان (المسائل البلاغية فى حاشية البهلوان) ــ عبد الله على محمد حسن ، ١٩٨٧م ، ٩٤٢صفحة . دكتوراه .

١٥- حاشية الشيخ يوسف بن سالم الحفناوى على مختصر التفتازانى : تحقيق ودراسة ــ فرج كامل أحمد سليم ، ١٩٧٨م ، ١١٣٢صفحة . دكتوراه .

١٦- حاشية العلامة سعد الدين التفتازانى على تفسير الكشاف للزمخشرى : تحقيق الجزء الأول ــ عبد الفتاح عيسى البربرى ، ١٩٧٨م ، ٩٩٩ صفحة . دكتوراه .

١٧- حاشية العلامة سعد الدين التفتازانى على تفسير الكشاف للزمخشرى : تحقيق الجزء الثانى مع العرض و التحليل و النقد ـ فوزى السيد عبد ربه ، ١٩٧٩م ، ١١٣٩صفحة . دكتوراه .

١٨- حاشية قطب الدين محمد بن محمد التحتانى الرازى [ت ٧٦٦هـ] : على تفسير الكشاف : تحقيق ودراسة الجزء الأول ـ إبراهيم طه أحمد الجعلى ، ١٩٨١م ، ١٢٧٢صفحة . دكتوراه .

١٩- حاشية قطب الدين محمد بن محمد التحتانى الرازى [ت ٧٦٦هـ] : على تفسير الكشاف : تحقيق ودراسة الجزء الثانى ــ أيوب عبد العزيز أيوب ، ١٩٨١م ، ١٥٦٦ صفحة . دكتوراه .

٢٠ - حاشية كشف الكشاف على تفسير الكشاف للزمخشرى للعلامة سراج الدين عمر بن عبد الرحمن الفارسى : تحقيق ودراسة الجزء الأول ــ محمد محمود عبد الله السلمان ، ١٩٨١م ، ١٢٤٠ صفحة . دكتوراه .

٢١- حاشية كشف الكشاف على تفسير الكشاف للزمخشرى للعلامة سراج الدين عمر بن عبد الرحمن الفارسى : تحقيق الجزء الثانى مع العرض والتحليل والنقد - محمد حمدى على عبد العاطى ، ١٩٨٩م ، ١٩٤٧ صفحة . دكتوراه .

٢٢- حدائق السحر فى دقائق الشعر لرشيد الدين محمد العمرى الكاتب البلخى المعروف بالوطواط [ت٥٧٣هـ] : تحقيق ودراسة - إبراهيم على حسن داود ، ١٩٨١م ، ٦٧٦ صفحة . دكتوراه .

٢٣- درر العبادات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات للعالم الفاضل أحمد بن مكى الحسنى الحموى [ت١٠٩٨هـ] : تحقيق ودراسة - عبد الحكيم محمد إبراهيم ، ١٩٨٢م ، ٣٠٨ صفحة . ماجستير .

٢٤- الرسائل البلاغية لشمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا : تحقيق ودراسة - لطفى السيد صالح قنديل ، ١٩٨٣م ٤٥٩ صفحة . ماجستير .

٢٥- روضة الفصاحة لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر [ت ٦٦٠هـ] : تحقيق ودراسة - محمود محمد السيد حسن ، ١٩٨٣م ٤٤٣ صفحة . ماجستير .

٢٦- شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين محمد بن محمد محمود بن أحمد البابرتى [ت٧٨٦هـ] : تحقيق ودراسة - محمد مصطفى رمضان ، ١٩٧٩م ، ٧١٦ صفحة . دكتوراه .

٢٧- شرح المؤذنى لعلم المعانى من مفتاح العلوم : تحقيق ودراسة - سعد البسيونى سعيد ، ١٩٨٤م ، ٧٦٢ صفحة . دكتوراه .

٢٨- طراز الحلة وشفاء الغلة فى شرح بديعية ابن جابر للعلامة شهاب الدين أحمد ابن يوسف الغرناطى الأندلسى : تحقيق ودراسة القسم الثانى - العادلى محمد أحمد سليمان ، ١٩٨٥م ، ٧٤٥ صفحة . ماجستير .

٢٩- الغريب الجامع الرائع لابن المقرى شرف الدين أبو محمد : تحقيق - عادل محمد الأكرت ، ١٩٨٧م ، ٣٠٣ صفحة . ماجستير .

٣٠- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى والمسمى علم المعانى فى تفسير القرآن الكريم : تحقيق - فتحى عبد الرحمن أحمد حجازى ، ١٩٩٤م ، ٧٢٦صفحة . دكتوراه .

٣١- فتح منزل المثانى بشرح أقصى الأمانى فى علم البيان والبديع والمعانى لشيخ الإسلام أبى يحيى زكريا بن محمد بن أحمد الأنصارى : تحقيق ودراسة - محمد عبد الحليم الجيلانى ، ١٩٨٧م ، ٥٤٧صفحة . ماجستير .

٣٢- قانون البلاغة للشيخ العلامة فخر الدين أبو طاهر البغدادى : تحقيق ودراسة ـ أمان الله سيد أحمد ، ١٩٧٨م ، ١٦٣ صفحة . ماجستير .

٣٣- المصباح للسيد الشريف الجرجانى : تحقيق وعرض ونقد ـ فريد محمد بدوى ، ١٩٧٧م ، ١١٩٣ صفحة . دكتوراه .

٣٤- مفتاح تلخيص المفتاح للعلامة شمس الدين محمد بن مظفر الخطيبى الخلخانى : تحقيق ودراسة ـ هاشم محمد هاشم ، ١٩٨٠م ، ٨٨٨ صفحة . دكتوراه .

٣٥- المفتاح لسعد الدين التفتازانى : تحقيق ودراسة القسم الثالث ضمن دراسة بعنوان (بلاغة سعد الدين التفتازانى فى كتابه المفتاح) ـ رأفت إسماعيل غانم ، ١٩٨٣م ، ١٤١٨ صفحة . دكتوراه .

٣٦- النتائج الألمعية فى شرح الكافية البديعية لصفى الدين الحلى : تحقيق ودراسة ـ فتحى أحمد إسماعيل حسن ، ١٩٨٣م ٣٥٢ صفحة . ماجستير .

٣٧- نحور الحور المقصورات على عقود السمرقندى فى الاستعارات للعالم الفاضل محمد بن محمد البديرى : تحقيق ودراسة ـ عبد الجواد محروس المطحنة ، ١٩٨٦م ، ٢٠٠ صفحة . ماجستير .

التاريخ والحضارة :

١ - إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى لشمس الدين الصنهاجى السيوطى : تحقيق ودراسة تاريخية ـ عبد الرحمن سعيد حمودة ، ١٩٨٧ ، ٤٥٩ صفحة . دكتوراه .

٢ - إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن لمحمد بن على بن فضل الطبرى [ت ١١٧٣هـ] : تحقيق الجزء الأول ـ محمد محسن سليم ، ١٩٨٤ ، ٥٨٢ صفحة . دكتوراه .

٣ - الأوراق لأبى بكر الصولى : تحقيق القطعة الثانية والتي تشتمل على الفترة التاريخية من ٢٩٥ إلى ٣١٨هـ ـ محمد نيسان سليمان مناع ، ١٩٧٩ ، ٦٤٢ صفحة . دكتوراه .

٤ - تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لتقى الدين عبد الرحمن المحبى : تحقيق ـ عبد الرحمن أمين صادق ، ١٩٧٩ ، ٤٩٠ صفحة . ماجستير .

٥ - التحفة الملوكية فى الدولة التركية لبيبرس المنصورى الدوادار . تحقيق ودراسة ـ

عبد الله إبراهيم محمد راجح ١٩٨٨ ، ٦٩٧ صفحة . دكتوراه .

٦ - شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب لأحمد بن إبراهيم بن نصر الله الحنبلى القاهرى [ت ٨٧٦هـ] : تحقيق ودراسة - على عبد السلام محمد عيسى ، ١٩٩٠ ، ٦٤٩ صفحة ، دكتوراه .

٧ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى [ت ٨٥٥هـ] : تحقيق ودراسة الفترة من ٧٨٤ هـ إلى ٨٠١هـ - محمد عبد الحميد راغب إبراهيم ، ١٩٨٩ ، ٦٨٤ صفحة . دكتوراه .

٨ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى [ت ٨٥٥هـ] : تحقيق وتقديم ودراسة الفترة من ٨٢٤هـ إلى ٨٥٠هـ - عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، ١٩٨٠ ، ٨٤٧ صفحة . دكتوراه .

٩ - عيون أخبار الرضا لمحمد بن على بن الحسين بن بابويه [ت ٣٨١ هـ] : تحقيق ودراسة - عبد الله العلى السند ، ١٩٨٦ ، ٧٦٤ صفحة . دكتوراه .

١٠ - فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر لابن بهادر [ت ٨٧٧هـ] : تحقيق الفترة التاريخية من ٥٦٣هـ إلى ٦٥٢هـ ضمن دراسة بعنوان (محمد بن بهادر وكتابه فتوح النصر) - محسن سعد عبد الله ، ١٩٨٣ ، ٤٥٣ صفحة . ماجستير .

١١ - فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر لابن بهادر [٨٧٧هـ] : تحقيق دراسة الفترة من ٦٥٢هـ إلى ٧٥١هـ - سمير عبد الفتاح رزق خلف ، ١٩٩٠ ، ١٣٥٣ صفحة . دكتوراة .

١٢ - المقفى الكبير للمقريزى [ت ٨٤٥هـ] : تحقيق الجزء الأول ضمن دراسة بعنوان (المقريزى مؤرخ مصر) - محمد أحمد عيسى عاشور ، ١٩٧٤ ، ٦٣٤ صفحة . دكتوراه .

١٣ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى [ت ٥٩٧هـ] : تحقيق الفترة التاريخية ما بين حوادث ١٩٨هـ إلى ٢٣٢هـ - محمد الشيخ عبد الوهاب فضل ، ١٩٧٩ ، ٦٥٦ صفحة . دكتوراه .

من أخبار التراث

إعداد: حسام عبد الظاهر*

● ذكرنا فى العدد السابق من تراثيات ، نقلاً عن بعض الكتابات الصحفية أن المحقق الكبير الدكتور إحسان عباس توفى يوم الإثنين ٢٠٠٣/٧/٢٨م ، وقد قام الأستاذ عصام الشنطى خبير المخطوطات المعروف بضبط هذا التاريخ فذكر لنا أن صحيح وفاته هو الساعة السابعة مساء يوم الثلاثاء ٢٩ يوليو ٢٠٠٣ ، الموافق ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٤٢٤هـ فى عمان بالأردن ، ولذا لزم التنويه مع خالص الشكر للأستاذ الشنطى ، متعه الله بالصحة والعافية .

● خلال شهر يناير الماضى وصلنا البيان الخاص بجائزة مجمع اللغة العربية فى تحقيق التراث العربى لسنة ٢٠٠٣/٢٠٠٤ . وهى جائزة سنوية قيمتها ١٠ر٠٠٠ (عشرة آلاف جنيه مصرى) تمنح لأجود نص منشور يقدم إليها من التراث العربى ، يُنشر لأول مرة محققا تحقيقًا منهجيًا وذلك بالشروط الآتية :

١ ـ أن يكون العمل المقدم فى متن اللغة العربية ، أو فى فقهها ، أو فى نص من نصوصها الأدبية شعراً أو نثراً ، وأن يكون النص المحقق كاملاً إلا إذا لم يكن موجوداً منه إلا العمل المقدم .

٢ ـ تعد النصوص من التراث العربى إذا كانت مؤلفة قبل نهاية القرن الثانى عشر الهجرى .

٣ ـ ألا يقل النص المحقق عن عشرين ملزمة ، من ذات الست عشرة صفحة ، ولا تحسب فيها المقدمة ولا الفهارس .

٤ ـ ألا يكون العمل المقدم قد سبق تحقيقه ونشره من قبل تحقيقاً منهجيًا .

٥ ـ ألا يكون النص المحقق من منشورات مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

٦ ـ ألا يكون النص المقدم للجائزة قد نال جائزة من قبل من أية جهة .

٧ ـ يجوز أن يكون العمل المقدم من تحقيق فرد أو أكثر ، كما يجوز أن يشارك المحقق أو المحققين ـ مراجع أو أكثر .

٨ ـ ألا يكون العمل المقدم قد مضى على نشره ـ أو نشر آخر أجزائه إذا كان ذا أجزاء ـ أكثر من خمس سنوات .

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

٩ ـ أن يكون العمل المقدم جيد الطباعة ، حسن الإخراج .
١٠ـ أن يقدم المتسابق سبع نسخ من العمل المحقق إلى المجمع باسم الدكتور (الأمين العام للمجمع) وليس له الحق فى استردادها .
١١ـ باب المسابقة مفتوح للمحققين المصريين وغيرهم .

● وفى يوم الثلاثاء ٢٠ يناير ٢٠٠٤م عقد مركز تحقيق التراث ندوته الخامسة فى موسمه الثقافى هذا العام ، ودارت حول أحد رواد تحقيق التراث التاريخى وهو المؤرخ (عزيز سوريال عطية) . وقد تحدث فى الندوة : الأستاذ نسيم مجلى ، والذى ألقى ورقة بعنوان (الدكتور عزيز سوريال عطية ودوره فى تحقيق المخطوطات) . كما تحدث الدكتور عماد أبو غازى عن وثائق دير سانت كاترين ، والتى قام الدكتور سوريال عطية بفهرستها . وقد أدار الندوة الدكتور حسنين محمد ربيع والذى شارك أيضاً فى الحديث عن المُحتفى به بورقة عنوانها (سطور من حياة المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية) . وعلى هامش الندوة قامت الإدارة المنظمة بتوزيع كتيب بعنوان (المؤرخ المصرى عزيز سوريال عطية ١٨٩٨ ـ ١٩٨٨م) قام بإعداده أحد باحثى مركز تحقيق التراث ؛ وهو يضم موجزاً لحياة عزيز سوريال عطية وببليوجرافيا بمؤلفاته وتحقيقاته ومختارات من كتاباته .

● وفى الفترة من السبت ٢٤ يناير إلى الخميس ٢٩ يناير ٢٠٠٤م عُقدت الدورة التدريبية وورشة العمل فى مجال التفكير العلمى وتاريخ العلوم ، وذلك بالتعاون بين مركز دراسات التراث العلمى بجامعة القاهرة ، ومركز تاريخ العلوم والإبستيمولوجيا بجامعة ليل بفرنسا ، ومن أهم الأوراق المقدمة فى هذه الدورة :

- أهمية التراث العلمى ، للدكتور أحمد فؤاد باشا .
- علم المخطوطات ، للدكتور أيمن فؤاد سيد .
- تاريخ علوم النبات والزراعة ، للدكتور كمال الدين البتانونى .
- مناهج التاريخ وتاريخ العلوم ، للدكتور حسنين ربيع .
- تاريخ نظريات الضوء من الفترة العربية إلى القرن العشرين الأوروبى ، للدكتور برنارميت .
- تاريخ علم الجبر الكلاسيكى ، للدكتور أحمد جبار .
- مناهج تحقيق التراث ، للدكتور حسين نصار ، والدكتور أيمن فؤاد سيد .

ومن ورش العمل فى هذه الدورة التدريبية :

- ورشة عن (فهرسة المخطوطات) بإدارة الدكتور عبد الستار الحلوجى .
- ورشة عن (ترجمة مصطلحات التراث العلمى) بإدارة الدكتور برنارميت والدكتور أحمد جبار .
- ورشة عن (الخط العربى وفنون كتابة المخطوطات) بإدارة الدكتور عبد الفتاح غنيمة .

● وفى يوم الخميس ١٢ فبراير ٢٠٠٤م وفى إطار فعاليات سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بجامعة عين شمس ، ألقى الدكتور عبد الحميد حمودة بحثًا عن (عقوبة التشهير أو التجريس فى مدينة القاهرة زمن الفاطميين) .

● وفى يوم الثلاثاء ١٧ فبراير ٢٠٠٤م عُقدت ندوة (صلاح الدين المنجد) وذلك ضمن ندوات الموسم الثقافى الثالث لمركز تحقيق التراث ، وقد تحدث فى الندوة الدكتور فيصل الحفيان بكلمة عنوانها (صلاح الدين المنجد فارس لم يترجل يومًا) ، كما تحدث الأستاذ عصام الشنطى عن (جهود المنجد فى خدمة التراث) . وأدار الندوة الدكتور عبد الستار الحلوجى . وقد شارك المركز فى هذا الاحتفاء العلمى - بجانب تنظيمه للندوة - بطبع كتيب تعريفى بعنوان (سندباد المخطوطات صلاح الدين المنجد) قام بإعداده أحد باحثى المركز ، وتم توزيعه على الجمهور فى الندوة .

● وفى يوم الخميس ١٩ فبراير ٢٠٠٤م وفى إطار سيمنار التاريخ العثمانى بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ألقيت عدة بحوث منها :

- السيرة الذاتية الصوفية ورؤيتها لعلاقة الفرد بالمجتمع فى القرن السادس عشر (فى ضوء كتاب لطائف المنن للشعرانى) ، للدكتور سامى سليمان .
- الفرد والفلك فى القرن الثامن عشر (رضوان أفندى الفلكى) ، للدكتور صبرى العدل

● وخلال الفترة من بداية شهر مارس إلى منتصف شهر إبريل ٢٠٠٤م قام المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة بتنظيم معرض (عندما تكلم العلم بالعربية) ، باللغتين العربية والفرنسية ، وهو يتكون من لوحات تقديم وتجارب علمية وصور لمقتنيات وآثار تتحدث عن العلم العربى فى القرون الوسطى .

● وفى يوم الأربعاء ٣ مارس ٢٠٠٤م عُقدت الجلسة الرابعة لسيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية وأُلقى فيها بحثان هما :

- الوليد بن عقبة بن أبى معيط والى الكوفة المفترى عليه ، للدكتور أحمد عبد اللطيف .
- الخلع فى الأندلس ، للدكتورة ناريمان عبد الكريم .

● وفى يوم الثلاثاء ٩ مارس ٢٠٠٤م قام المعهد الثقافى الإيطالى بالقاهرة بتنظيم لقاء مع الدكتور جوزيى سكاتولين حول موضوع (الشعر الصوفى لعمر بن الفارض الملقب بأمير العشاق) كما تم عرض فيلم تسجيلى وثائقى عن الشاعر والاحتفالات به فى مصر .

● وفى يوم الثلاثاء ١٦ مارس ٢٠٠٤ واصل مركز تحقيق التراث احتفالياته بشوامخ المحققين فعقد ندوة عن المستشرق الألمانى (جوستاف فلوجل) تحدث فيها الدكتور عفت الشرقاوى عن (فلوجل بين المستشرقين) ، كما تحدث الدكتور محمد عونى عبد الرؤوف عن تحقيق فلوجل لكتاب الفهرست لابن النديم . أدار الندوة الدكتور عبد الستار الحلوجى .

● وفى نفس اليوم [١٦ مارس] نظمت جمعية المكتبات والمعلومات بالسعودية بالتعاون مع مكتبة الملك فهد الوطنية ضمن أنشطتها الثقافية لهذا العام محاضرة بعنوان (التوثيق والتزوير فى المخطوطات والوثائق) ألقاها الدكتور قاسم السامرائى .

● وفى يوم الخميس ١٨ مارس ٢٠٠٤م ألقت الدكتورة ناريمان عبد الكريم بحثًا بعنوان (الخلع فى مصر الفاطمية) وذلك ضمن فعاليات سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بجامعة عين شمس ، وأدار اللقاء الدكتور محمد مؤنس عوض .

● وفى يوم الأحد ٢١ مارس ٢٠٠٤م بالسعودية تم تنظيم حفل تسليم جائزة الملك فيصل العالمية السادسة والعشرين لعام ١٤٢٤هـ للفائزين بها بفروعها المختلفة : خدمة الإسلام ، والدراسات الإسلامية ، والأدب العربى ، والعلوم ، والطب . ومن الجدير بالذكر أن جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية ، وموضوعها هذا العام (الدراسات التى عنيت بالقواعد الفقهية) فاز بها مناصفة الدكتور على أحمد غلام ندوى (الهندى الجنسية) تقديرًا لجهوده القيمة فى استخراج القواعد الفقهية فى المعاملات المالية من المصادر الأصيلة وربطها بالحاضر المعاصر بصورة تفصيلية مبتكرة . والدكتور يعقوب عبد الوهاب الباحسين (السعودى الجنسية) لجهوده فى مجال القواعد الفقهية وما اتسمت به كتاباته من تأصيل وتجديد .

أما جائزة الملك فيصل للغة العربية والأدب ، وموضوعها هذا العام : (الدراسات التى تناولت التدوين اللغوى إلى نهاية القرن الخامس الهجرى) فقد فاز بها الدكتور حسين محمد نصار (المصرى الجنسية) تقديرًا لإسهامه العلمى الرائد فى مجال الدراسات المعجمية ، وما

تميزت به كتاباته من غزارة العلم ، وسعة الاطلاع ، والنظرة الشمولية لتطور التدوين اللغوى عامة والمعجم العربى على نحو خاص .

- وخلال شهر مارس قام مركز تحقيق التراث بإصدار أعمال الموسمين الثقافيين الأول والثانى فى مجلد خاص ، قام بالتقديم له الدكتور حسين نصار المستشار العلمى للمركز . وقد ضم هذا المجلد الأبحاث التى قدمت فى احتفاليات الشوامخ وهى :
  - أحمد تيمور باشا ، للدكتور حسين نصار .
  - الخزانة التيمورية ، للدكتور محمد فتحى عبد الهادى .
  - الأستاذ عبد السلام هارون (نظرات فى حياته وأعماله) للدكتور على أبو المكارم .
  - محمود محمد شاكر وجهوده فى تحقيق التراث ، للدكتور محمود على مكى .
  - الدكتور محمد مصطفى زيادة ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
  - محمد مصطفى زيادة (منهج تحقيق التراث التاريخى) ، للدكتور حسنين محمد ربيع .
  - أحمد زكى باشا شيخ العروبة ، للدكتور حسين نصار .
  - الخزانة الزكية ، للدكتور محمد فتحى عبد الهادى .
  - بنت الشاطئ ، للدكتور حسن جبر .
  - جهود الشيخ أحمد محمد شاكر فى تحقيق التراث الإسلامى ، للدكتور محمد إبراهيم عبد الرحمن .
  - المستشرق أنطونى بيڤان ، للدكتور محمد عونى عبد الرؤوف .
  - من شوامخ المحققين الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، للدكتور حسنين محمد ربيع .
  - السيد أحمد صقر ومنهجه فى التحقيق ، للدكتور عادل سليمان .

- وفى خلال هذا الشهر[مارس ٢٠٠٤] أعلنت المنظمة العربية للتنمية الإدارية عن طرح موسوعة ضخمة توثق أسس ومبادئ الإدارة العربية والإسلامية عبر ٤٢٥٠ صفحة فى ٧ مجلدات تجمع أسس الإدارة العربية الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ وحتى سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م . وقد تم إعداد الموسوعة بمشاركة ٣٤ خبيراً عربياً وإسلاميًا .

- فى الأسبوع الأول من شهر إبريل ٢٠٠٤م بدأ التشغيل التجريبى لموقع اليونسكو الجديد على شبكة الإنترنت ، الخاص بالتراث العربى ، تحت اسم :

www. Unesco - Cairo. Org/Adhpotal

ويمكن الوصول إليه أيضًا بعنوان : www. Arabic - Heritage. Com

أو بعنوان : Arabcivilization. Com

ويشتمل هذا الموقع على مئات الصفحات التى تعكس الأفق الحضارى للثقافة العربية الإسلامية ، من خلال أبواب مثل : القباب والمآذن ، مشاهد من مدن الإسلام ، الخريطة التراثية للمخطوطات فى العالم - وهى خريطة يمكن من خلالها التعرف على كنوز التراث العربى فى ١٦ مدينة كبرى بالعالم ، بالإضافة إلى عدة أبواب ومداخل منها محرك بحث عن المخطوطات ، ويمكن من خلاله الوصول إلى البيانات الوصفية الكاملة لأكثر من خمسة آلاف مخطوطا نادر . ويعمل الموقع باللغتين العربية والانجليزية . وقد قام بإنشاء هذا الموقع بتكليف من اليونسكو الدكتور يوسف زيدان خبير المخطوطات المعروف .

● وفى يوم الإثنين ٥ إبريل ٢٠٠٤م عُقدت ندوة عن (الدكتور محمد سليم سالم ١٩٠٤ - ١٩٩٣م) بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، ومن الأوراق المرتبطة بالتراث العربى والتى قدمت فى هذه الندوة :

- التراث والإنسان ، للدكتورة علية حنفى .
- تحقيق التراث العربى اليونانى (الدكتور محمد سليم سالم نموذجاً) ، لحسام عبد الظاهر الباحث بمركز تحقيق التراث .

● وفى يومى السبت والأحد ١٧و١٨ إبريل ٢٠٠٤م نظمت مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية (بالمغرب) مؤتمرا بعنوان (العلم فى المجتمعات الإسلامية ، الاتجاهات والمنظور المستقبلى) ، شارك فيه نخبة من الباحثين من دول مختلفة . وقد علمنا أن الدكتور يوسف زيدان شارك فى هذا المؤتمر ببحث عنوانه (الطرد المغربى للعلم العربى فى القرنين السابع والثامن الهجريين) يركز فيه على الأثر الذى أحدثته هجرة العلماء من المغرب إلى منطقة الشام وكيف أثروا فى العلم العربى .

● وفى الفترة ١٨ - ٢٠ إبريل ٢٠٠٤م نظمت جامعة حلوان بالتعاون مع جامعة الصداقة بموسكو مؤتمراً عن (ظاهرة العنف وانتشار الإرهاب) ومن الأبحاث التراثية المقدمة فى هذا المؤتمر :

- الكتب المقدسة والعنف فى التاريخ ، للدكتورة أولجا أندرييفا .
- المرأة والعنف فى الدولة الأموية ، للدكتور نعمة على مرسى .
- الإرهاب فى العصر الأموى فى الأندلس ، للدكتور صلاح خليل .
- الإرهاب فى الدولة الفاطمية ، للدكتور أحمد التونى .
- تصوير العنف فى الفن الإسلامى ، للدكتور رفعت موسى .

● وفى يوم الثلاثاء ٢٠ إبريل ٢٠٠٤م نظم مركز تحقيق التراث بالتعاون مع دار الكتب والوثائق القومية - فى إطار موسمه الثقافى - احتفالية ضخمة بالدكتور حسين نصار - المشرف العلمى لمركز تحقيق التراث - بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية فى اللغة والأدب . وعقدت الندوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بدار الكتب والوثائق القومية . وقد شارك فى هذه الاحتفالية كثير من الأساتذة الدكاترة سواء بالتحدث أو الحضور . وممن شارك فى الحديث عن الدكتور نصار : الأساتذة الدكاترة أحمد مرسى ، ورفعت هلال ، وجابر عصفور ، وعبدالستار الحلوجى ، وكمال البتانونى ، وعفت الشرقاوى ، وحسنين ربيع ، ومحمد عونى عبد الرؤوف ، وسيد البحراوى ، ووفاء كامل ، وعبد الحكيم راضى ، وسيدة حامد عبد العال . . . وغيرهم ، وممن تحدث من باحثى مركز تحقيق التراث الأستاذين مرزوق على إبراهيم ، وعشرى محمد على . وقام مركز تحقيق التراث بإعداد طبعة خاصة بالاحتفالية لكتابين من تحقيق الدكتور نصار وهما : العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى ، وكتاب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة لابن سعيد ، وقام بالتقديم للكتابين الدكتور أحمد مرسى رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية . كما قام ثلاثة من باحثى المركز بإعداد كتاب عنوانه (الأستاذ الدكتور حسين نصار ببليوجرافية بأعماله ومختارات من كتاباته) تم إهداؤه لجمهور الاحتفالية . وعلى هامش الاحتفالية نظم مركز تحقيق التراث معرضاً لكتب الدكتور حسين نصار بدار الكتب . وفى نهاية الاحتفالية أهدى العاملون بدار الكتب هدية تذكارية للدكتور نصار اعترافاً منهم بدوره فى النهوض بمركز تحقيق التراث بدار الكتب .

● فى يومى الثلاثاء والأربعاء ٢٠ - ٢١ إبريل ٢٠٠٤ ، نظمت كلية دار العلوم بجامعة القاهرة مؤتمرها الدولى التاسع للفلسفة الإسلامية والذى دار هذا العام عن (علم الكلام بين التقليد والتجديد) ، وقد شارك فى المؤتمر باحثون من مصر والسودان ، وليبيا ، والسعودية ، والكويت ، وقطر ، والإمارات ، وماليزيا . ومن الأبحاث المقدمة فى المؤتمر :

- نحو علم كلام جديد(القضايا والمنهج) ، للدكتور محمد السيد الجليند .
- مكانة العقل فى علم الكلام ، للدكتور محمد المسير .
- القرآن الكريم وتنمية الوعى بالتاريخ ، للدكتور أبو اليزيد العجمى .
- ترجمة الفلسفة اليونانية وأثرها فى علم الكلام ، للدكتور محمد صالح محمد السيد .
- الشاطبى بين كتابيه «الموافقات» و«الاعتصام» ، للأستاذ محمد الدسوقى .
- منهج التجديد الدينى عند عبد القاهر الجرجانى ، للأستاذ سمير أبو زيد .
- من تراثنا الكلامى - دور المتكلم فى إسهامات اليهود الإسلامية ، للدكتور حسن كامل إبراهيم .
- مفهوم النص عند ابن حزم وأثره فى حل قضية الذات والصفات ، للدكتور خالد السيوطى .
- منهج علماء الحديث النبوى فى حوار الأديان والأمم السابقة فى ضوء نقدهم لمرويات الإسرائيليات وكتب الطب النبوى ، للدكتور خيرى قدرى .
- الأصول الكلامية لنظرية البيان فى البلاغة العربية ، للدكتور عبد الرحيم الكردى .
- منهج المتكلمين فى حوار أهل الأديان ودوره فى تأسيس علم كلام جديد ، للدكتور سلامة عبد العزيز .

● وفى الفترة ٢٦ - ٢٨ إبريل ٢٠٠٤م دارت فعاليات مؤتمر (واقع الدراسات اللغوية فى مصر) والذى نظمه قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة القاهرة . ومن الأبحاث المقدمة لهذا المؤتمر :

- البحث المعجمى فى مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين ، للدكتورة وفاء كامل .
- إشكالية المنهج فى الدراسات اللغوية فى مصر ، للدكتور محمد العبد .
- اللغة العربية المعاصرة فى آثار الدارسين ، للدكتور محمد حسن عبد العزيز .
- الدراسات المعاصرة للتراث النحوى ، للدكتور حسام أحمد قاسم .
- تطور دراسة تاريخ اللغة العربية ، للدكتور محمد الشرقاوى .
- التذكير والتأنيث بين القديم والحديث ، للدكتور محمد أحمد خضير .

● وخلال الفترة ٢٧ - ٢٩ إبريل ٢٠٠٤م نظمت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مؤتمرها السنوى والذى دار هذا العام عن (الفكر العربى عبر العصور بين الأصالة

والإبداع) ومن الأبحاث المقدمة فى المؤتمر :

- الفلسفة العربية بين ماضيها المزدهر وحاضرها المظلم ، للدكتور عاطف العراقى .
- مستقبل الفكر الفلسفى العربى فى عالم متغير (الإشكال والحل) ، للدكتور حسن حنفى .
- الفكر العربى بين النص والاجتهاد ، للمستشار طارق البشرى .
- مصر الإسلامية أم مصر العربية ، للدكتور أيمن فؤاد سيد .
- عروبة مصر فى فكر جمال حمدان ، للدكتور عبادة كحيلة .
- أرقامنا العربية الأصيلة قضية تاريخية علمية ثقافية ، للدكتور محمد يونس الحملاوى .
- تاريخ الفكر الجغرافى وتطوره ، للدكتور نعيم سلمان بارود .
- المصطلح فى الفكر العربى (دراسة مقارنة بين العقل العربى والعقل الأوربى) ، للدكتور عبد الكريم مدون .
- من خصائص التقليد والإبداع والتأليف العربى والإسلامى ، للدكتور كمال عرفات نبهان .
- الفكر الأشعرى وأثره فى مصر فى العصر الأيوبى ، للدكتورة نجوى كمال كيرة .
- موقف الفكر الدينى من العلاقات التجارية بين المسلمين والفرنجة الصليبيين فى عهد الدولة الأيوبية ، للدكتور رياض شاهين .
- الحوار مع الآخر فى الثقافة العربية الإسلامية ، للدكتور أحمد عتمان .
- ابن حزم الأندلسى (فكره الإصلاحى والنهضوى) ، للدكتور محمود إسماعيل .
- فضل الثقافة العربية على العقل اليهودى قبل قيام إسرائيل وبعده ، للدكتور محمد محمود أبوغدير .
- قراءة جديدة للتراث (عهد عمر قراءة جديدة) نموذجًا ، للأستاذ العفيف الأخضر .

- وفى يوم الثلاثاء ٤ مايو ٢٠٠٤م عقدت ندوة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن (الأرمن فى مصر فى العصر الفاطمى) حاضرت فيها الدكتورة سيتا بادويان ، أدار الندوة الدكتور قاسم عبده قاسم ، وعقب على المحاضرة الدكتور أيمن فؤاد سيد .

- وفى يوم الأربعاء ٥ مايو ٢٠٠٤م عُقدت جلسة شهر مايو من سمينار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية وقد قدمت فيها الأبحاث الآتية :

- نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية ، للدكتور محمد مؤنس عوض .
- العبيد السود فى المغرب منذ بداية القرن الثالث إلى منتصف القرن السادس الهجرى ، للدكتور عبد الحميد حمودة .
- البحرية الإسلامية فى الأندلس فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، للدكتورة يمنى رضوان .

● وفى يوم الإثنين ١٠ مايو ٢٠٠٤م ألقى ستيفان بارادين عضو الهيئة العلمية بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بحثًا بعنوان (أسوار القاهرة من الفاطميين إلى صلاح الدين الأيوبى) وذلك بمقر المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة .

● وفى يوم الثلاثاء ١٨ مايو ٢٠٠٤م جرت فعاليات الندوة الأخيرة فى الموسم الثقافى لمركز تحقيق التراث هذا العام ، ودارت حول المستشرق الفرنسى (لويس ماسينيون) . تحدث فيها الدكتور عفت الشرقاوى عن (لويس ماسينيون والعولمة الروحية) ، كما تناول الدكتور عبد الحميد مدكور فى حديثه (لويس ماسينيون وتحقيق التراث) . أدار اللقاء الدكتور محمد عونى عبد الرؤوف . وبجانب تنظيمه لهذه الندوة قام مركز تحقيق التراث بطبع كتيب تعريفى بعنوان (لويس ماسينيون ١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م) قام بإعداده أحد باحثى المركز ، وتم توزيعه على جمهور الحاضرين فى الندوة .

● وفى يوم الأحد ٢٣ مايو ٢٠٠٤م عُقدت ندوة عن الاستشراق الألمانى المعاصر بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حاضر فيها الدكتور أحمد هويدى .

● وفى نفس اليوم [الأحد٢٣ مايو] نظم المركز الثقافى الإيطالى بالقاهرة احتفالية كبيرة بمناسبة صدور الترجمة العربية لكتاب المستشرق الإيطالى ميكيل أمارى(تاريخ مسلمى صقلية) والذى صدر فى ثلاثة أجزاء ضخمة . وقد تحدث فى هذه الاحتفالية : أنطونيو بادينى سفير إيطاليا بالقاهرة ، والدكتور جوزيبى كونتو ، والدكتور إسحق عبيد ، والدكتور محمد مؤنس عوض ، والدكتور محب الدين سعد . وقامت بإدارة الاحتفالية الدكتورة أديليا ريسبولى مديرة المعهد الثقافى الإيطالى .

● وفى اليوم التالى[الإثنين ٢٤ مايو] ألقى الدكتور يوسف زيدان مدير المخطوطات بمكتبة الإسكندرية بحثا بعنوان (مخطوطات العراق مُدَمَّرة) وذلك أمام مؤتمر الجمعية الأوربية

للمكتبات (مالكوم) ، والذى عُقد بمدينة ميونيخ الألمانية .

- وخلال الفترة من ٢٩ مايو إلى ١ يونيو ٢٠٠٤م نظم المجلس الأعلى للثقافة فى مصر مؤتمراً ضخماً عنوانه (الترجمة وتفاعل الثقافات) ألقيت فيه على مدار أيامه الأربعة مائة بحث ومن هذه الأبحاث :

- دور الترجمة فى النهوض بالأمة ، للأستاذ محمد محمد عتريس .
- الترجمة فى إطار التنمية ، للدكتور محمد يونس الحملاوى .
- الترجمة تفاعل حضارى ثقافى ، للدكتور مدحت الجيار .
- مصادر يونانية مفقودة حفظتها الترجمات العربية فى العصور الوسطى ، للدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى .
- الترجمة جسر تواصل بين الثقافات ، للأستاذ صالح عالمانى .
- أنا مارى شيميل نموذج للتفاعل الخلاق ، للدكتور محمد السعيد جمال الدين .
- فكر إقبال وأثره فى توضيح سماحة الإسلام ، للدكتور حازم محفوظ .
- ترجمة معانى القرآن الكريم ، للدكتورة نجوى عمر كامل .
- الترجمة ضرورة حضارية ، للدكتور عبد العزيز حمدى عبد العزيز .
- معلقة امرؤ القيس بين ترجمتين ، للدكتورين محمود على مكى وجمال عبد الناصر .
- التعامل الثقافى فى ترجمة الأدب العربى القديم ، للدكتورة آنا چيل .
- ترجمات الرازى فى العصور الوسطى ، للدكتور إسحق عبيد .
- الترجمة والحوار بين الحضارات ، للدكتور عاطف العراقى .
- حوار الثقافات بين الشرق والغرب ، للدكتور حامد أبو أحمد .
- الترجمة وتفاعل الثقافات ، للدكتور بهاء شاهين .
- الترجمة ضرورة حضارية ، للدكتور فخرى لبيب .
- ترجمة كتب التاريخ الموريسكى ، للدكتور جمال عبد الرحمن .
- الترجمات العربية الأولى ودورها فى الثقافة العربية الإسلامية ، للدكتور مجدى عبد الحافظ .
- النص الدينى وحركة ترجمته إلى الفرنسية ، للدكتورة كاميليا صبحى .
- مشروع التأويلية الإسلامية واليهودية كنقد للحداثة ، للدكتورة أنجيلكا نيوورث .
- الترجمة والنهضة ، للدكتورة زينب الخضيرى .
- النقل ، ترجمة أم إبداع (النموذج العربى القديم) ، للدكتور حسن حنفى .

● وخلال نفس الفترة [٢٩ مايو - ١ يونيو] نظم المجلس الأعلى للثقافة بمصر حلقة بحثية حول كتاب الإلياذة لهوميروس ؛ وذلك بمناسبة صدور الترجمة العربية الجديدة للإلياذة بإشراف الدكتور أحمد عتمان ، بجانب إعادة طبع الترجمة التى قام بها البستانى فى أوائل القرن العشرين . ومن الأوراق المقدمة فى هذه الحلقة البحثية وله علاقة بالتراث العربى :

- هوميروس فى الأدب العربى ، للدكتورة علية حنفى .
- هوميروس فى المصادر العربية القديمة ، للدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى .

● وفى يوم الأربعاء ٢ يونيو ٢٠٠٤م نظم المركز الثقافى الفرنسى بالإسكندرية ندوة هى (تاريخ الكتابة العربية / ١٥ قرنًا من التطور) حاضر فيها السيد فريدريك امبير مدير قسم التعليم واللغة العربية المعاصرة بالقاهرة .

● وفى خلال الفترة من الأحد ٦ يونيو إلى الثلاثاء ٨ يونيو ٢٠٠٤ م نظم المعهد العلمي الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة مؤتمرًا بعنوان (المجتمعات المتوسطية أمام المخاطر) ومما قدم فيه من أبحاث تتعلق بالتاريخ الإسلامى :

- الدولة الإسلامية في أوج اتساعها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، للدكتور أيمن فؤاد سيد .

- حدود سياسية أم حدود ثقافية؟ أنموذج الحدود بين البلدان الإسلامية والبلدان المسيحية فى الشرق فى عصر الصليبيين ، للدكتور أنچيليك لاو .

● وفى يوم الإثنين ٧ يونيو ٢٠٠٤م عقد المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ندوة عن (عمليات الترميم الجارى إنجازها فى القاهرة الإسلامية) حاضر فيها السيد كريستوف بولو رئيس المهندسين فى مشروع مؤسسة الأغاخان الثقافية .

إصدارات مركز تحقيق التراث

الإصدارات الجديدة (٢٠٠٤) :

١ ـ أبكار الأفكار فى علم أصول الدين ، للآمدى (الأجزاء ١ ـ ٥) .

٢ ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، للسخاوى (ج ٢) .

٣ ـ الجوهرتين العتيقتين ، للهمدانى .

٤ ـ الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك (ج ١٧) . (إعادة طبع مع إعداد جديد) .

٥ ـ ديوان ابن الرومى (الأجزاء١ – ٦) .

٦ ـ شرح كتاب سيبويه ، للسيرافى (ج ٥ و ٦) .

٧ ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية ، للجيلى .

٨ ـ العاطل الحالى والمرخص الغالى ، لصفى الدين الحلى .

٩ – عقد الجمان (العصر الأيوبى) ، للعينى (ج٢) .

١٠ – عنوان الزمان ، للبقاعى (ج ٢) .

١١ – القوافى ، للتنوخى .

١٢ – مستوفى الدواوين ، للأزهرى (ج ١) .

١٣ – الموسم الثقافى لمركز تحقيق التراث (شوامخ المحققين) .

١٤ – نزهة النفوس ومضحك العبوس ، لابن سودون .

تحت الطبع :

١ – الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك :

- الأجزاء من (١ – ٦) طبعة جديدة منقحة .
- (ج ١٨) (بإعداد جديد) .

٢ – ديوان ابن مطروح .

٣ – ربيع الأبرار ، للزمخشرى (ج ٣) .

٤ – رسالة فى ترتيب أكل الفاكهة ، للرازى .

٥ - الفهرست ، لابن النديم .

٦ - مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمرى (جـ ١٠ فى الموسيقى) .

٧ - مستوفى الدواوين ، للأزهرى (ج٢) .

٨ - المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى (ج ١١) .

٩ - نزهة الأبصار فى خواص الأحجار ، للدمشقى .

١٠ - نيل مصر ، للأقفهسى .

كتب يجرى تحقيقها :

١ - الآثار - للشيبانى .

٢ - إظهار النصر ، للبقاعى .

٣ - بغية الفلاحين - للملك الأفضل .

٤ - التبر المسبوك ، للسخاوى (ج ٣) .

٥ - ربيع الأبرار ، للزمخشرى (ج ٤) .

٦ - شرح كتاب سيبويه ، للسيرافى (ج ٧ - ٩) .

٧ - عقد الجمان - للعينى ، ج ٣ .

٨ - عنوان الزمان ، للبقاعى (ج ٣) .

٩ - لقط المنافع - لابن الجوزى .

١٠ - مدارج السالكين - لابن قيم الجوزية (ج ٥) .

١١ - مستوفى الدواوين ، للأزهرى (ج ٣) .

١٢ - المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى (ج ١٢) .